دورة العلوم والمعارف الإسلامية

معرفة المعاد

المجلد الخامس

تأليف

سماحة العلامة آية الحق
آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

دار المحجة البيضاء







بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

هو العليم

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٣

معرفة المعاد

الجزء الخامس

تأليف

سماحة العلّامة الراحل

آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

عبد الرحيم مبارك

دار المحجّة البيضاء

الحسينيّ الطهرانيّ ، السيّد محمّد الحسين ، ١٣٤٥ ـ ١٤١٦ هـ.
معرفة المعاد / لمؤلّفه السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ . ـ بيروت:
دار المحجّة البيضاء ، ١٤١٥ ـ هـ.
١٠ ج . ٢٦٥ ص . ـ (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة : ٣)
الطبعة الأُولى : ١٤١٧ ـ هـ.

العنوان .
٢٩٧/٤٤ BP٢٢٢

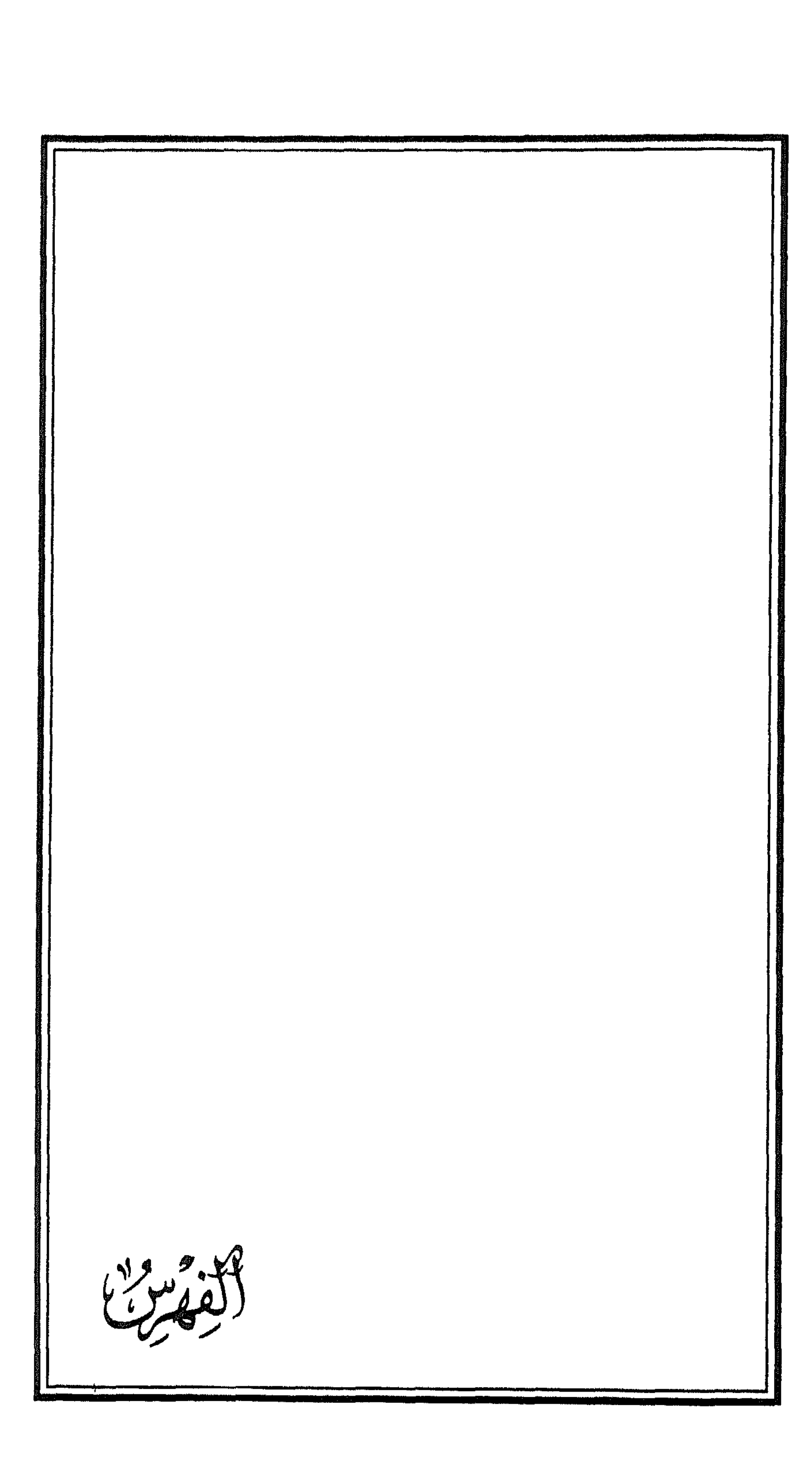
بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسّسة ترجمة ونشر (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلّامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة (٣)
معرفة المعاد
الجزء الخامس
المؤلف : سماحة العلّامة الرّاحل آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس الله نفسه الزكيّة
تعريب : عبد الرحيم مبارك
الطبعة الأُولى : ١٤١٧ هجريّة
عدد النسخ : ٢٠٠٠
الناشر : دار المحجّة البيضاء


الفهرس



فهرس مطالب و موضوعات

مـعـرفـة المعاد

الجزء الخامس

المطالب **الصفحات**

المجلس السابع والعشرون :

ظهور الموجودات عند إشراف القيامة بربط أنفسها بالله تعالى

الصفحة ٣ إلى الصفحة ٣٣

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات
نور التوحيد هو الظاهر الوحيد يوم القيامة	٢١
مقولة أمير المؤمنين عليه السلام في التوحيد	٢٣
الشراب الطهور الملكوتيّ لسالكي طريق لقاء الله تعالى	٢٥
ظهور نور التوحيد في المقرّبين والمخلَصين	٢٧
الإعراض عن ذكر الله يسبّب العمى يوم القيامة	٢٩
نجاة عمران بن شاهين من عضد الدولة ببركة أمير المؤمنين	٣١

الدرس الثامن والعشرون :

خفاء جانب وجه الخلق وظهور جانب وجه الله في القيامة

الصفحة ٣٥ إلى الصفحة ٦٩

يشمل المطالب التالية :

فهرس المطالب و الموضوعات

فهرس المطالب و الموضوعات



المجلس السابع والعشرون

ظهور الموجودات عند إشراف القيامة
بربط أنفسها بالله تعالى



بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَهِ ٱلَّذِيَ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .[1]

الآيات الدالّة على أنّ السماء والأرض والجبال والبحار وموجودات السماء والأرض .. تفنى وتتلاشى وتتبدّد جميعها عند ظهور القيامة كثيرة جدّاً في القرآن الكريم ، وقد ذكرنا بعضاً منها قبلاً .

ونقرأ في الآيتين ١٩ و ٢٠ ، من السورة ٧٨ : النبأ :

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا * وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا .

حيث إنّ السراب بمعنى الباطل والوهم مقابل الماء ؛ السراب يعني الماء الخياليّ والوهميّ . فالسراب يطلق على الشيء الذي لا حقيقة له ، والذي أظهر نفسه وتجلّى في خيال الإنسان بصورة الواقع والحقيقة ، والسراب الحاصل في الصحارى والفيافي صورة للماء ، حيث تسطع الشمس على الأرض بأشعّتها وحرارتها ، فيحصل للمناطق المغطّاة بالرمل

١ـ الآية ٨٨ ، من السورة ٢٧ : النمل .

والحصى بريق ولمعان يخاله الناظر من بعيد ماءً ، فإذا اقترب منه تبيّن أنّه ليس ماءً حقيقيّاً ، بل كان ماء خياليّاً موهوماً .

يقول تعالى في هذه الآية إنّ الجبال تصبح سراباً ، أي : باطلاً ووهماً ؛ مع أنّ الجبال لو سُحقت وذُرّت بين السماء والأرض كالعهن المنفوش ، ولو صُبّت في البحار ، فإنّها ـ مع ذلك كلّه ـ لن تكون باطلاً ووهماً ، بل هي حقيقة خرجت من صورة إلى صورة أُخرى .

إنّ الآية التي ذُكرت في مطلع البحث هي الآية التالية لآية نفخ الصور :

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ * وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ.[1]

ولمّا كانت هذه الآية تالية لآية نفخ الصور ، فإنّها تريد عرض منظرٍ من مناظر القيامة ، وهو منظر سير الجبال .

وإذا كان هذا السير حقيقيّاً ، فإنّ ذلك الزمان الذي تنفطر السماء فيه ، وتنشقّ الأرض وتفور البحار ويتصاعد اللهب منها ، وتحينُ زلزلة الساعة فتزلزل الناس بشدّة بحيث تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، وتضع كلّ ذات حمل حملها ، هو زمان ليس فيه من معنى لـ«وتحسبها جامدة» . ذلك أنّنا نعلم أنّ الجبال في حركة وسير وارتعاش وتزلزل واندكاك . وحينئذٍ ينبغي له أن يقول : **وَتَرَى الْجِبَالَ مُتَحرّكَةً مُتَزَلْزِلَةً لَا تَسْتَقِرُّ بِشَيْءٍ.**

فيتّضح من قوله : **وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ** ، أنّ الجبال قد حفظت ظاهرها ، وأنّها تستقرّ في أماكنها بصلابة

١ـ الآيتان ٨٧ و ٨٨ ، من السورة ٢٧ : النمل .

وعظمة ومتانة .

أمّا من حيث الواقع فإنّها في سير وتجوال ، ولها حكم السراب ، وتشير بوجودها التكوينيّ إلى أنّها لا تمتلك في الحقيقة استقلالاً وجوديّاً ، وأنّ وجودها الاستقلاليّ ليس إلّا سراباً ، بل وجودها الحقيقيّ هو الارتباط بالحقّ تعالى .

ويشهد على هذا المعنى ذيل الآية ، حيث يقول :

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ.

وهو شاهد على استقرار الجبال وإحكامها ، لا على زوالها واندكاكها ودمارها . ويمكننا أن نستفيد من هذه الآية أنّ الموجودات تتجلّى للإنسان عند طليعة القيامة بصورة السراب وهيئته ، وأنّ الموجودات الجامدة التي ظاهرها الاستقلال في الوجود تُرى في حالة السير والحركة والاضمحلال .

ـ إذَن ـ ستتلاشى تلك الأُبّهة والجلال والعظمة والاستقلال التي كانت مشهودةً في الأشياء ، فلا استقلال للأشياء في وجودها بعدُ ، وهذا هو في الحقيقة كون الموجودات سراباً وباطلاً ووهماً .

إنّ جميع الموجودات ـ بلا استثناء ـ قبل ظهور القيامة وطليعتها ، وقبل انكشاف الحقائق هي موجودات مستقلّة في نظر الناس ونظر مشاهديها ، ولها تشخّص وهويّات خاصّة ، حيث جاءت الآية الكريمة **وَتَحْسَبُهَا جَامِدَةً** لبيان هذه الحقيقة .

أمّا عند ظهور وبروز مقدّمات القيامة وآثارها ، فإنّها تفقد هذا المعنى لدى الناس وتصبح في هيئة السراب ، فتُدمغ بأجمعها بخاتم الفناء والبُطلان والزوال .

والآية الكريمة : **صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ** . دالّة على حقيقة ارتباط الموجودات بالله تعالى ، ذلك الارتباط المتقن والمتين والممتنع

زواله بأيّ وجه من الوجوه . فهذه الآية لا تريد الإيحاء أنّ السماء والأرض والشمس والقمر تبدو عند المحتضر كذا وكذا .

كأن تقول مثلاً إنّ الشمس ثابتة وطيدة في مكانها ، إلّا أنّها تبدو للمحتضر الذي يوشك أن تقوم قيامته مُعتمة مُنكسفة ،كما يبدو له القمر منخسفاً . وإنّه وهو يعالج سكرات الموت في حال اضطراب وتشويش ، يمسك الندم والحسرة بتلابيبه ، أمام عمرٍ قضاه في الدنيا ، وقلبٍ وهبه لها وتعلّق بها ، فلقد اعتاد أن يرى أمامه في الدنيا نور الشمس الزاهر ، والقمر اللامع ، ومنظر النجوم المتلألئة ، والمناظر الخضراء النضرة والمياه المنعشة ، هذه المناظر التي أنس بآثارها وبغيرها ، فهو يريد الآن أن يدعها ويرحل ، ويدفنها في مقبرة النسيان حالاً . فهذا الموت والارتحال سيكون مُرّاً وقاسياً عليه إلى الحدّ الذي ستبدو معه الشمس منكسفة أمامه ، وسيبدو القمر منخسفاً ، وتتساقط النجوم ، وتفور مياه البحار وتتأجّج ناراً .

تماماً كما يقول أحدنا في محاوراته : إنّ الأرض قد انشقّت أمامي إثر الحادثة الفلانيّة ، وإنّ السماء انهدّت على رأسي ، وإنّ النهار المضيء الأبلج قد أظلم في عيني ؛ فهذه الأُمور مشهودة حقّاً عند بعض الأفراد الذين يُصابون بخسارة ومُصيبة ، إذ يلوح النهار المضيء يلوح في أعينهم مُظلماً حقّاً ، ويتبدّل الطعام اللذيذ في مذاقهم سمّاً زعافاً .

إنّ الأُمّ التي فقدت طفلها لو أُخذت للنزهة وأُجلست على ضفة نهر ، أو بجوار حوض من الماء ذي رونق جميل خلّاب من أجل الترفيه عن النفس ، فإنّ تلألؤ الأمواج سيبدو في عينها كأنّه بريق ألسنة نار جهنّم وشررها المتطاير ، وسيكون كلّ نسيم يهبّ مداعباً الحشائش وأوراق الشجر كالمشرط الذي يجرح روحها . فما الذي تدركه ـ يا ترى ـ من النزهة والتسلية ؟ إنّها تحترق الآن لفراق أعزّ أحبّائها ، فالدنيا مظلمة خاوية في

عينيها ، وسقوف عمارتها العظيمة الفخمة منهارة على رأسها ، وأصوات الطيور والبلابل الساحرة في زقزقتها وشدوها الغزليّ تبدو كنعيب البوم ونعيق الغراب المقرّح للأفئدة .

أفتريد الآية الكريمة ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أن تُوحي هذا المعنى ؟

كلّا ، ليست الآية الشريفة في صدد بيان هذا القصد .

الآية تقول : إنّ الجبال تصبح باطلاً ووهماً ؛ هذه الجبال التي تراها جامدة ووطيدة في أماكنها ، ذات استقلال وعزّة في الوجود وأُبّهة وعظمة ، هي الآن كالسراب ذليلة لا قيمة لها ولا أثر ، ولا ثبات لها ولا استقرار ، كشأن السحب المتفرّقة المتبدّدة في السماء . وهذا هو صنع الله الذي أتقن كلّ موجود خَلَقَه ، وأنشأ كلّ شيء على أساس من المتانة والثبات .

في ضوء ذلك نرى أنّ هذا الإتقان والإحكام راجع إلى جهة ارتباطها بالله تعالى ، ويجعلنا نفهم معنى الوجهة الباطنيّة والملكوتيّة للموجودات . وأنّ كونها سراباً بلحاظ الخلقة والنظر الاستقلاليّ للوجود ، وهو عين الثبات والبقاء والإتقان بلحاظ الارتباط بالله من الوجهة الوجوديّة المرتبطة بالله تعالى وعدم استقلالها في حيّز الوجود .

فالعالم ـ إذَن ـ سيتبدّل عند ظهور القيامة ، ووجهة الموجودات ستتغيّر كلّيّاً يومئذٍ .

إنّ الموجودات التي كانت قبل أشراط القيامة ذات استقلال في الوجود ، وتظهر وكأنّها مستقلّة ومعتمدة على نفسها ، وكانت جهة ارتباطها بالله كامنة ومخفيّة ، ها هي الآن ـ وقد تبدّل العالم وظهرت حقيقة الأمر للراحلين إلى القيامة بصورة أُخرى قد أظهرت حقيقة نفسها التي ما هي إلّا السراب والفناء وأن لا استقلال لها ولا اعتماد لها على نفسها أبداً ، وها

وجهة ارتباطها بالله تعالى تتّضح وتتجلّى. وهذا هو معنى: **صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**.

ووردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ينبغي النظر والتأمّل في كلّ منها بدقّة:

يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ.[1]

فهل تظهر الموجودات في ذلك اليوم للّه تعالى، فهي اليوم خافية غير ظاهرة له؟

وهل القدرة والعظمة والمُلك لا تختصّ اليوم بالله تعالى، ثمّ تختصّ به آنذاك في ذلك العالَم وذلك المشهد؟

ما هذه المطالب؟! ما لكم تنسبون المِلك والمُلك المطلقينِ ذلك اليوم للّه تعالى، وتقولون إنّ المُلك والعظمة والمِلك للّه تعالى يومئذٍ؟! **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**.[2]

هل خُصّ ذلك اليوم بعدم المصونيّة؟! أي: أنّ الناس يمكنهم اليوم أن يهربوا من يد الله، إذ إنّ لهم رفيقاً وشريكاً ومعيناً ومساعداً يحول بينهم وبين الله تعالى؟! ثمّ إنّ هؤلاء الرفقاء والشركاء والأعوان والمساعدين يفنون في ذلك اليوم، فتعود القدرة إلى الله مباشرة!! وتظهر قدرة الله وعظمته آنذاك؟!

مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ.[3] فيؤويكم ويحميكم

١ـ الآية ١٦، من السورة ٤٠: غافر.

٢ـ الآية ٣٣، من السورة ٤٠: غافر.

٣ـ الآية ٤٧، من السورة ٤٢: الشورى.

ويذبّ عنكم أمام الله !

يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .[1]

وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .[2]

وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .[3]

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ .[4]

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ .[5]

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا .[6]

فهذه الآيات تدلّ بأجمعها على أنّ أيّ نفس لا تستطيع أن تعين نفساً أُخرى يوم القيامة ولا تقضي حاجاتها ، ولا تنقذها من محنها ، ولا تُنجيها من براثن العذاب ، أو تدافع عنها .كما تدلّ الآيات المذكورة على أنّ القدرة والسلطنة والمِلك في ذلك اليوم لله تعالى ، وأنّ الأمر والنهي بيده لا بيد غيره . بينما نعلم أنّ القدرة والعظمة والمِلك والمُلك هي لله على الدوام ، وأنّ الأمر والنهي ما برحا بيده تعالى ، وأنّ أحداً لا يمكنه مطلقاً أن يقف في مقام الدفاع أمام الربّ ، أو أن يسبق أمره عزّ وجلّ .

١ـ الآية ٤١ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٢ـ الآية ١٢٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤ـ الآية ١٩ ، من السورة ٨٢ : الانفطار .

٥ـ صدر الآية ١٠٥ ، من السورة ١١ : هود .

٦ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٤ : النساء .

إنّ الله تعالى هو الحاكم دوماً ، ولا ملجأ للإنسان في أيّ وقت إلّا الله ، ولا قدرة ولا ملك ولا شفاعة لأحد إلّا بإذنِ الله تعالى ، لا تفاوت في هذا الأمر اليوم أو غداً ، وفي الدنيا أو في الآخرة .

الله سبحانه هو القادر والقهّار والمستقلّ بالذات ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وهو الجبّار والغفّار ، وهو الغفور والرحمن ، لا فرق في ذلك بين اليوم والغد .

إن الإله الذي يمتلك القدرة اليوم ولا يمتلكها غداً، أو لا يمتلكها اليوم ويمتلكها غداً ليس إلهاً . إن الإله الذي تجري الأمور بدون إذنه وأمره ونهيه اليوم ويوم القيامة تجري بإذنه وأمره ليس إلهاً . إنّ الإله الذي لا استقلال له اليوم في تدبير الأمور والتكوين وغداً له الاستقلال ليس إلهاً .

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ .[1]

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ .[2]

فصفات الحضرة الأحديّة هذه لا اختصاص لها بالآخرة ، بل ما برحت هكذا وستبقى كذلك . ولو قال أحد باختلاف هذه الصفات بين اليوم والغد ، وبين هذا العالم وعالم القيامة ، لكان قوله عين الشرك .

فما الذي تريده هذه الآيات يا تُرى ؟

إنّ هذه الآيات تريد أن تبيّن لنا أنّ قدرة الله وعظمته ، ومُلكه ومِلكه ، وأمره ونهيه ، وسلطانه وقهّاريّته ستتجلّى لكم ذلك اليوم واضحة جليّة . أنّ ذلك اليوم يوم الإدراك والفهم ، ويوم المعرفة وكشف الحقائق ،

١ـ صدر الآية ٨٤ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٢ـ الآيات ١ إلى ٤ ، من السورة ١١٢ : الإخلاص .

ويوم الظهور والتجلّي . فأنتم لا يمكنكم اليوم أن تستوعبوا حقيقة توحيد ذات الباري تعالى شأنه العزيز وأسماءه الحسنى وصفاته العليا ، أو أن تدركوها حقّ الإدراك والمعرفة .كما لا يمكنكم اليوم أن تلمسوا اختصاص هذه الصفات بالله تعالى لمس اليد ، لكنّ هذه الحقيقة والاختصاص سيتجلّيان لكم ذلك اليوم ويصبحان قابلينِ للفهم والإدراك .

يتعذّر عليكم اليوم بسبب الحجب النفسيّة والانشداد إلى المادّة والطبع أن تدركوا أنّ الموجودات بأجمعها ليست إلّا سراباً ، فقد صَرفت سلسلةُ العلل والمعلولات بنظامها العجيب المدهش هذا أنظاركم عن الحقيقة وعطفتها إليها . فلا يمكنكم أن تعقلوا أنّ ما يتّصف بالإتقان والإحكام هو فقط جهة وجه الله وارتباط الموجودات بخالقها وأنّ الموجودات في حدّ ذاتها سراب وباطل وعدم وفناء محض .

أمّا ذلك اليوم الذي يطلع فيه نور حقيقة الذات المقدّسة للحضرة الربوبيّة ، فستدركون أن ليس في جميع عوالم الإمكان ونشآت الخلقة من مالك للإرادة والاختيار والقدرة والعظمة غير ذاته المقدّسة .

وستدركون ذلك اليوم معنى قوله تعالى : **وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ** ، والحقيقة التي يريد بيانها الكلام المعروف القائل : **لَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دَيَّارٌ** . وستدركون ذلك اليوم معنى شعر لبيد الذي قال عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله : **هُوَ أَصْدَقُ شِعْرٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ** ، وذلك في قوله :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

* * *

أَكُؤوسٌ تَلَألَأتْ بِمُدَامِ أَمْ شُمُوسٌ تَهَلَّلَتْ بِغَمَامِ

از صفاى مى و لطافت جام

در هم آميخت رنگ جام و مُدام

همه جام است و نيست گوئى مى

يا مُدام است و نيست گوئى جام[1]

وسيتّضح ذلك اليوم أنّ بناء الوجود الشامخ هو بأجمعه من المتجلّيات بجمال الله ومن المتدلّيات بجلاله .

مُحسن ازل پرده ز رُخ باز كرد فاش و نهان جلوه آغاز كرد

نور و ظُلَم شد همه ظاهر ازو گشت عيان جمله مظاهر ازو

بافت به هم سلسلهٔ جزو و كلّ يافت از آن مرتبه هر خار و گل

فاش و نهان هر چه بود در نظر مَظهر حُسنند همه سر به سر[2]

وستفهمون آنذاك معنى أنّ الله تعالى ، **مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّين** ، بل ستدركون أنّ **الْمُلْك لِلَّهِ** ، **الْعِزَّة لِلَّهِ** ، **الْعِلْم لِلَّهِ** ، **الْقُدْرَة لِلَّهِ** ، **الْحَيَاة لِلَّهِ** ، وأنّ جميع صفات المُلك والسلطان والعزّة والعلم والحياة والقدرة مختصّة بذات الله المقدّسة .

فنتيجة المطلب ـ إذَن ـ أنّ الآيات التي تنسب هذه الصفات إلى الله تعالى يوم القيامة ، لا تنسبها من جهة قيام هذه الصفات بتلك الذات المقدّسة في ذلك اليوم ، بل من جهة ظهور وبروز هذه الصفات يومئذٍ بحيث ستُدرك الخلائق بأجمعها هذا المعنى في القيامة .

وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ

١ـ «ديوان شيخ عراقى» .

٢ـ يقول : لقد أسفر حُسن الأزل عن طلعته ، فتجلّى السرّ والعلن للعيان .

فتجلّى النور والظلمة كلاهما منه ، وبدا للعيان أنّ الكلّ هم مظاهره .

ولقد نسج سلسلة الجزء والكلّ معاً فحاز ، كلّ شوكة ووردة مرتبته منها .

وأنّ السرّ والعلن مهما كانا في النظر فإنّهما كلاهما بأرجائهما مَظهر للحُسن .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ .[1]

إنّ الأتباع الذين عقدوا الأمل على متبوعيهم ، وأمّلوهم أن يجزوهم على متابعتهم لهم في الجرائم والمظالم والمعاصي التي ارتكبوها ، يتوسّلون بهم يوم القيامة لرفع العذاب عنهم ، بَيدَ أنّ الرؤساء والمتبوعين لا يقدرون يومئذٍ على شيء ، لأنّ القدرة والقوّة مختصّة هناك بالله تعالى ، ولأنّ جميع الروابط والسُبل التي يمكنهم عن طريقها إعانة أتباعهم قد تقطّعت هناك . لذا فإنّهم يجيبونهم : لو كانت لنا قدرة لدفعنا بها العذاب عن أنفسنا . نحن وإيّاكم سواء ، يائسون بلا قدرة ولا إرادة ولا اختيار قد فقدنا الوسيلة والأسباب .

ويبيّن قوله تعالى : **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ** أنّ جميع سلسلة الروابط الاعتباريّة متعلّقة بالدنيا ، وأنّ عنوان التابعيّة والمتبوعيّة ، والآمريّة والمأموريّة ، والرياسة والمرؤوسيّة ستزال جميعها يومئذٍ ، فليس هناك من هذه الروابط شيء . وليس هناك إلّا مخلوقات تعيش بجهة الارتباط بإلهها وربّها ، فهي جميعاً مرتبطة ومتعلّقة بنور التوحيد ، وليس لأيّ موجود وجود بنفسه ـ ولو قيد شعرة ـ مقابل وجود الله تعالى .

وَصَرِّحْ بِإطْلَاقِ الْجَمَالِ وَلَا تَقُلْ   بِتَقْيِيدِهِ مَيْلاً لِزُخْرُفِ زِينَةِ
وَكُلُّ مَلِيحٍ حُسْنُهُ مِنْ جَمَالِهَا   مُعَارٌ لَهُ بَلْ حُسْنُ كُلِّ مَلِيحَةِ[2]

وتدلّ الآية الكريمة : **وَلَا يُقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ** على عدم قبول شفاعة ولا فدية .

وعندما لا يأذن الله في أمرٍ ما ، فليس هناك تفاوت واختلاف ، سواءً

١ـ النصف الثاني من الآية ١٦٥ ، والآية ١٦٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ من أشعار «نظم السلوك» التائيّة الكبرى لابن الفارض ، ص ٦٩ و ٧٠ .

في هذا العالم أم في ذلك . غاية الأمر أنّ الاستشفاع في هذا العالم ، لمّاكان بغير الله تعالى ، فإنّه حين يؤثّر فإنّ تأثيره في الحقيقة من الله تعالى . أمّا في ذلك العالم فمشهود أنّ كلّ عمل يحصل من أيّ شخص منوط ومرتبط بالله تعالى وبإذنه .

ولابدّ لنا من ذكر مقدّمة لتستبين المطالب التي قيلت بشكل أفضل : إنّ هذا العالم ، عالم المادّة والطبع الذي ، له سُنن وأسباب ، وإنّ الحقائق التي تشكّل هذه الدنيا ، مثل الشمس والقمر والنجوم ، والصحراء والجبل والبحر ، والريح والمطر ، وتغييرات الفصول ، واختلاف الليل والنهار ، بآثارها وخواصّها التي لا تعدّ ، وروابطها ونسبها التي لا تُحصى ، لها وجهتان وصورتان :

وجهة خلقيّة ووجهة إلهيّة ، صورة خلقيّة وصورة أمريّة تدعى وجه الله . إذَن لهذا الظاهر المحسوس باطن ، وهذا الظاهر هو ستار وحجاب عن إدراك الحقائق الباطنيّة .

الظاهر هو الشيء المشهود بالحواسّ الظاهريّة ، من الأشياء المرئيّة والمسموعة والمشمومة والمذوقة والملموسة التي يستند نشوؤها وفقدانها وحدوثها وانعدامها إلى سلسلة علل ومعلولات وأسباب ومسبّبات لا تقبل التغيّر والتبدّل في هذا العالم .

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَهِ تَبْدِيلًا .[1]

ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَهِ تَحْوِيلًا .[2]

١ـ النصف الثاني من الآية ٦٢ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب ؛ ومقطع من الآية ٤٣ ، من السورة ٣٥ : فاطر ، بلفظ : فلن تجد ؛ والنصف الثاني من الآية ٢٣ ، من السورة ٤٨ : الأحزاب .

٢ـ الفقرة الأخيرة من الآية ٤٣ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

فهذا العالم جميعه بنظامه العجيب ، وبما فيه من سلسلة الروابط والعلاقات المتينة والدقيقة ، يعمل على أساس هذه السنّة الإلهيّة دون أدنى تخلّف .

ولو سقطت بذرة على الأرض فإنّها لن تنمو إذا لم تُسقَ بالماء ، وهكذا فإنّ بذور الخشخاش لن تنمو في زجاجة البذور الموضوعة على رفّ بائع البذور ، أمّا لو أخضعنا بذرة الخشخاش هذه إلى سلسلة علل نموّ طبيعيّة ، فنثرناها على الأرض ، وسقيناها ، وكان الجوّ مساعداً ، والشمس ساطعة ، لأينعت تلك البذرة وأورقت .

ونحن نرى أنّ هذه البذرة خاضعة لسلسلة أسباب لا تتغيّر ، يتبع بعضها بعضاً ، ولا يمكن لأيّ منها التخلّف .

وبالإضافة إلى ظروف البيئة المناسبة ، فإنّ هذه البذرة ـ من حيث تغذيتها ـ ينبغي أن تبقى في مأمن من الحشرات والآفات كي تنمو وتخضرّ ، وإلّا جرفها السيل ، أو أصبحت طعمة للنمل والعصافير .

كما أنّ النطفة يجب أن تُراق في الرحم ، ويجب أن تصلها الموادّ الغذائيّة لتطوي مراحل تكاملها ، حتّى يطلّ على العالم طفل سويّ ذو ذكاء وقابليّة .

أمّا عن غير هذا الطريق فإنّ بذرة الخشاش لن تتفتّح ، والجنين لن يصبح طفلاً كاملاً سويّاً .

ولولا الشمس لما اخضرّت شجرة ، وماكانت هناك بيئة يعيش فيها الإنسان والحيوان ، ولولا قوّة الجاذبيّة وقوّة الدفع لما وجد العالم ، ولو انعدمت قوّة الجذب إلى المركز والقوّة الطاردة عنه لما وجد العالم ، ولولا حركة الذرّة لما وجد العالم ، ولولا الحركة الجوهريّة لما وجد العالم .

إنّنا ننسب الموجودات بأجمعها إلى هذه السلسلة من العلل

والمعلولات وفق قوانين صحيحة منطقيّة وفلسفيّة ، وهذه السلسلة من العلل كلّها صحيحة غير قابلة للتغيير .

أمّا لو تخطّيتم سلسلة العلل هذه إلى ما فوقها وتطلّعتم إلى ذلك الوجه الإلهيّ للموجودات ، لرأيتم أنّ جميع هذه الموجودات هي بإرادة الله وقدرته ، وأنّ ملكوتها بِيَدِ الله تعالى ، وحقيقتها الارتباط بالله تعالى الذي أوجدها بلفظ واحد هو «كُن» ، وأنّه هو الذي يحفظها ويُبقيها . ولشاهدتم أنّ هذه الموجودات من وجهة نظر الوجود سراب باطل بدون ذلك الارتباط ، إن أفاض عليها رحمته وُجدت بأسرها ، وإلّا كانت كلّها عدماً .

هذا العالم يشبه تماماً مصنعاً لو دخلتموه لشاهدتم آلات عديدة يقومُ كلّ منها بعملٍ خاصّ . فإحدى الآلات تستلم الموادّ الأوّليّة وتحوّلها إلى موادّ أُخرى ، ثمّ ترسلها بعد تحويلها إلى آلة أُخرى تجري عليها بدورها تغييراً خاصّاً ، ثمّ تبعث بها إلى آلة ثالثة ، وهكذا تترك كلّ آلة أثرها في تلك الموادّ ، لتصل بعد ذلك إلى الآلة الأخيرة التي تكمل تلك المادّة المطلوبة وترسلها خارجاً لعرضها للاستفادة منها .

وهكذا فإنّكم ستعجبون حين تشاهدون تلك السلعة ، كيف قامت كلّ واحدة من هذه الآلات بإنجاز عمل معيّن على تلك المادّة آليّاً دون الاستعانة بالإنسان ورقابته ، ، بحيث أعدّتها للاستعمال في نهاية المطاف بنحو مرغوب ومطلوب .

أمّا لو خرجتم من المصنع وذهبتم إلى مقرّ الشركة لرأيتم أنّ الذي حرّك هذا المصنع ونظّمه وفق هذا المعيار والأُسلوب الدقيق ، شخص واحد يعمل هذا المصنع بإرادته ، ويتوقّف عن العمل بإرادته .

كان هذا من باب التمثيل ، بَيدَ أنّ حقيقة أمر وجه الله قياساً للموجودات أرقى جدّاً ، والارتباط أقوى وأمتن كثيراً .

إنّ جميع سلسلة العلل والمعلولات في هذه الدنيا تنجز عملها بدقّة ونظام فائقين ، فالأبوان ، والرفيق ، والشريك ، والزوجة ، والولد ، والرئيس ، والحاكم ، والأرض ، والمطر ، والنهر ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، وحركة جزر البحر ومدّه وغيرها ، يحتلّ كلّ منها مكانه اللائق به ، ولها تأثيرها في تأمين حياتنا ، ولو زالت حلقة واحدة من هذه السلسلة ، ومن هذه الروابط في الأسباب والحوادث ، لدّمّر العالم وآلَ أمره إلى العدم .

هذه هي **وجهة الخلق** ؛ أمّا الوجهة الإلهيّة فهي الارتباط الكامل لهذه السلسلة ولكلّ حلقة من حلقاتها بالله تعالى ، حيث إنّ نور التوحيد وحده هو الذي يشعّ من سرادق عالم الغيب على هذه الهياكل ، وهو المسيّر لعمل عالم الوجود ، فهذه السلسلة برمّتها مأمورة بأمر الله ، مطيعة لأمره ، ومظاهر آيات جماله وجلاله .

والوَجْهُ الإلهيّ هذا هو المُشاهَد والمحسوس في القيامة ، أمّا **الوجه الخلقيّ** فباطل وسراب زائل .

فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .[1]

إنّ أهل الدنيا غافلون عن هذه الحقيقة لانغمارهم في الطبيعة وأُنسهم بالأسباب والمسبّبات . أمّا حين يردون إلى عالم القيامة حيث لا أثر لهذه الطبيعة وللأسباب والمسبّبات ، فإنّهم سيفهمون لبّ الحقيقة ومغزاها : **كَانَ اللَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ** .

وجليّ أنّ الأفعال التي تُنسب إلى الله ثابتة ودائمة ومستمرّة ، فلا معنى في عالم الأُلوهيّة للماضي والمضارع . لذا فإنّ جملة **وَالآنَ كَمَا كَانَ** تُستنتج من نفس هذا الحديث الشريف ، فلا حاجة بنا إلى حديث آخر .

---

١ ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٣٦ : يس .

إنّ الله تعالى ما برح موجوداً ، لم يكن معه شيءٍ ،كما أنّه ليس معه شيء الآن . فكيف تُظهر الموجودات السرابيّة الباطلة وجودها مقابل ذات وجود الحقّ جلّ وعلا مع أنّ غيرة الحقّ واسم جلاله ستستأصل أساسها ؟!

لقد كان الله سبحانه وسيبقى موجوداً ، وصفات الله معه لا تفارقه ، فهو سبحانه واحد في ذاته ، وفي أسمائه وصفاته ، وفي أفعاله .كان هذا التوحيد معه وسيبقى دوماً . الله سبحانه واحد مُوحَّد في العوالم قاطبة ، ولا ينحصر تأثير صفاته في عالم التوحيد على يوم القيامة وحدها ، بل هو واحد سواءً هنا أم في القيامة .

لم يكن معه سبحانه شيء ، ولن يكون معه شيء ، **والآن كما كان** ، فمن سيكون زيد وعمرو يا ترى ؟ وماذا ستكون العلل والأسباب ؟

همه هر چه هستند از آن كمترند   كه با هستيش نام هستى برند[1]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ.[2]

سيُشاهد عند طلوع نور التوحيد أنّ هذه الجبال الصلبة الشديدة ليس لها بنفسها قدرة ولا عظمة مقدار قشّة ، بينما لو كانت قد تلاشت في الجوّ كالعهن المنفوش حقّاً ، لكان لها وجود أيضاً .

بَيدَ أنّ الجبال والموجودات جميعها بلا استثناء تفقد وجودها وشخصيّتها مقابل ظهور نور التوحيد ، إذ أيّ نور سيكون للشموع الضعيفة شبه المحروقة في عالم بزوغ نور التوحيد ؟

وعندما يتبدّل العالم فإنّ جميع الموجودات ستفقد وجودها تماماً

١ـ يقول : إنّ الأشياء جميعها ـ مهما كانت ـ أقلّ من أن يكون لها ـ مع وجوده ـ اسم الوجود .

٢ـ الآية ١٥ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

كقطع الثلج الكبيرة التي تُظهر وجودها في الأودية والحفر والعقبات شتاءً وهي في منتهى الصلابة، وما أن تسطع عليها شمس تمّوز حتّى تضمحلّ وتذوب رويداً رويداً وتفقد شخصيّتها كلّيّاً.

طَلَعَ الشَّمْسُ أَيُّهَا الْعُشَّاقُ　　　فَاسْتَنَارَتْ بِنُورِهِ الآفَاقُ

وما أروع وأسمى بيان القرآن الكريم حول اضمحلال الأسباب والعلل والأُمور الاعتباريّة في هذه الفقرة:

لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ.[١]

وهاتان الفقرتان الأخيرتان في منتهى الطرافة وإثارة العجب في عرضهما كيفيّة ترك الأموال وضياع الأعوان والأرحام والأقارب والعشيرة، وفقدان الرئيس والحاكم والمرؤوس والرعيّة في هذه الدنيا، بحيث لا يبقى منها أدنى أثر في عالم ظهور الحقيقة وتمثّل الملائكة كافّة.

لقد قضى الإنسان عُمراً وهو يتلهّى بعشق الموجودات الدنيويّة وبالتولّع بها، والآن أصبح من الواضح له أنّها كانت بأجمعها دُمى وسراباً. لقد أنفق ـ طوال عمره ـ وأفضل ثرواته الوجوديّة، وهي علمه وحياته وقدرته، في لهو تعشّق الباطل والسراب، والهيام بأُناس فارغين

١ـ مقطع من الآية ٩٣ والآية ٩٣، من السورة ٦: الأنعام.

مهزوزين ، وبعالمٍ لا اعتبار له ولا وزن . ولقد أجاد الملّا الروميّ حقّاً في بيان هذا المعنى حيث قال :

گـر بـه جـهل آئـيم آن زنـدان اوست
ور بــه عــلم آئــيم آن ايــوانِ اوست

گــر بــه خــواب آئــيم مسـتانِ وئـيم
ور بــــه بـيدارى بــه دســتانِ وئــيم

ور بگــــرئيم أبــــرِ پُــر زَرقِ وئـيم
ور بــــخنديم آن زمــان بــرقِ وئــيم

ور به خشم و جنگ عكسِ قهر اوست
ور به صلح و عذر عكسِ مِـهر اوست

مــا كــئيم انــدر جــهان پــيچ پــيچ
چون الف كو خـود نـدارد هـيچ هـيچ

چــون الف گــر تـو مـجرّد مـى‌شوى
انــــدرين ره مَــردِ مُــفرَد مــى‌شوى[1]

١ـ «مثنوى» طبعة ميرخاني ، ج ١ ، ص ٤١ .

يقول : لو كنّا في الجهل لكنّا في سجنه ، ولو خطونا في العلم فهناك أيوانه وساحته .

ولو كنّا في النوم لَكُنّا ثمالى به ، أو كنّا أيقاظاً لَكُنّا في يديه .

لو بكينا كنّا غيمه الهاطل ، أو ضحكنا كنّا برقه اللامع .

ولو كنّا في غضب وحرب كنّا صورة قهره ، أو في صلح وصفاء كنّا انعكاس محبّته وعطفه .

فمن نكون نحن في هذا العالم المليء بالمنعطفات ! نحن كحرف الألف الذي لا يملك شيئاً .

فإن كنتَ مجرّداً كحرف الألف ، كنتَ في هذا الدرب الرجل المتفرّد الأوحد !

وأبدع كذلك في إنشاده :

إسْقِنِي يَا رَبِّ كَأْسَ الْوَحْدَةِ سُكْرُهَا يُمْحِي ظَلَامَ الْكَثْرَةِ

ســـــاقيا آن بـــادهٔ وحـــدت بـــيار
تـــا بَـــرَد از چــهرهٔ دل ايــن خُــمار
عشــقِ وحــدت ار دَمــى آيــد بـه كـار
مــىكشاند مــر تــو را تـا كـوى يـار
بشــنوى آنــدم تــو بـا صــوتِ حَسَـن
بـــى مـــهابا بـــانگ المُـــلكُ لِـمَن
ار چـــه مـــولى گـفته در أُمّ الكـتاب
در قـيامت بـاشد ايـن بـانگ آن جـناب
ليك مـــطلب هـــا بســى بـاشد دقـيق
گــويمت شــرح ار بـخواهـى اى رفـيق
ســـر بـــر آر از عــوالم تـا بـه هُـو
تـــاى تـــعبير است و ضـيق گـفتگو
لب بـــبند از گـــفتگو و كُــن طـواف
ســير فــى اللــه را تـرا بـاشد مَـطاف[1]

١ـ يقول : هاتِ شراب الوحدة أيّها الساقي ليزيل عن سيماء القلب هذا الصداع .
فلو جاء عشق الوحدة لحظةً ، لجرّك إلى درب الحبيب .
فتسمع إذ ذاك بلا شك نداء لمن المُلك ، بصوت محبّب حسن .
ومع أنّ المولى قال في أُمّ الكتاب إنّ هذا هو صوته يوم القيامة .
لكنّ هذا المطلب في غاية الدقّة ، وسأبيّنه لك إن شئتَ أيّها الرفيق .
تطلّع برأسك خارج العوالم حتّى تصل إليه ، وحتّى تعبير محض فالكلام ضيّق لا مجال فيه .
واطبق شفاهك عن الكلام وطف ، وليكن السير في الله طوافك .

ردّ آنـــچه مـــر تـــرا بسـپرده دوست
هر چه هست و نيست ملك، و مالِاوست
گـــوش كـــثرت ار رهـــا بـنموده‌اى
بـــى مـــهابا بـــانگ حــقّ بشـــنيده‌اى
ليك واگـــو بـــا مَـنَت آن گــوش كـو
وَه چــه هـا بـنموده كـثرت مـو بـه مـو[1]

إنّ العين الحولاء ، والعين الرمداء كانت تخطئ التصوّر في الدنيا ، إذ طلب أصحابُها غير الله فيها ، ونسوا أحكام التوحيد ، وخُيّل إليهم أنّ تلك المتخيّلات السرابيّة لها حقّ العبور والمرور في عالم الحقيقة أيضاً ، فاتّضح في القيامة أنّ الأمر ليس كذلك .

مؤخّر عالم شده است مظهر حسن و جمال تو
اى جان بگو كه مظهر جان و جهان كـجاست؟
مقدّم روى تو ظاهر است به عالم نهان كجاست
گر او نهان بود به جهان پس عيان كجاست ؟[2]

قال المرحوم العارف الصمدانيّ والعالم الربّانيّ الحاجّ الميرزا جـواد

---

١ ـ يقول : وردّ ما أودعك إيّاه الحبيب ، فإنّ كلّ ما هو كائن ومعدوم ملكه وماله .
وإن تركتَ أُذن الكثرة فإنّك ـ بلا شكّ ـ ستسمع نداء الحقّ .
ولكن قُل أين تلك الأُذن التي كانت معك ، ووا عجباً ما الذي تفعله الكثرة بهذه الدقّة !
٢ ـ «مفاتيح الإعجاز» ص ٦٠ .
يقول : صارت نهاية العالم مظهراً لحسنك وجمالك ، فقلْ أيّها الحبيب أيـن مـظهر الروح والعالم ؟
إنّ طلعة وجهك ظاهرة للعالم ، فأين الخفاء ؟ وإن كان وجهك مستتراً عن العالم فأين ـ يا ترى ـ العيان والظهور ؟

الملكيّ التبريزيّ رضوان الله عليه في كتاب «أسرار الصلاة» :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **مَا نَظَرْتُ إِلَى شَيْءٍ إلَّا وَرَأَيْتُ آللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ .**[١]

وقال في رسالة «لقاء الله» : قال الإمام الصادق عليه السلام :

مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ .[٢]

لكنّ المرحوم صدر المتألّهين رضوان الله عليه يقول : نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه قال : **مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ آللَّهَ قَبْلَهُ.** وروي : **مَعَهُ وَفِيهِ .**[٣ و ٤]

يـاريست مـرا وراى پـرده	حسن رخ او سـزاى پـرده
عــالم هــمه پـردۀ مـصوَّر	اشيا همه نقش هاى پرده[٥]

١ـ «أسرار الصلاة» ص ٦٥ ؛ والقول لأمير المؤمنين عليه السلام .

٢ـ «لقاء الله» نسخة خطّيّة ، ص ٧ .

٣ـ «الأسـفار الأربعة» الطبعة الحجريّة ، ج ١ ، ص ٢٦ ؛ والطبعة الحروفيّةج ١ ، ص ١١٧ .

٤ـ يقول المرحوم السبزواريّ في حاشيته على كتابة «شرح المنظومة» ص ٦٦ ، طبعة ناصري ، في كيفيّة تقوّم المعلول بالعلّة : وهو متقوّم بالعلّة ، أي ليست العلّة خارجة عنه بحيث لا مرتبة له خالية عنها ، ولا ظهور له خالياً عن ظهورها ؛ بل الظهور لها أوّلاً وله ثانياً كما قال عليه السلام :

ما رأيتُ شيئاً إلّا ورأيتُ الله قبله . وقال : داخلٌ في الأشياء لا بالممازجة وخارجٌ عن الأشياء لا بالمزايلة . وأيضاً : ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج . وأيضاً : مع كلّ شيء لا بمقارنة ، وغير كلّ شيء لا بمزايلة . وأيضاً : داخلٌ في الأشياء لا كدخول شيء في شيء ، خارجٌ عن الأشياء لا كخروج شيء عن شيء . وأيضاً : توحيده تميّزه عن خَلْقه ، وحكم التميّز بينونة صفة لا بينونة عزلة . وبالجملة هذا متواتر بالمعنى ـ انتهى .

٥ـ «مفاتيح الإعجاز» ص ٦٠ .

يقول : لي حبيب وراء الستار ، حُسن طلعته جدير بأن يُستر بستار . ⇦

این پرده مرا زتو جدا کرد اینست خود اقتضای پرده

نی نی که میان ما جـدائـی هرگز نکند غِـطای پـرده[1]

بلى ، لأنّ سالكي طريق لقاء الله قد خطوا خطواتهم بهمّةٍ وقدمٍ في هذا المضمار فقد نالوا قصب السبق فيه ، ونفضوا أثوابهم عن أن يعلق بها شيء من العالَمَينِ ، فهم لا يعرفون شيئاً غير لقاء المحبوب تعالى فلا يجعلون قصدهم ومقصودهم وهدفهم ومعبودهم سواه ، وهم الذين فاقوا درجات الإخلاص ليفوزوا بمقام المخلَصين والأبرار والمقرّبين .

أُولئك الذين تخطّوا الأشياء جميعها بقدم المصابرة ومجاهدة النفس ، وغضّوا أبصارهم عمّا سوى الله تعالى ، فهم يرونه تعالى مع كلّ شيء وقبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء .

دلی کز معرفت نـور صـفا دیـد ز هر چیز که دید اوّل خدا دید[2]

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.[3]

وهنا يصبح لكلّ واحد نصيب من ذلك الشراب الملكوتيّ ، فيتحرّر فكره من سكر هوى النفس ويثمل بلقاء الله وأوليائه ، ويتجلّى هذا المعنى في الآية :

وَسَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا .[4]

⇐ العالم بأجمعه ستار مصوّر ، والأشياء كلّها نقوش في ذلك الستار .

١ـ يقول : ولقد فصل هذا الستار بيني وبينك ، وهذا نفسه اقتضاء الستار .

لا ، لا يكون بيننا انفصال وبينونة ، فالستار لم يكن أبداً غطاءً وحجاباً .

٢ـ يقول : إنّ القلب الذي شاهد صفاء نور المعرفة ، صار حين يرى شيئاً ، يرى الله قبله .

٣ـ الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٤ـ المقطع الأخير من الآية ٢١ ، من السورة ٧٦ : الدهر .

ز سقاهم ربّهم بين جملهٔ ابرار مست
و ز جمال لايزالى هفت و پنج و چار مست
تن چو سايه بر زيمن و جان پاک عاشقان
در بهشت عدن تجرى تحتها الأنهار مست
خود چه جاى عاشقان كز جام توحيد خدا
كوه و صحرا و جبال و جملهٔ اشجار مست[1]

وَكَشْفُ حِجَابِ الْجِسْمِ أَبْرَزَ سِرَّ مَا
بِهِ كَانَ مَسْتُوراً لَهُ مِنْ سَرِيرَتِي
وَمَنْ يَتَحَرَّشْ بِالْجَمَالِ إِلَى الرَّدَى
رَأَى نَفْسَهُ مِنْ أَنْفَسِ الْعَيْشِ رُدَّتِ
وَنَفْسٌ تَرَى فِي الْحُبِّ أَنْ لَا تَرَى عَنَاً
مَتَى مَا تَصَدَّتْ لِلصَّبَابَةِ صُدَّتِ
فَنِلْتُ وَلَاهَا لَا بِسَمْعٍ وَنَاظِرٍ
وَلَا بِاكْتِسَابٍ وَاجْتِلَابِ جِبِلَّةِ
وَهِمْتُ بِهَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ حَيْثُ لَا
ظُهُورٌ ، وَكَانَتْ نَشْوَتِي قَبْلَ نَشْأَتِي
بَدَتْ بِاحْتِجَابٍ ، وَاخْتَفَتْ بِمَظَاهِرٍ
عَلَى صِبَغِ التَّلْوِينِ فِي كُلِّ بَرْزَةِ
فَطِبْ بِالْهَوَى نَفْساً لَقَدْ سُدْتَ أَنْفُسَ الـ
ـعِبَادِ مِنَ الْعُبَّادِ فِي كُلِّ أُمَّةِ

١ـ «تفسير ملّا محمّد كاشفي» في تفسير سورة الدهر.

تَجَمَّعتِ الْأَهْواءُ فِيهَا ، فَمَا تَرَى
بِهَا غَيْرَ صَبٍّ لَا يَرَى غَيْرَ صَبْوَةِ

لَئِنْ جَمَعَتْ شَمْلَ الْمَحَاسِنِ صُورَةٌ
شَهِدْتُ بِهَا كُلَّ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ

فَلَو بَسَطَتْ جِسْمِي رَأَتْ كُلَّ جَوْهَرٍ
بِهِ كُلُّ قَلْبٍ فِيهِ كُلُّ مَحَبَّةِ

وَلَمَّا نَقَلْتُ النَّفْسَ مِنْ مُلْكِ أَرْضِهَا
بِحُكْمِ الشِّرَا فَهَا إِلَى مُلْكِ جَنَّةِ

رَفَعْتُ حِجَابَ النَّفْسِ عَنْهَا بِكَشْفِيَ الـ
ـنِّقَابَ فَكَانَتْ عَنْ سُؤالِي مُجِيبَتِي

وَكُنْتُ جَلَا مِرْآةِ ذَاتِي مِن صَدا
صِفَاتِي وَمِنِّي أَحْدقَتْ بِأَشِعَّةِ

وَأَشْهَدْتُنِي إِيَّايَ إِذْ لَا سِوَايَ فِي
شُهُودِيَ مَوْجُودٌ فَيَقْضِي بِزَحْمَةِ

فَشَاهِدُ وَصْفِي بِي جَلِيسي وَشَاهِدِي
بِهِ لِاحْتِجَابِي لَنْ يَحِلَّ بِحِلَّتِي

كَذَاكَ بِفِعْلِي عَارِفِي بِيَ جَاهِلٌ
وَعَارِفُهُ بِي عَارِفٌ بِالْحَقِيقَةِ

فَلَفْظٌ وَكُلِّي بِي لِسَانٌ مُحَدِّثٌ
وَلَحْظٌ وَكُلِّي فِيَّ عَيْنٌ لِعَبْرَتِي

وَسَمْعٌ وَكُلِّي بِالنَّدَى أَسْمَعُ النِّدَا
وَكُلِّي فِي رَدِّ الرَّدَى يَدُ قُوَّةِ

مَعَانِي صِفَاتٍ مَاوَرَا اللَّبْسِ أَثْبَتَتْ
وَأَسْمَاءُ ذَاتٍ مَا رَوَى الْحِسُّ بَثَّتِ

تَحَقَّقْتُ أَنَّا فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ
وَأَثْبَتَ صَحْوُ الْجَمْعِ مَحْوَ التَّشَتُّتِ

وَكُلِّي لِسَانٌ نَاظِرٌ مِسْمَعٌ يَدٌ
لِنُطْقٍ وإِدْرَاكٍ وَسَمْعٍ وَبَطْشَةِ

فَعَيْنِي نَاجَتْ وَاللِّسَانُ مُشَاهِدٌ
وَيَنْطِقُ مِنِّي السَّمْعُ وَاليَدُ أَصْغَتِ

وَسَمْعِيَ عَيْنٌ تَجْتَلِي كُلَّ مَا بَدَا
وَعَيْنِيَ سَمْعٌ إِنْ شَدَا الْقَوْمُ تُنْصِتِ

وَمِنِّي عَنْ أَيْدٍ لِسَانِي يدٌ كَمَا
يَدِي لِي لِسَانٌ فِي خِطَابِي وَخُطْبَتِي

كَذَاكَ يَدِي عَيْنٌ تَرَى كُلَّ مَا بَدَا
وَعَيْنِي يَدٌ مَبْسُوطَةٌ عِنْدَ بَسْطَتِي

وَسَمْعِي لِسَانٌ فِي مُخَاطَبَتِي كَذَا
لِسَانِي فِي إِصْغَائِهِ سَمْعٌ مُنْصِتِ

وَلِلشَّمِّ أَحْكَامُ اطِّرَادِ الْقِيَاسِ فِي اتِّـ
ـحَادِ صِفَاتِي أَوْ بِعَكْسِ الْقَضِيَّةِ

هِيَ النَّفْسُ ، إِنْ أَلْقَتْ هَوَاهَا تَضَاعَفَتْ
قُوَاهَا وَأَعْطَتْ فِعْلَهَا كُلَّ ذَرَّةِ

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً
فَلِي فِيهِ مَعْنىً شَاهِدٌ بِأُبُوَّتِي

وَمَا كُنْتَ تَدْرِي ، قَبْلَ يَوْمِكَ مَا جَرَى
بِأَمْسِكَ أَوْ مَا سَوْفَ يَجْرِي بِغُدوَةِ
فَأَصْبَحْتَ ذَا عِلْمٍ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى
وَأَسْرَارِ مَنْ يَأْتِي مُدِلّاً بِخِبْرَةِ
وَإِيَّاكَ وَالْإِعْرَاضَ عَنْ كُلِّ صُورَةٍ
مُمَوَّهَةٍ أَوْ حَالَةٍ مُسْتَحِيلَةِ
أَلَا هَكَذَا فَلْتَعْرِفِ النَّفْسُ أَوْ فَلَا
وَيُتْلَ بِهَا الْفُرْقَانُ كُلَّ صَبِيحَةِ[1]

وأنشد حافظ الشيرازيّ عليه الرحمة في هذا المعنى :

هزار جهد بكردم كه يارِ من باشى
مُراد بخشِ دلِ بى قرارِ من باشى
چراغ ديدهٔ شب زندهدارِ من گردى
أنيس خاطرِ اميدوارِ من باشى
چو خسروان مَلاحت به بندگان نازند
تو در ميانه خداوندگارِ من باشى
در آن چمن كه بُتان دستِ عاشقانگيرند
گرت زدست برآيد نگارِ من باشى[2]

١ ـ هذه الأشعار من إنشاء ابن الفارض الذي أنشأ بالعربيّة أشعاراً عرفانيّة غرّاء بديعة تماثل أشعار حافظ الشيرازيّ التي أنشدها بالفارسيّة . وقد اخترنا هذه الأبيات من «التائيّة الكبرى» بما يناسب المقام ومجموعها ٧٦١ بيتاً وهي في ديوانه .

٢ ـ يقول : بذلتُ قصارى الجُهد كي تكون حبيبي ، وتُلبّي لقلبي المضطرب مُراده ومُناه .

ولتكون نورَ عيني المسهَّدة ، وأنيس خاطري وقلبي الطافح بالشوق والأمل .

إنّ من طبع ملوك الملاحة المباهاة بعبيدهم ، فتعال كما أتمنّى وكُن مولاي ومعبودي !

شـود غـزالهٔ خـورشيد صـيدِ لاغـرِ مـن

گر آهوئی چو تو یکدَم شکارِ من باشی

من ار چه حافظِ شهرم جُوی نـمی‌آرزم

مگر تو از کرمِ خویش یـارِ مـن بـاشی[1]

فإن جاء وصار حبيبنا ورفيقنا ، فإنّه سيجعل أعيننا مُبصرة ، وآذاننا سميعة ، ولساننا نـاطقاً بـليغاً ، أمّـا إن لم يأتِ ، ووكـلنا إلى أنـفسنا ، فـإنّنا سنقضي عمراً في حجب عنه ، وسنكون قد طوينا طريق الإعراض والمجاز بقدر ما نسبنا صفاته إلينا .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ .[2]

نعوذ بالله من أن يعتمد الإنسان في هذه الدنيا على غير الله ، فيصبح حينئذٍ خالي الوفاض ، أمّا إذا سلك طريق الحبّ لله والهيام به وتعامل مع اللـه وأسـراره ، ومـع الحـقائق والأُمـور الواقـعيّة وفـق دعـاء المـولى أمير المؤمنين عليه السلام : **وَاجْعَلْ قَلْبِي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً** ؛[3] وغسل أثوابه من

وفي ذلك المَرج حيث يمسك المعبودون لطفاً بأيدي عشّاقهم ، إن اسـتطعتَ فكـن صنمي ومعبودي .

١ـ يقول : ستكون الشمس ظبياً مصطاداً ضئيلاً لي ، لو صار غـزالٌ مُـختال كـمثلك صيدي للحظة واحدة .

إنّي وإن كنتُ في هذه المدينة حافظاً للقرآن ، غير أنّ قدري لا يعدل حبّة شعير إلّا إذا كنت بلطفك حبيبي ومُعيني !

٢ـ الآيات ١٢٤ إلى ١٢٦ ، من السورة ٢٠ : طه .

٣ـ من فقرات دعاء كميل .

لوث الاعتبار ودنس المجاز ، لصار آنذاك حبيب الله ، ويد الله ، وروح الله ، ووليّ الله .

أفللّه حبيب وخليل يا ترى ؟ إنّ هذه بأجمعها أسماء الله قد أنعم بها على المقرّبين والمخلَصين .

فبأيّ كيفيّة كان أمير المؤمنين عليه السلام **أسد الله** ، **يد الله** ، **لسان الله** ، **عين الله** ، و **فضل الله** !

إنّ المرء لو سلك سبيل مودّة ذلك المولى ومحبّته ، وقَبِلَ ولايته بصدق وصفاء نقيّين من الغشّ والدغل ، وكان في طاعته إيّاه ملبّياً لا يعترض ولا يُناقش ؛ فإنّ ذلك الإمام سَيُريه طريق سماء المعرفة ، وسيفتح له ما استغلق من الأقفال بالمفتاح الذي وهبه الله إيّاه ؛ وسيرفع عنه الحجب الظلمانيّة والنورانيّة .

گر در ره عاشقى قدم صدق نهى معشوقه باوّل قدمت پيش آيد[1]

فالإمام سيتلقّى الإنسان ويلتقي به ويقضي له حوائجه ويرفع فاقته .

ينقل المجلسيّ رضوان الله عليه عن كتاب جاء فيه عن الشيخ حسن بن الحسين بن الطحّال المقداديّ ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن الطحّال أنّه قال : حكي أنّ **عمران بن شاهين** من أهل العراق عصى على **عضد الدولة الديلميّ** . فطلبه حثيثاً ، فهرب منه إلى النجف الأشرف متخفيّاً ، فرأى أمير المؤمنين عليه السلام في منامه وهو يقول له : يا عمران ! في غد يأتي فنا خسرو إلى ها هنا فيُخرجون مَن بهذا المكان ، فتقف أنت ها هنا ـ وأشار إلى زاوية من زوايا القبّة ـ فإنّهم لا يرونك . فسيدخل ويزور ويصلّي

١ـ يقول : لو خطوتَ بقدم صدق في طريق العشق ، لتلقّتك المعشوقة في أوّل خطوة تخطوها !

ويبتهل في الدعاء والقسم بمحمّد وآله أن يُظفره بك ، فادنُ منه وقل له : أيّها الملك ! مَن هذا الذي قد ألححتَ بالقسم بمحمّد وآله أن يظفرك به ؟

فسيقول : رجلٌ شقّ عصاي ونازعني في مُلكي وسلطاني .

فقل : ما لمن يظفرك به ؟

فيقول : إن حتّم عَلَيَّ بالعفو عنه عفوتُ عنه .

فأعلمه بنفسك فإنّك تجد منه ما تريد . فكان كما قال له . فقال : أنا عمران بن شاهين . قال : مَن أوقفك ها هنا ؟

قال له : هذا مولانا قال في منامي : غداً يحضر فنا خسرو إلى ها هنا ، وأعاد عليه القول .

فقال له : بحقّه قال لك : فنا خسرو ؟

قلت : إي وحقّه !

فقال عضد الدولة : ما عرف أحد أن اسمي فنا خسرو إلّا أُميّ والقابلة وأنا . ثمّ خلع عليه خلعة الوزارة وطلع من بين يديه إلى الكوفة . وكان عمران بن شاهين قد نذر عليه أنّه متى عفا عنه عضد الدولة أتى إلى زيارة أمير المؤمنين عليه السلام حافياً حاسراً . فلمّا جنّه الليل خرج من الكوفة وحده . فرأى جدّي عليّ بن طحّال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في منامه وهو يقول له : اقعد افتح لوليّ عمران بن شاهين الباب !

فقعد وفتح الباب ، وإذا الشيخ قد أقبل ، فلمّا وصل قال له : بسم الله يا مولانا . فقال ، ومن أنا ؟ فقال : عمران بن شاهين !

قال : لستُ بعمران بن شاهين . قال : بلى ! إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أتاني في منامي وقال لي ، اقعد افتح لوليّ عمران بن شاهين !

قال له ، بحقّه هو قال لك ؟ قال ، إي وحقّه هو قال لي .

فوقع على العتبة يقبّلها ، وأحاله على ضامن السمك بستّين ديناراً ،

وكان له زوارق تعمل في الماء في صيد السمك .

ثمّ يقول المجلسيّ : وبنى الرواق المعروف برواق عمران في المشهدين الشريفين الغرويّ والحائريّ على مشرّفها السلام .[1]

يا على گر به حشر قنبر تو سايه بر گبر محشرانـدازد
جاى دارد كه ابر رحمت گبر سايه بر اهل محشر اندازد[2]

هُوَ النَّبَأُ الْمَكْنُونُ وَالْجَوْهَرُ الَّذِي
تَجَسَّدَ مِنْ نُورٍ مِنَ الْقُدْسِ زَاهِرِ
أَلَا إِنَّمَا الْإِسْلَامُ لَوْلَا حُسَامُهُ
كَعَفْطَةِ عَنْزٍ أَوْ قُلَامَةِ حَافِرِ
أَلَا إِنَّمَا التَّوْحِيدُ لَوْلَا عُلُومُهُ
كَعَرْضَة ضِلِّيلٍ وَنَهْبَةِ كَافِرِ
صِفَاتُكَ أَسْمَاءٌ وَذَاتُكَ جَوْهَرٌ
بَرِيُّ الْمَعَانِي مِنْ صِفَاتِ الْجَوَاهِرِ
يَجِلُّ عَنِ الْأَعْرَاضِ وَالْأَيْنِ وَالْمَتَى
وَيَكْبُرُ عَنْ تَشْبِيهِهِ بِالْعَنَاصِرِ[3]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٩، ص ٦٨١ و ٦٨٢؛ والطبعة الحروفيّة ج ٤٢، ص ٣١٩ و ٣٢٠.

٢ـ يقول : يا عليّ ! لو خيّم خادمك قنبرعلى مجوس المحشر يوم الحشر ، لكان حريّاً أن تخيّم غيوم رحمة المجوس على أهل المحشر .

٣ـ هذه الأبيات الرائيّة لابن أبي الحديد ، وهي من علويّاته السبع التي طُبعت طباعةً حجريّة في مجموعة واحدة مع المعلّقات السبع وقصيدة البوصيريّ .

المجلس الثامن والعشرون

خفاء جانب وجه الخلق وظهور جانب وجه الله في القيامة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.[1]

وهى مقطع من آخر آية في سورة القصص ، وتمام الآية :

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وكما هو مُلاحظ فقد وردت فقرات خمس في هذه الآية :

الأُولى : لا تدعُ مع الله إلـٰهًا ءاخر .

الثانية : لا إلـه إلّا هو .

الثالثة : كلّ شيْءٍ هالك إلّا وجهه .

الرابعة : له الحُكم .

والخامسة : إليه ترجعون .

وفي الحقيقة فإنّه بعد بيان تكليف عدم جواز دعوة إله آخر مع الله ، جاءت الفقرات الأربع الأُخرى في مقام التعليل للفقرة الأُولى .

١ـ مقطع من الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

إذَن ، على الإنسان أن لا يدعو موجوداً غير الله تعالى ، ولا يشركه معه ، إذ لا معبود ولا إله إلّا الله ، ولأنّ كلّ شيء فانٍ وهالك إلّا وجهه ، ولأنّ الحكم له ومختصّ به ، وأخيراً لأنّ رجوع الناس إليه .

يضاف إلى ذلك أنّ الفقرة الثالثة وهي شاهد كلامنا ، يمكن أن تكون تعليلاً للفقرة الثانية ، أي : لا إله ولا معبود إلّا الله لأنّ كلّ شيء فانٍ وهالك إلّا وجهه .

وعلى ذلك لمّا كان كلّ شيء فانياً وهالكاً إلّا وجه الله ، فإنّ على الإنسان ألّا يدعو غير الله سبحانه ، لأنّ وجه الله هو الله نفسه ، ودعوة الله بوجهه هي دعوة له تعالى . وعلى الإنسان أن يدعو الموجود الباقي لا المَوجود الهالك الفاني ، وهو الله الذي لا إله إلّا هو ، له الأمر والحكم ، وإليه ترجعون .

هل يرجع ضمير المضاف إليه في (وجه) إلى الله أو إلى الشيء ؟

إذا كان مرجع الضمير هو الله : أنّ كلّ شيء فان وهالك إلّا وجه الله .
وإذا كان مرجعه هو الشيء فسيكون المعنى : كلّ شيء فانٍ وهالك إلّا وجه ذلك الشيء .

والمعنى صحيح في الحالتين كليهما ، لأنّ وجه الشيء مقابل نفس الشيء الفاني ، فما يبقى هو الوجهة الباطنيّة للأشياء وجهة ارتباطها بالله تعالى ، الذي هو في الحقيقة **وجه الله** نفسه .

بَيدَ أنّه بالنظر إلى الجِناس في العبارة ، فإنّ قوله : «لا إله إلّا هو» قد ورد في الجملة السابقة وفيه أنّ الضمير «هو» عائد إلى **الله** تعالى ، لذا من المناسب أن يعود الضمير في «وجهه» إلى الله تعالى أيضاً .

فهذه الآية ـ إذَن ـ لا تريد القول إنّ جميع الأشياء تهلك وتفنى ويصيبها البوار والعدم مستقبلاً إلّا وجه الله تعالى ، بل تدلّ على أنّ جميع

الأشياء فانية وهالكة ، وهي فانية وهالكة فعلاً .

ذلك أنّ كلمة «هالك» من المشتقّات ، والمشتقّات هي حقيقة في خصوص من تلبّس بالمبدأ ، أمّا في سوى ذلك ـ وخاصّة في المضارع والمستقبل ـ فاستعمالها مجاز ، ولا يمكن حمل العبارة على ذلك دون الإتيان بقرينة .

إذَن طُبع خَتم البوار والهلاك والبُطلان على الموجودات جميعها ، وفق مفاد هذه الآية الكريمة ، فالموجودات هي في عين وجودها فانية وباطلة ومعدومة . وفي ضوء هذا المفاد وردت الآية الكريمة :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .

فإنّ «فانٍ» يعني أنّها فانية فعلاً ، لا أنّها سترتدي خلعة الفناء مستقبلاً فيبقى آنذاك وجه الله تعالى .

ونقرأ من جهة أُخرى قوله : **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ .**

فوجه الله ـ إذَن ـ في كلّ مكان ، وقد أحاط وجهه الموجودات كلّها . وما أفادته تلك الآية في أنّ وجه الله باقٍ على الدوام ، يستنتج منه أنّ الموجودات باقية على الدوام .

بينما يقول سبحانه في صدر الآية : **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ** . فكيف يمكن القول إنّ الموجودات بأسرها هالكة وفانية غير وجه الله ، في حين أنّها ثابتة باقية ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتمّ بنفس النظرة التي ذكرناها ، وهي أنّ الموجودات والأشياء التي يمكن أن تتّخذ طابع الشيئيّة لها وجهان : **وجه خلقيّ** ، و **وجه أمريّ** ، أي : لها صورة ووجه استقلاليّ خلقيّ ، وصورة ووجه إلهيّ . فمن حيث الوجه الخلقيّ نرى أنّ الموجودات برمّتها فانية وهالكة وباطلة ، أمّا من حيث وجه الله فإنّ الموجودات كلّها باقية لا يطرأ

عليها الزوال والفناء والبوار ولا يصيبها أبداً .

وهذا هو المطلب الذي أُثبت في الفلسفة الإلهيّة وهو أنّ الوجود ناقض وطارد للعدم ، وأنّ الشيء الموجود المرتدي لباس الوجود بالرغم من إمكان تغيّر شكله وصورته فيما بعد أو انعدامه في زمان لاحق ، إلّا أنّه مع تلك الخصائص جميعها ، بما فيها ملاحظة الزمن وسائر الخصائص والمواصفات ، لا يمكن أن يعدم بعد وجوده مع تلك الشرائط والخواصّ ، ولا يُمكن أن يقال للوجود عدماً ، لأنّ المفهوم القائل (الوجود والعدم مفهومان متناقضان) من المفاهيم البديهيّة الأوّليّة .

وهذا المطلب الذي أوضحه القرآن الكريم مطلب دقيق جدّاً وجدير بالتفكّر والتأمّل وهو أنّ الموجودات والأشياء بالرغم من حفظها لوحدتها ، فإنّ أصالتها مرتبطة بجهة **وجه الله** تلك . وبناءً على تلك الجهة فإنّ الموجودات قاطبة موجودة لا يطرأ عليها البوار والزوال . أمّا بناءً على الجهة الخلقيّة فإنّ الموجودات جميعها زائلة بلا شكّ . هذا إذا كان كلّ موجود شيئاً واحداً لا ينقسم ولا يتجزّأ إلى جزئين أو قسمين لنقول إنّ جزءاً منه زائل والآخر باقٍ ثابت .

وعليه فإنّ هذا الفناء الذي نحسّه في الموجودات ، وما تذكره الآيات القرآنيّة المباركة في ظهور القيامة أنّ الشمس تنكسف ، والنجوم تنكدر وتتهاوى وتتناثر ، والأرض تسطّح وتمدّ ، والسماء تنشقّ وتنصدع ، والبحار تسجّر وتفور ، والأشياء بأسرها تفنى وتبطل وتعطّل ، وهذا النظام كلّه زائل وفان ، هذه الأشياء بأجمعها من حيث **وجه الخلق** .

أي : أنّ شيئيّتها من جهة وجه الخلق التي ينظر إليها الإنسان فانية وهالكة بأجمعها ، أمّا من جهة **وجه الله** ، فإنّ الموجودات كافّة ، بما فيها هذه السماء والأرض ، وهذه الجبال والبحار ، ثابتة وطيدة ، لأنّ وجه الله

باقٍ لا يزول . وهذه النتيجة تستند إلى الآيات التي ذكرناها إذ ليس هناك موجود إلّا وفيه وجه الله ، لأنّ وجه الله موجود في كلّ موجود . وأنّ كلّ موجود لا يوجد حتّى يكون فيه عنوان **وجه الله** ، أي : حتّى يكون فيه ارتباطه الملكوتيّ بالله تعالى ، فوجود الموجود مرتبط بالجانب الملكوتيّ والوجه الإلهيّ . وعليه فإنّ وجه الله موجود في الموجودات برمّتها .

فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .[1]

ومن ذلك المنظار فإنّها لا فناء لها ولا بطلان .

وقد وردت روايات تثبت الوجود للموجودات ، للسماء والأرض ، والزمان في الوقت الذي تدلّ فيه على زوال هذه الموجودات عند حلول القيامة وتجلّيها . فهي تقول إنّها موجودة في نفس الوقت الذي تقول إنّها معدومة . فهو وجود ـ إذَن ـ في عين الفناء والعدم ، وعدم وفناء في عين الوجود والأصالة . وهذه مسألة جديرة بالتأمّل والدقّة ، وينبغي الالتفات جيّداً إلى أمر معيّن ، وهو : ما مفاد ومفهوم هذه الروايات ؟

يقول أمير المؤمنين ضمن خطبة في نهج البلاغة :

وَإِنَّ اللَهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا بِلَا وَقتٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الآجَالُ وَالأَوقاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ . فَلَا شَيْءَ إلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، الَّذِي إلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ .[2]

فأمير المؤمنين عليه السلام يقول هنا : إنّ الله سيكون وحده لا شيء معه ، كما كان من قبل وحده لا شيء معه ، وإنّ الساعات والحين والأجل

---

١ ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٣٦ : يٰس .

٢ ـ «نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٣٥٩ و ٣٦٠ ، الخطبة ١٨٤ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر .

والزمان ستزال وتطوى، وإنّ مصير الكلّ إلى الله تعالى.

ويستفاد من هذا أنّ هناك أُموراً لا تزول ولا تصبح عدماً صرفاً، وأنّ لها عودة ورجوعاً، وأنّ عودتها ومآلها إلى الله سبحانه.

يروي عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره، في ذيل آية «**لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ**»، بسنده عن عبيد بن زرارة، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه عليه السلام قال:

ثُمَّ يَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فَيَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، أَيْنَ الَّذِينَ ادَّعَوا مَعِيَ إلَهاً آخَرَ؟ أَيْنَ ٱلْمُتَكَبِّرُونَ؟[1]

ويلاحظ في هذه الرواية أنّه أثبت لذاته المقدّسة اسم الواحد واسم القهّار، وأنّ هذين الاسمين عالمان موجودان.

كما يروي عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره في ذيل آية (نفخ الصعق) رواية عن ثوير بن أبي فاختة، عن الإمام السجّاد عليه السلام، وقد أوردنا هذه الرواية ضمن البحث في نفخ الصور؛ ومن جملة فقراتها:

فَعِنْدَ ذَلِكَ يُنَادِي الْجَبَّارُ بِصَوْتٍ مِنْ قِبَلِهِ جَهْوَرِيٍّ يَسْمَعُ أَقْطَارُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فَلاَ يُجِيبُهُ مُجِيبٌ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْجَبَّارُ مُجِيباً لِنَفْسِهِ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.[2]

ويستفاد من هذه الرواية أيضاً أنّ هناك صوتاً يومئذٍ، وهو صوت جهوريّ، وأنّ السماوات والأرض موجودة أيضاً، وأنّ أقطارها ونواحيها قاطبة تسمع صوت الله تعالى، فليس من مُجيب له. إذَن فالسماء والأرض موجودتان آنذاك.

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٨٥.

٢ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٨١.

وينقل الصدوق في «التوحيد»، بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام رواية يستشهد في سياقها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يفسّر الإمام معاني حروف الهجاء، فيقول عن حرف الميم :

فَالْمِيمُ مُلْكُ اللَهِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمَ لَا مَالِكَ غَيْرُهُ ؛ وَيَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ تَنْطِقُ أَرْوَاحُ أَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ وَحُجَجِهِ فَيَقُولُونَ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.[1]

ويستفاد من هذه الرواية أنّ أرواح الأنبياء والمرسلين والحجج الإلهيّة موجودة في ذلك الزمان.

كما يروي الصدوق في «الأمالي»، عن جميل بن درّاج، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

إِذَا أَرَادَ اللَهُ أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ، وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ.[2]

وورد في هذه الرواية عنوان أربعين صباحاً وذُكر فيها المطر، فهذه الأشياء موجودة إذَن.

وينقل الشيخ الطبرسيّ في «الاحتجاج» ضمن حديث مفصّل جدّاً عن عبد الله بن سنان، في احتجاج الإمام الصادق عليه السلام على الزنديق، وفيه أنّ الزنديق سأل قائلاً : **أَفَتَتَلَاشَى الرُّوحُ بَعْدَ خُرُوجِهِ عَنْ قَالَبِهِ، أَمْ هُوَ بَاقٍ ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَلْ هُوَ بَاقٍ إِلَى وَقْتِ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْطُلُ الْأَشْيَاءُ وَتَفْنَى فَلَا حِسَّ وَلَا مَحْسُوسَ، ثُمَّ أُعِيدَتِ الْأَشْيَاءُ كَمَا بَدَأَهَا مُدَبِّرُهَا ؛ وَذَلِكَ أَرْبَعْمَائَة سَنَةٍ ؛ يَسْبُتُ فِيهَا**

١ـ «توحيد الصدوق» ص ٢٣٤.

٢ـ «الأمالي» للصدوق، ص ١٠٧.

الْخَلْقُ ، وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ .[١]

ومع أنّ هذا الكلام صريح في أنّ الأشياء جميعها ستزول ، فلا حسّ ولا محسوس ، إلّا أنّ المستفاد منه هو أنّ الفترة بين النفختين أربعمائة سنة ، فيتّضح من ذلك أنّ هناك زماناً ، يضاف إلى أنّه عليه السلام يقول **يَسْبُتُ فِيهَا الْخَلْقُ** لا أنّهم يفنون ويصبحون عدماً صرفاً .

وبعد حوار آخر ، يستوضح فيه الزنديق الإمام ، فيقول عليه السلام ضمن إجابته له :

فَإِذَا كَانَ حِينَ الْبَعْثِ مُطِرَت الْأَرْضُ مَطَرَ النُّشُور ، فَتَرْبُو الْأَرْضُ ثُمَّ تَمَخَّضُوا مَخْضَ السِّقَاءِ ، فَيَصِيرُ تُرَابُ الْبَشَرِ كَمَصِيرِ الذَّهَبِ مِنَ التُّرَابِ إِذَا غُسِلَ بِالْمَاءِ ، وَالزَّبَدِ مِنَ اللَّبَنِ إِذَا مُخِضَ ، فَيَجْتَمِعُ تُرَابُ كُلِّ قَالِبٍ إِلَى قَالِبِهِ ، فَيَنْتَقِلُ بِإِذْنِ اللهِ الْقَادِرِ إِلَى حَيْثُ الرُّوح ، فَتَعُودُ الصُّوَرُ بِإِذْنِ الْمُصَوِّرِ كَهَيْئَتِهَا وَتَلِجُ الرُّوحُ فِيهَا ، فَإِذَا قَدِ اسْتَوَى لَا يُنْكِرُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً .[٢]

وورد في هذه الفقرة من الرواية أيضاً تعبير «مطرت الأرض» فيستبين أنّ هناك مطراً ، وأنّ هناك أرضاً ، وأن للأرض حركة ومخضاً كمخض السقاء .

وكذلك يروي عليّ بن إبراهيم في تفسيره ، عن أبيه ، عن ابن أبي عُمير ، عن جميل بن درّاج ، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم . وقال أتى جبرئيل رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخذ بيده وأخرجه إلى البقيع فانتهى به إلى قبر فصوت بصاحبه فقال : قُم بإذن الله ! فخرج منه رجل أبيض الرأس واللحية يمسح التراب

---

١ و ٢ـ «الاحتجاج» طبعة النجف ، ج ٢ ، ص ٩٧ و ٩٨ .

عن وجهه وهو يقول : **الْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ** . فقال جبرئيل : عُد بإذن الله . ثمّ انتهى به إلى قبر آخر فقال : قُم بإذن الله ! فخرج منه رجل مسوّد الوجه وهو يقول : **يَا حَسْرَتَاهُ يَا ثُبُورَاهُ** . ثمّ قال له جبرئيل : عُد إلى ما كنتَ فيه بإذن الله . فقال : يا محمّد ! هكذا يُحشرون يوم القيامة ، فالمؤمنون يقولون هذا القول وهؤلاء يقولون ما ترى .[1]

ونرى أيضاً في هذه الرواية مجيء عنوان المطر وعنوان الأربعين صباحاً . وأمثال هذه الروايات أو أمثال هذه التعابير كثير وجمّ ، وذكرنا هذه المجموعة من الروايات كنموذج ومثال . وهي جميعها تدلّ على عدم بقاء أيّ موجود ، وعلى أنّ الموجودات ستزول وتبطل ، وأنّ الله تعالى سيبقى دون سواه ، فـ «**لَا حِسَّ وَلَا مَحْسُوسَ**» .

وعلى هذا ، فما معنى التقدير بالزمان في قوله «**أَرْبَعْمَائَة سَنَة ... بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ**» ؟

إذ إنّ الزمان هو نفسه أحد الموجودات وسيزول أيضاً . إذَن فإنّ التقدير بالسنوات الأربعمائة ـ مع أنّ الموجودات كلّها تزول فلا يبقى غير ذات الله الواحد القهّار ، فلا حسّ ولا محسوس ـ أمرٌ لا ينسجم مع سياق الرواية .

ونعلم من جهة أُخرى أنّ الموجودات بأسرها لو فنيت وزالت ، فإنّ الزمان سيزول وينعدم أيضاً ، فالإعادة ـ إذَن ـ لن تكون ذات معنى .

إذ إنّ تعبير «**أُعِيدَتِ الْأَشْيَاءُ**» يعني أنّ هناك شيئاً كان موجوداً ثمّ فني وانعدم ، فأعاده الله تعالى في زمان آخر .

وحينما ينعدم الزمان ويفنى كلّيّاً ، فإنّ ذلك الشيء الذي يريد الله

١ ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥١١ .

إيجاده الآن لا يحمل عنوان العَوْد ، إذ ليس هناك زمان .

ولو كان هناك زمان ، لقلنا في الزمن الأوّل : خَلَق ، ثمّ أماتَ ، ثمّ أعادَ . أمّا إذا لم يكن زمان في البين ، فلن يكون هناك عنوان الإعادة . وعليه فإنّ تلك الموجودات التي يوجدها الله تعالى ليس لها مَعاد ، فقد أوجد سابقاً موجودات معيّنة ، ويوجِد موجودات أُخرى بعدُ ، فهذه الموجودات لا تمتلك عنوان التأخّر نسبة إلى السابق فنقول : إنّها عادت .

ذلك أنّ الزمان قد أُزيل ، فلا عنوان للتقدّم والتأخّر ، وصارت نسبة الموجودات السابقة واللاحقة سواء ، فلا سبق ولا لحوق لأحدها بالنسبة إلى الآخر ، ولا (قبلُ) في الأمر ولا (بعدُ) . لأنّ الزمان هو الذي ينسّق الموجودات في نظام واحد ويرتّبها كحبّات المسبحة وكصفحات الكتاب ، ويمنحها عنوان التقدّم والتأخّر .

وكما أنّنا لا يمكن أن ننسب الموجودات السابقة إلى الزمان السابق ـ لأنّ الزمان لمّا أُزيل فليس من معنىً بعدُ للزمن الحاضر ـ فإنّنا لا يمكننا كذلك أن نقول للموجودات اللاحقة أنّها لاحقة .

هلمّوا واعكسوا الأمر هنا وقولوا إنّ تلك الموجودات السابقة هي معاد هذه الموجودات اللاحقة ، إذ عندما ينعدم تدرّج الزمان ويزول تحقّق عنوان التقدّم والتأخّر واللحوق والسبق ، فما الفرق بين أن نعتبر الموجودات اللاحقة معاداً للموجودات السابقة أو أن نعكس الأمر فنضع السابقة معاداً للاحقة ؟ وفي ضوء افتراض انعدام الزمان كلّيّاً ، فإنّ عنوان العود والمعاد والعودة والرجوع والمآل وجميع الألفاظ التي تفيد هذا المعنى ستفقد معناها ، وستكون الموجودات اللاحقة موجودات أوجدها الله ابتداءً ، ويكون عنوان اللحوق لها مجرّد تعبير ولقلقة لسان .

وهذه المسألة مسألة مهمّة ، وهذا الإشكال ينبغي حلّه ، كما أنّ هذه

الروايات لا يمكن تخطّيها ورفضها وطرحها جانباً ، إذ إنّها كلمات الأئـمّة الذين هم معدن العلوم ومستودع أسرار الغيب والمعارف الإلهيّة ، إنّه كلام أمير المؤمنين والسجّاد والصادقَينِ عـليهم السـلام ، ولا يـمكن أن نـغضّ الطرف عنها .

وهؤلاء الأئمّة هم مفسّـرو القرآن ، وهـم المسـتقرّون فـي مـنهل المعرفة ، والعالمون بحقائق كتاب الله وبواطنه ، وباطن معاني آيات القرآن وروحها في متناول أيديهم .

قال جدّنا العلّامة المجلسيّ رضـوان الله عـليه بـعد أن ذكـر الخـبر المرويّ عن «الاحتجاج» للشيخ الطبرسيّ في خبر الزنديق الذي كان يطرح أسئلة على الإمام الصادق عليه السلام ويسأل عن بقاء الروح بعد الموت ، وأجاب الإمام بالبقاء ، وقال إنّ بين النفختين أربعمائة سنة : هذا الخبر يدلّ على فناء الأشياء وانعدامها بعد نفخ الصور ، وعلى أنّ الزمان أمر موهوم وإلّا فلا يمكن تقديره بأربعمائة سنة بعد فناء الأفلاك ، ويمكن أن يكون المراد ما سوى الأفلاك ، أمّا ما سوى فلك واحد يتقدّر به الأزمان .[1]

وقال أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه العالي [2] في تعليقته على كلام العلّامة المجلسيّ : ظاهرُ الخبر بطلانُ الأشياء وفناؤها بـذواتـها وآثـارها ، فيشكل حينئذٍ أوّلاً بأنّ بطلان الأشياء وحركاتها يوجب بطلان الزمان ، فما معنى التقدير بأربعمائة سنة ؟

وثانياً أنّ فرض بـطلان الأشـياء مـع بـطلان الزمـان لا يُـبقي مـعنى

١ـ «بحار الأنوار» الطبعة الحديثة ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

٢ـ الكتاب مؤلّف زمن حياة العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه ، وآثرنا الإبقاء على تعبير المصنّف ، وهذا هو دأبنا في مطاوي الكتاب . (م)

للإعادة ، إذ مع بطلان الزمان وانقطاع اتّصال ما فرض أصلاً وما فرض معاداً يبطل نسبة السابقيّة واللاحقيّة بينهما ولا معنى للإعادة حينئذٍ . وأمّا ما ذكره المؤلّف قدّس سرّه الشريف أوّلاً من احتمال كون الزمان أمراً موهوماً ، فلا يدفع الإشكال لاستلزامه بطلان كلّ تقدّم وتأخّر زمانيّ في العالم حتّى قبل نفخ الصور ، ولا يمكن الالتزام به . وما ذكره ثانياً : أنّ المراد بطلان ما سوى الأفلاك فهو ممّا يأبى عنه لسان الخبر والخبر الآتي ، على أنّ ما اعتمد عليه في ثبوت وجود الأفلاك لو تمّ لدلّ على وجوب اشتمال الفلك على عالم العناصر في جوفه . وما ذكره من كون المراد بطلان الأشياء ما سوى فلك واحد يتقدّر بها الزمان يشكل عليه ما يشكل على سابقه ، ويزيد أنّ هذه الفلك على فرض وجودها تقدّر الزمان بحركتها الوضعيّة ، ولا معنى للحركة الوضعيّة مع انعدام الأشياء الخارجة من الفلك ، وهو ظاهر . على أنّ فرضيّة وجود الأفلاك البطليموسيّة ممّا اتّضح فسادها في هذا العصر ؛ والرواية مع ذلك كلّه غير مطروحة ولبيان معناها الدقيق محلّ آخر ذو مجال وسعة ـ انتهى .[1]

ولقد كان كلام الأُستاذ العلّامة في ردّه على المرحوم المجلسيّ في غاية المتانة والإتقان . ويمكن أن يكون ذلك المعنى الدقيق الذي أشار إليه هو المعنى الذي نعبّر عنه بوجه الخلق ووجه الربّ . كما أنّ العلّامة يعتقد في رسالته الخطّيّة في المعاد بجهتي الفناء والبقاء ، وببطلان سلسلة علل هذا العالم وأسبابه ، وبإشراق نور التوحيد في ذلك العالم . و **مُحَصّلُ الجَوابِ هُوَ الّذِي أَعْطَاهُ القرآنُ الكريم .**

وهذه الأخبار في الوقت الذي تنفي فيه السماء والأرض ، فإنّها

١ـ «بحار الأنوار» الطبعة الحديثة ، ج ٦ ، تعليقة ص ٣٣٠ .

تثبتهما أيضاً ، وبينما تنفي الساعات والسنوات والآجال والأزمنة ، فإنّها تثبت الأجل والسعة والزمن والسنة .

أي : أنّها تريد القول إنّ هذه جميعها فانية ، لكن بفنائها هي ، وإنّها جميعاً باقية ، ولكن ببقاء الحقّ ،كما أنّ القول قد سبق بأنّ للموجودات وجهتين : وجهة خلقيّة ، ووجهة خالقيّة . فالوجهة الخلقيّة كلّها فانية ، قد حتّم عليها جميعاً البوار والهلاك والبطلان ، وطُبع على جبينها بخاتم الزوال .

أمّا الوجهة الخالقيّة فهي وجهة باقية ، موجودة بوجود الله تعالى ، وهذا أمر غير قابل للزوال :كلّ شيء هالك إلّا وجهه .

والعجيب هنا أنّنا نتخيّل أنّ هذه السماوات والأرض وكلّ ما هو موجود هالك جميعاً إلّا وجه الله ، وأنّ وجه الله أمر موهوم خياليّ لا أصالة له ولا اعتبار ولا قوام .

مع أنّ الأمر على عكس ذلك تماماً ، فهذه الموجودات المحسوسة اللافتة للنظر التي ملأت العالم كلّه ، أصالتها وحقيقتها هي جانب وجه الله ، وهي موهومة خياليّة بغير وجهتها الإلهيّة ، أي : أنّ وجهتها الخلقيّة ضعيفة وموهومة كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، لا أساس لها ولا اعتبار ، فهي سراب فحسب .

ما أكثر ما جرى الكلام عن هذه الوجهة في القرآن الكريم والأخبار بتعبيرات لطيفة أُخرى تماثل هذا التعبير !

ويجب أن نرى الآن كيف تمتلك الموجودات وجهتين مع أنّها شيء واحد ! فكيف ـ ترى ـ يصبح الواحد اثنيناً ؟ وما هو منشأ هذا التعدّد في الوجه الذي عبّرنا عنه بوجه الخلق ووجه الربّ أو وجه الخالق أو وجه الله ؟ وما هما الأصلان المختلفان اللذان هما منشأ وأساس هذين العنوانين ؟

هل كان جانبا وجه الخلق ووجه الله جزءين خارجيّين في الموجودات ، بحيث يوجد كلّ موجود بواسطة مزج وتركيب ذينك الجزئين ؟كما هي الحال في المركّبات الخارجيّة مثل العقيق الذي يحصل إثر تفاعل عنصرين أو أكثر ، فيرتديان لباس الوحدة ويصبحان شيئاً واحداً ؟

وهل هذان الجانبان والجهتان جزءان تحليليّان عقليّان كالناطقيّة والحيوانيّة التي أنتج مجموعهما مفهوم الإنسانيّة ، بحيث صارت حقيقتا الحيوان والناطق في الخارج إنساناً ؟

في الحقيقة أنّ في الخارج موجوداً واحداً فقط باسم الإنسان ، لكنّ العقل حين ينظر إليه بمجهره الدقيق ، فإنّه يرى جهة اشتراك مع سائر الحيوانات المتحرّكة ذات الإرادة تعود منه إلى الحيوان ؛كما يرى جهة مختصّة بالإنسان ، وهي قابليّة إدراك المعاني الكلّيّة المعبّر عن صاحبها بالناطق . إلّا أنّ منشأ هذا التحليل العقليّ في النهاية أمران خارجيّان هما حقيقتا الحيوان والناطق في الخارج ، وهاتان الحقيقتان هما شيء واحد في الخارج ، إلّا أنّ منشأ انتزاع هذين العنوانين العقليّين من الخارج متعدّد .

أو أنّ هذين العنوانين : وجه الخلق ووجه الخالق ليسا منشأ الانتزاع الخارجيّ في عين وحدة الأشياء ، بل إنّ وجه الخلق أمر اعتباريّ ، ووجه الخالق أمر واقعيّ حقيقيّ ؟

وعليه فإنّ الاختلاف بين هذين الوجهين هو اختلاف المجاز والحقيقة ، والباطل والصحيح ، والنظر البدائيّ والنظر النهائيّ ، والسراب والماء .

أمّا في نظر الأفراد الذين ينظرون إلى هذا العالم بناءً على سلسلة العلل والأسباب المستقلّة ، فإنّ وجهها الخلقيّ موجود ؛ وأمّا في نظر الأفراد الذين

تغيّرت رؤيتهم الاستقلاليّة إلى الأشياء ، في الدنيا أو بعد الموت إلى رؤية تبصر حقيقتها وواقعها ، ويرون العوالم جميعها مجرّد ظهور وتجلٍّ لذات الحقّ المتعال ، فإنّ وجهها الخالقيّ موجود .

فوجهها الخلقيّ هو مشاهدة هذا العالم بناءً على محور تحقّق العلل والمعلولات ، حيث ترى الأسباب والعلل مستقلّة التأثير في المسبَّبات والمعلولات . وهذه الوجهة الخلقيّة هي التي يقال عنها : إنّ النبات لا ينبت ولا يخضرّ ما لم توجد الشمس ؛ وإنّه لا ينمو بلا ماء ، وإنّه يحتاج إلى الهواء ؛ وإنّ شروط البيئة التي ينمو فيها النبات تؤثّر في نموّه تماماً ؛ وإنّ الجنين يجب أن يكون في بطن أُمّه على النحو الفلانيّ ، وإنّ عليه أن يطوي مراحل معيّنة ، وإلّا لما وجد ونما ، ولما صار له عقل وذكاء ؛ وإنّ موجودات هذا العالم جميعها تتحرّك في سلسلة انتظام صحيح للعلّة والمعلول ، فإن تخطّت إحدى العلل محلّها فإنّ العالم سيفسد من أساسه . فهذا العالم هو عالم الخلق ، وعالم الخلق موضوع على سنّة عالم العلل والأسباب ، فإذا زالت روابط العلّة والمعلول في هذا العالم ، زال هذا العالم معها ، فلا وجود لعالم الخلق بعدُ .

أمّا لو نظر امرؤ من جانب الوجهة الخالقيّة ومن جانب الوجه الإلهيّ ، فإنّه سيرى هذه العلل والمعلولات كلّها في يد الربّ الذي هو علّة العلل ، وسيراه علّة العلل في الموجودات ويرى أنّه هو المؤثّر ؛ كما أنّه سيرى العوالم برمّتها وهذه السلسلة الطوليّة المترتّبة طائعة وخاضعة للّه ومندكّة وفانية فناءً محضاً تحت قدرة الله وعلمه وإرادته . وسينظر إلى عوالم الوجود قاطبة على أنّها نوره وضياؤه وشعاع ذاته ، وسيعتبر العوالم بأسرها آثار الحقّ جلّ وعلا وخواصّه ، التي هي في حكم ملكات الإنسان وصفاته وأفعاله وجوارحه المتعلّقة بروحه . فأسماء ذات الحقّ وصفاته وأفعاله هذه

ليست موجبة للتعدّد ولا للتحديد في الوجود ، كما أنّها لم تتخطَّ دائرة قدرته وعلمه وحياته وإرادته جلّ وعزّ . ويُدرك قوله تعالى : فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ .[١]

ويُدرك : هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .[٢]

ويُدرك : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .[٣]

ويُدرك : لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .[٤]

ويُدرك : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .[٥]

ويُدرك بوضوح حصر آيات القرآن للصفات في ذاته تعالى ، مثل :

ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ .[٦]

ومثل : إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .[٧]

ومثل : إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .[٨]

أي أنّه سيدرك أنّ المقدّس والمنزّه هو الله الذي بيده روح كلّ شيء وملكوته .

ويدرك أنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن والعالم بكلّ شيء .

ويدرك أنَّ ملك السماوات والأرض وسلطانها مختصّ به ، وأنَّ مرجع

١ـ صدر الآية ٨٣ ، من السورة ٣٦ : يس .

٢ـ القسم الأعظم من الآية ١ ، من السورة ١١٢ : الإخلاص .

٣ـ الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٤ـ الآية ٥ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٥ـ مقطع من الآية ٤ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٦ـ صدر الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٧ـ الفقرة الأخيرة من الآية ٦١ ، من السورة ٨ : الأنفال ؛ و في آيات كثيرة أُخرى .

٨ـ الفقرة الأخيرة من الآية ١ ، من السورة ١٧ : الإسراء ؛ وفي آيات أُخرى .

كلّ الأُمور إلى الله سبحانه .

ويدرك أنّه معكم أينما كنتم .

ويدرك أنّ الله ـ لا سواه ـ هو المعبود الحيّ القيّوم بالموجودات ، وأنّه ـ لا سواه ـ السميع العليم ، وأنّه ـ لا سواه ـ السميع البصير .

وأمثالها ممّا لا يعدّ ولا يُحصى التي قد عمّت أرجاء القرآن ، وسيدرك ذلك كلّه جيّداً .

فهذا العالم الطويل والعريض بسلسلة العلل والمعلولات جميعها ، ومع كلّ الشرائط والموانع والمُعِدّات باطل وفانٍ بأسره ، وسرابٌ ليس إلّا .

ولكن متى يكون سراباً ؟ يكون سراباً في ذلك الظرف ، في ظرف ذلك العالم ، أي : في عالم وجه الله . أمّا في هذا الظرف فالجميع ثابت وله حقيقة وواقعيّة ، لا يمكن أن تتحرّك شعرة أو قشّة فيه عن مكانها بدون الروابط الموجودة ، ولا يمكن لشعرة أو قشّة أن توجد أو تُعدم بدون سلسلة العلل .

والحقّ أنّ روابط هذه السلسلة دقيقة وعميقة إلى الحدّ الذي يبهر العقول ويحيّرها ، فهذه السلسلة من الأسباب والمسبّبات التكوينيّة والأُمور الشرعيّة من الأمر والنهي والقانون وآلاف العلل والأسباب التي طبقت أرجاء العالم من منظارَي التكوين والتشريع ، هي التي تكوّن هذا النظام .

وسيزول هذا النظام حين يطلع نظام آخر لا محلّ فيه لنظرة هذا النظام ورؤيته ، وسيبدو جليّاً أنّ الاختلاف والمباينة بين هذين النظامين إنّما يقوم على ميزان تباين النظر : نظر الحقيقة ونظر الاعتبار .

إنّ كلّ عالم محكوم بنظام مختصّ به ، فالأفراد الذين يعيشون في نظام الحسّ وعالم المادّة والطبع وروابطه العلّيّة يتطلّعون إلى العلل المستقلّة لهذا النظام ، ويقولون : الشمس مؤثّرة ، القمر مؤثّر ، الأرض والزمان

مؤثّران ، الماء والمطر والهواء مؤثّرة ، الغذاء مؤثّر ، الأب ، الأُمّ ، الرفيق ، الشريك ، و ... جميعهم مؤثّرون ولهم استقلال في التأثير على حياة الإنسان .

أمّا في نظام **وجه الله** وطلوع الحقيقة فيقولون : لا شيءُ إلّا الله ، ولا مؤثّر في العالم إلّا الله تعالى :

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ .[1]

لذلك فإنّ مناط اختلاف النظرتين ، اختلاف مجال رؤية الإنسان وإدراكه .

ولقد بُني عالم الكثرة والأسباب هذا على أساس النظر الاستقلاليّ للنفس ، فإن طهرتْ رؤية النفس وتنزّهت ، وبلغت مقام النزاهة والرؤية الطاهرة ، لم يعد عالم الخلق وعالم الربط والباطن يمثّلان عالمينِ حينئذٍ ، بل سيظهر الباطن فنرى عالم الخلق بجميع تشكيلاته وعجائبه وغرائبه هذه عالم وجه الله وعالم الأمر .

لقد جاءت نفسنا إلى هذه الدنيا ونظرت إلى الموجودات ، فشاهدتها مستقلّة بواسطة غلبة الكثرة وضياع نور التوحيد من شدّة الظهور في الشبكات المجاليّة والظاهر والعلل والأسباب ، لذا فإنّها أوجدت عالم الخلق مقابل عالم الأمر بهذا الأُفق من الرؤية وشعاع النظر .

فإن أوكلت هذه النفس ـ بواسطة غلبة الوحدة وظهور نور التوحيد في مظاهر العالم ـ نظرها الاستقلاليّ إلى الله تعالى ، وعطفته عن هذا العالم ، فلن يكون ثمّة عالم للخلق ، بل إنّ عالم الأمر ـ لا سواه ـ هو الذي سيوجد . وعليه فإنّ الموجودات برمّتها موجودة في مواقعها ، وقيّومها هو الله تعالى :

١ـ صدر الآية ١٩ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ .[1]

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ .[2]

وبناءً على ذلك فلا يعني فناء الموجودات وبقاء الله أنّ الموجودات ينبغي أن تنعدم بوجودها الحقيقيّ في الخارج ، وأن تفقد جهة وجه الله فيها ، ليبقى الله تعالى وحده . لأنّ ذلك الإله الذي تتوقّف وحدته على زوال الموجودات الخارجيّة ليس إلهاً ؛ وليس إلهاً ذلك الذي خلق الموجودات فامتلكت بخلقه لها قدرة وعظمة وعلماً أعادت بها إلى الوراء قدرة الله وعظمته وعلمه ، فأوجدت فيها فتوراً ونقصاناً ، وأجبرته ـ من ثمّ ـ على إزالتها وإعدامها ليستعيد وحدته بإحاطته واستيلائه على الحياة والعلم والقدرة .

بل إنّ عالم الخلقة ونشوء الموجودات لا يضعف وحدة الله ، بل يجعل إثبات وحدته وقهّاريّته أفضل وأحسن ، لا أنّهُ يُضعف وحدته .

وعلى هذا لمّا كان وجود السماء والأرض والبحار والنجوم والفضاء والمجرّات والمدارات وعالم الملكوت والعقل والملائكة ، لا يتنافى مع توحيد الله تعالى ، بل إنّ هذه الموجودات هي بأجمعها لسان واحد وبيان واحد في إثبات الله تعالى ، فإنّ الله تعالى واحد حتّى مع وجود الموجودات قاطبة . **كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ وَالآنَ كَمَا كَانَ .**

ولذلك فإنّ هذه الأشياء التي تُشاهد مقابل الله تعالى لا تقابله ، بل هي مندكّة فيه سبحانه .

إنّ العين عندما تكون حولاء فإنّها ترى هذه الأشياء مقابل الله تعالى ،

١ـ صدر الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة ؛ والآية ٢ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ صدر الآية ١١١ ، من السورة ٢٠ : طه .

وبدلاً من إفناء الموجودات وإزالتها فإنّ هذه العين ينبغي أن تُعالج وتُطبّب . وما أعجب رفعَ الأئمّة الطاهرين عليهم السلام هذه الأستار عن آيات القرآن ، وكشفهم هذه الحقائق جليّة للعيان !

هذه الآيات هي إعجاز القرآن ؛ فقوله : **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** معجزة ؛ وقوله : **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ** معجزة ؛ وهذه الروايات التي بيّنت عن مصادر الوحي ، وأوضحت لنا الحقائق بهذه الصورة والكيفيّة ، وأمعنت النظر في تنقيح المطالب هي الأُخرى معجزة ، إلّا أنّنا نمرّ عليها مرور الكرام ، وننظر إليها نظراً بدائيّاً ساذجاً فنقول : يجب أن تزول السماء وتزول الأرض ليظهر التوحيد وقدرته .

فما هو ذنب السماء والأرض ؟

لو كان الإنسان يمتلك خزانة مليئة بالأوراق النقديّة ، وأراد إبطال تلك الأوراق ، فلا ضرورة أن يحرقها جميعاً بعود الثقاب ليحيلها رماداً ، بل يمكنه أن يدع تلك الأوراق النقديّة في مكانها دون أن يمسّها بشيء ، كلّ ما هنالك أنّ على المصرف الذي منحها الاعتبار أن يُسقط اعتباره عنها ، فينشر في الصحف أنّ الأوراق النقديّة الفلانيّة لا اعتبار لها في المصرف ؛ وهكذا تفقد تلك الأوراق قيمتها بمجرّد هذا العمل ، وبذلك يُلغى رصيد القيمة التي كانوا يعدّونها لكلّ ورقة منها بعد أن كانوا يعملون في ضوئها ويلتزمون بآثارها . إنّ من يمتلك عيوناً ضعيفة تعشو عن رؤية الشمس في رائعة النهار يجب ألّا يقول : إنّ الشمس يجب أن تُزال لأنّ عيني لا تراها . بل عليه معالجة عينه .

إنّ الأعين التي أصابها مرض التراخوما ، والعيون الرمداء المريضة المتورّمة التي تقطر دموعاً ، حين تنظر إلى القمر ليلة الرابع عشر من الشهر

وقد اكتمل بدراً كاملاً يشعّ على العالم بنوره ، فإنّها سترى هالة كبيرة تحيط بالقمر ، لذا عليها ألّا تقول بأنّ القمر يجب أن يزول . افرضوا أنّ السماء والأرض قد أُزيلتا ، فهل ستصل النفس إلى درجة التوحيد وتصير موحّدة ؟

إنّ النفس يجب أن تعالج ، فإن عالجها الإنسان في هذه الدنيا فإنّ عالم أمره سيظهر في هذه الدنيا ، وقيامته ستقوم هنا ؛ أي : أنّه سيرى الله تعالى بوحدته ، وإلّا فإنّه في النهاية سيتخطّى بواسطة الموت جميع عالم الأسباب هذا ، إلى حيث يطلع جانب وجه الله .

وعلى الإنسان أن يعترف ـ شاء أم أبى ـ أن لا موجود مؤثّر في عالم الوجود إلّا الله فهو **عِلَّةُ الْعِلَلِ** ، **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**.

وهكذا فإنّ الإقرار والاعتراف بوحدانيّة الله هناك أمر وجدانيّ .

يُحكى أنّه قيل للّقلق : لماذا تبدّل عشّك باستمرار فَوق قمم الأشجار ، فتُهاجر من هذه الشجرة إلى تلك ؟ ابقَ في عشّك الذي بنيته على شجرة واحدة شأن الطيور الأُخرى .

فأجاب : هذه الأشجار ذات رائحة كريهة متعفّنة ، لذا أُجبر على السير والحركة والانتقال باستمرار .

قيل له : وأنّى لهذه الأشجار أن تكون متعفّنة ؟ (إذ يُقال إنّ اللقلق حين يعشعش على شجرة ما ويضع فراخه ، فإنّ من عادته أن يلقي فضلاته وأقذاره هناك فيسبّب تعفّن ذلك المكان ، لذا فإنّه يغادره إلى شجرة أُخرى وهكذا دواليك) إنّ الأشجار ليست متعفّنة ، ولكن مادامت أسافل أعضائك معك فإنّ الأشجار جميعها ستكون متعفّنة . أصلح نفسك ، فالعيب ليس في الشجرة .

وهكذا فإن عالج الإنسان عينه الحولاء فرأى الله واحداً فقد أصلح أمره فذاك ، وإلّا فإنّ الله سبحانه سيُري الإنسان في عقبات الموت وبعده

أنّه واحد ليس معه غيره.

قيل: إنّ عطّاراً كان له مستخدم، وكان هذا المستخدم في غاية الحُسن إلّا أنّ فيه عيباً واحداً، وهو أنّه كان أحول يرى الشيء الواحد شيئين.

وفي ذات يوم قَدِم مُشترٍ إلى العطّار فسأله أن يبيعه قنّينة زيت، فأجلسه العطّار وقال للمستخدم: اذهب إلى منزلي فوراً، تجد في السرداب قنّينة زيت فهاتها!

أسرع المستخدم إلى البيت ونزل إلى السرداب فرأى قنّينتين فيهما زيت الزيتون. فتساءل في نفسه: أيّ واحدةٍ منهما ينبغي أن آخذها؟ إن أخذتُ هذه فلربّما كان يريد الأُخرى، وإن أخذتُ الأُخرى فلربّما كان يريد هذه، كما أنّه لم يطلبهما معاً. وهكذا وقف المستخدم يفكّر ثمّ عاد إلى العطّار يمشي الهوينا فقال: قلتَ إنّ في السرداب قنّينة واحدة، لكنّي رأيت اثنتين، فأيّهما أجلب لك؟

قال العطّار: يا عزيزي! إنّها قنّينة واحدة وضعتها بيدي في السرداب، فاذهب وهاتها!

عاد المستخدم إلى البيت راكضاً، فدخل السرداب ونظر محدّقاً فرأى قنّينتين، وكلّما فرك عينيه رآهما اثنتين لا واحدة، لا ريبة في ذلك.

وهكذا عاد إلى العطّار ثانية فقال: لقد نظرت إليهما بإمعان فكانتا اثنتين! فامتعض العطّار لجلوس المشتري وانتظاره طويلاً، وخشي أن ينصرف فيفقده، فأعطى المستخدم عصاه وقاله له: غاضباً: اذهب واكسر إحدى القنّينتين وهاتِ الثانية.

فعاد المستخدم والعصا في يده ودخل السرداب فأهوى بالعصا على

إحداهما ، فانكسرت القنّينتان كلتاهما وأُريق زيتهما ، فلم يجد ثمّة قنّينة أُخرى يأت بها ، وعندئذٍ وقف يفكّر أنّه ضرب إحداهما بعصاه ولم يضربهما معاً فكيف انكسرتا . وقال في نفسه : لقد كانت هناك قنّينة واحدة في الحقيقة ، لكنّي كنت أرى إلى جانبها قنّينة أُخرى تخيّليّة موهومة ، وها قد جئت أكسر إحداهما ، لكنّي لم أهوِ بعصاي على الموهومة منهما وأُبقي الحقيقيّة على أقلّ تقدير لآخذها إلى أُستاذي ، بل أهويت بعصاي على الحقيقيّة ، فليس ثمّة من قنّينة هناك .[1]

ولو شاء هذا المستخدم أن يدع الحقّ سالماً ويكسر الباطل ، لكان عليه أن يُعالج عينه لترى الواحد واحداً ، ولترى القنّينة واحدة ، ولو فعل ذلك لزهق الباطل تلقائيّاً .

وهكذا فإنّ كسر الباطل إنّما هو بمعالجة العين ، لا بالضرب بالعصا ، لأنّ العصا تكسر الحقّ .

ولقد فطن هذا المستخدم إلى أنّ عيبه في حوله ورؤيته الشيء شيئين فكان يفكّر في نفسه أنّه سيعود إلى صاحبه ، وكيف سيحكي له القصّة ؟ وكيف يبيّن له عيبه ؟ وهكذا فقد اتّجه نحو الصحراء خجلاً .

إنّ أفراد البشر العالم منهم والتاجر والكاسب يقضون العمر مغرمين بالباطل ، يبنون لأنفسهم أصناماً متفرّقة ويجعلونها شركاء للّه تعالى ، في جميع أعمالهم ، من كسب وتجارة ، ومطالعة وعلم ، وفي الرئاسة والجاه ، ومحبّة الأهل والأولاد ، وفي كلّ نفس يتنفّسونه يضعون صنماً إلى جانب الله سبحانه وتعالى وقنّينة زيت باطلة وهميّة وشريكاً .

لقد قال النبيّ يوسف على نبيّنا وآله وعليه السلام لرفيقيه في

١ـ «لسان الغيب» للحاجّ ميرزا كريم الصابونيّ ، ص ٤ .

السجن : **يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ**.[1]

حتّى الطعام الذي يتناوله الإنسان ، والملعقة التي يرفعها يراهما مؤثّرين مقابل الله سبحانه وتعالى ، يشتري فيراه مؤثّراً ، ويبيع فيراه مؤثّراً ، وينام فيراه مؤثّراً ، حتّى أنّه يتناول الإبريق في دورة المياه فيرى الإبريق مؤثّراً مقابل الله تعالى ، فضلاً عن سائر الأعمال المهمّة الأُخرى ، وإذا صلّى ورأى نفسه موجوداً مستقلّاً واقفاً للعبادة في ساحة عظمة الله ، فإنّه يكون قد غرس بذرة أنّيّة النفس .

فممارساته هذه جميعاً شرك ، لأن النظر الاستقلاليّ إلى الموجودات مهما كان وأيّ فعل كان ، شركٌ بدون استثناء . وتلك الأُمور تمثّل بأجمعها وجه الخلق ، وينبغي لها أن تزول فيبقى وجه الله لا سواه .

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ.[2]

وإذا ما استطاع الإنسان القضاء على هذا النظر الاستقلاليّ في هذه الدنيا بقوّة التقوى والتوكّل والاستقامة في طيّ طريق الإخلاص ، فستكون قيامته قد قامت ؛ وإلّا فإنّ تلك الجهة للوجه الإلهيّ ستطلع ، فتدمغ هذا العالم كلّه بختم البُطلان ، وسيرى الإنسان آنذاك هذا العالم ـ في عين انعدامه بنفسه ـ موجوداً بالله تعالى ، وستكون الشمس والقمر والكواكب من الثوابت والسيّارات معدومة في عين وجودها ، وموجودة في عين انعدامها .

إنّ غير الموحّدين لا يرون وجود تلك الأشياء ، بل يرون عدمها في هيئة الوجود . أمّا الموحّدون فلا يرون عدمها ، بل يرون وجودها المجرّد قائماً بالحقّ .

١ـ الآية ٣٩ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٢ـ صدر الآية ٩٦ ، من السورة ١٦ : النحل .

ومهما نادى الأنبياء والأئمّة بأنّ موجودات العالم ليست فانية ، فمن ذا الذي يقتنع ؟ ولكن حين يظهر جانب وجه الله فسيكون مشهوداً للإنسان أنّ تلك الأشياء كانت معدومة بأنفسها ، وموجودة بالحقّ .

وسيُلاحظ الإنسان آنذاك أنّ سلسلة الأشياء التي رتّبها لنفسه واعتمد عليها من مال وعشيرة وولد وقدرة و ... ؛ وتصوّر أنّها ستنفعه وتعينه وتأخذ بيده ، وتشفيه وتقضي حاجاته ؛ عاجزة عن فعل أيّ شيء .

وهكذا يُساق الإنسان إلى القيامة ، فيقول المجرم :

مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ .[1]

إنّ ذلك المال الذي كان ينفعه في الدنيا ، سوف لن ينفعه يومئذٍ إذ إنّ ذلك النظام سيكون قد طُوي ، وهذا النظام نظام آخر له نشأة منفصلة ، ومن خصائصه ومعالمه أنّ المال لا يمكنه أن يُغني عن الإنسان شيئاً ؛ ولو كانت أموال الدنيا جميعها متعلّقة بالإنسان ، لما أمكنها أن تفعل له شيئاً : **مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ** . وأنّ هذا الوقت هو وقت ظهور وجه الله الذي سيكون مشهوداً فيه كالشمس في رائعة النهار أن : **هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ** .

هلك سلطاني وقدرتي جميعهما ، وتلاشت تلك القدرات التي امتلكتُها في الدنيا وكنت أنتفع بها في ذلك النظام ، وفنت وامّحت ، أي : أنّها خُتمت هنا بختم البُطلان المحض .

وسيخاطبه الله تعالى أو ملائكته قائلين :

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ *

١ـ الآيتان ٢٨ و ٢٩ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ .[١]

ذلك أنّه لم يكن من المؤمنين بالله العظيم ، وكان يعدّ الموجودات بأسرها مؤثّرة عدا الله تعالى ، فلم يكن يصلّي أو يرتبط بالله سبحانه ، إذ إنّ الصلاة تربط الإنسان بالله ، وتقوّي فيه جانب وجه الله ، وتضعف جانب مشاهدة استقلال العلل وتأثير الأسباب . أي : أنّ الصلاة لها أثر هامّ في طبع سلسلة علل عالم الخلق ومعلولاته بختم البطلان ، وفي ختم جهة وجه الله بختم الحقّ والصحّة والاعتبار .

ومن فوائد الصلاة أيضاً أنّها قربان كلّ تقيّ ، وأنّها تقرّب كلّ فرد ملتزم إلى الله سبحانه وتعالى .

والعلّة الأُخرى (لإلقائه في النار) هي عدم اهتمامه بإطعام المساكين ؛ فإعطاء الزكاة موجب لطهارة المال والقلب . والإنفاق في سبيل الله تعالى يخرج الإنسان من العُجب والغُرور . لأنّ الإنسان يحبّ المال ويتعلّق به وحين ينفقه في سبيل الله يكون قد أنفق محبّة في الله تعالى ، وهكذا فإنّه يقترب منه تعالى .

ولم يكُ ذلك المرء يُطعم المساكين والفقراء ، لذا لم يقترب منّا وفي النتيجة ، فليس له ها هنا صديق ولا حميم . حميمه اليوم عمله الصالح ، بَيدَ أنّه لم يستصحبه معه ، فلا عون له ولا حميم .

وها هو أوان طلوع وجه الله ، لكن هذا المرء لم يجلب معه تلك الأعمال الصالحة التي ستعينه يومئذٍ ؛ لذا فعند ظهور وجه الله حيث تجتمع القدرة في الله وحده ، وتُشاهد الأشياء بأجمعها مُندكّة فيه ، تكون قابليّة مثل هذا الشخص ضعيفة ، إذ لم يحمل معه زاداً إلّا الحسرة والندم . طعامه من

١ـ الآيات ٣٠ إلى ٣٧ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

غِسلين ، من القيح والدم الفاسد المتعفّن ، ومن المعدن المصهور ، من ذلك الطعام الذي لا يحتمله ولا يتجرّعه إلّا الخاطئون .

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ .[1]

إنّ الصلاة والإنفاق ركنان أساسيّان للوصول إلى سماء المعرفة ؛ فالصلاة تصل الإنسان بالله سبحانه وتقوّي نور الله ونور التوحيد في قلب المرء ؛ أمّا الزكاة فتزيد علاقة الإنسان بربّه وتنقصها بالدنيا .

الصلاة ، والزكاة بمعناها المطلق الذي يمثّل الإنفاق في سبيل الله ، هما جناحان للسير والتحليق في عالم التجرّد .

حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ .[2]

فالصلاة والإنفاق يُضعفان هذا الحبّ لدى الإنسان .

إنّ يوم القيامة والجزاء يومٌ لا بيعٌ ينفع فيه ولا خُلّة ولا تجارة ،كما أنّ علاقات الصداقة الدنيويّة ليست مُثمرةً ولا مفيدة هناك .

ولو أعطى الإنسان يومئذٍ كلّ ما يملك من أجل نجاته لما نفعه ذلك شيئاً ، ولو كانت الدنيا في قبضته وقايضها بالحصول على صكّ نجاة من النار ، أو تخفيف العذاب عنه ، لما نفعه ذلك ، إذ ليس هناك بيع ولا شراء ولا خلال . والصداقة لا تنفع أيضاً إلّا إذا كانت على أساس الروابط الإيمانيّة . إذ إنّ صداقات الدنيا برمّتها ستصبح عدوّة للإنسان في ذلك اليوم ، فأولياء الله هم أصدقاء أولياء الله وحَسب .

١ـ الآية ٣١ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢ـ «الجامع الصغير» للسيوطيّ ، ص ١٤٦ ، عن البيهقيّ في كتاب «شعب الإيمان» عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وما لم يمتلك الإنسان رابطة وعلاقة بالله تعالى ، وما لم يكن له صديق ولا وليّ في سبيل الله تعالى ، وما لم تكن له خُلّة في سبيله تعالى ، فإنّه سيكون صفر اليدين .

ومن ثمّ فإنّ سلسلة الأسباب والمسبّبات كلّها ، الأصدقاء والأعوان والأقوام جميعهم وسائر من كان يعتمد عليهم الإنسان في الدنيا ، والمال الذي كان يركن إليه ، وبشكل عامّ فإنّ كلّ أُسس معيشة حياة الإنسان التي كان يعتمد عليها في الدنيا ، ستصبح هناك صفراً لا قيمة له .

وسيقول الملائكة للإنسان :

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .[1]

وحاصل هذا البحث أنّ الأرض والزمان والموجودات الخارجيّة لا ذنب لها ، وإذا ما كنتم تتذمّرون من شيء فلا تلعنوا الدهر والزمان ، ولا تلعنوا الشمس والأرض والسماء .

فقد ورد في الرواية أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله قال :

لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَهُ .[2]

فما الذي يعني الدهر ؟ يعني الشمس والقمر والنجوم والأرض وغير ذلك ، وليست هذه بالسيّئة الطالحة ، بل هي صالحة بأجمعها ، وأساس وجودها وجه الله تعالى ، فذلك العنوان السيّئ الذي تلصقونه بها إنّما هو من أنفسكم وعنوان القبح من وجهة نظركم . لذا فإنّ النفس السيّئة والنفس المذنبة العاصية هي التي ترى هذه الموجودات سيّئة .

فلماذا ـ إذَن ـ تسبّون الموجودات الخارجيّة ؟! عليكم إصلاح

١ـ الآية ٩٤ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ «إحياء العلوم» ج ٤ ، ص ٣٤٥ .

أنفسكم أوّلاً ، وإصلاح النفس يعني إعادة الإنسان بناء نفسه ومعالجتها وتطهيرها وتنزيهها ، لا القضاء على الموجودات الخارجيّة .

ومن هذا المنطلق ورد في الحديث : **مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا** ، ما جاء في «مثنوي» (ج ٦ ، ص ٢٠ ، طبعة ميرخاني) :

بهر اين گفت آن رسولِ خوش پيام رمـز مُـوتوا قـبلَ مَـوْتٍ يـا كـرام

پس قـيامت شـو قـيامت را بـبين ديدن هر چـيز را شـرطست ايـن

تـا نگـردى ايـن نـدانـيش تـمام خواه كان أنـوار بـاشد يـا ظَـلام[1]

وعلى هذا الأساس أُثر في الدعاء :

اللَّهُمَّ أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام :

لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً .

وبناء على ما ذُكر فقد حُلّت مسألتنا اليوم بحمد الله ومنّه ، وعلمنا أنّ جميع الروايات التي ذكرت زوال الأرض ، وزوال الزمان ، وفوران البحار وتسجيرها ، وكسوف الشمس ، وانشقاق الأرض ، هي كلّها حقّ ، لكن من جهة الوجه الخلقيّ .

أمّا من جهة وجه الحقّ والوجه الربّيّ فإنّ كافة هذه الأشياء قائمة بالله تعالى وثابتة به ، وأنّه سُبحانه لا يحتاج في واحدانيّته إلى إزالة الأشياء من أجل استوائه على عرش وحدته وهيمنته عليه .

١ـ يقول : من أجل هذا قال ذلك الرسول ذو الرسالة الكريمة : موتوا قبل موتٍ يا كرام .

فكُن قيامةً ـ إذَن ـ لترى القيامة ، لأن شرط رؤية كلّ مقام ، أن تكون في ذلك المقام .

وما لم تكن كذلك فإنّك لا تدركه تماماً ، سواء كان ذلك نوراً أم ظلاماً .

الله عزّ وجلّ واحد وموحّد، وجهة وجه الله موجودة قائمة دائمة، ولا منافاة بينها وبين وحدة الخالق تعالى، بل هي مؤيّدة لها.

فما يتنافى مع الكون موحّداً (لا مع التوحيد والوحدة): الأفكار الشهويّة المتدنّسة بالمعاصي والآمال، التي تفرّق بين الناس وبين الله ولا تدع الناس يرون نور الله متجلّياً في الموجودات قاطبة، ولا تدعهم يدركون ذلك التجلّي.

فإذا أُصلحت النفس فإنّ جميع هذه المسائل ستحلّ، وسيزول التشاؤم والنظرة السيّئة، وسترتبط سلسلة العلل وأسباب عالم الخلق بالله الخالق، وسيشرق نور الله تعالى في العوالم كلّها، فيشاهد المؤمن نور الله ويُدركه فيها، وهذا ـ لا غيره ـ هو المقصود بالقيامة. لأنّ القيامة عالم المعاد، والمعاد يعني عودة الإنسان ورجوعه إلى الله تعالى:

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ.[1]

كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ.[2]

وإذا افتُرض أنّ الإنسان رحل عن الدنيا ولم يصبح جانب وجه الله مشهوداً له، فإنّه لم يَعُد إلى الله تعالى.

وحينئذٍ فإنّ الله سيكون قد خلق الإنسان وجزاه على أعماله، مع أنّ جزاء الأعمال لا يعني معاداً، إذ إنّ معنى المعاد هو العود إلى الله، ويلزم من العود إلى الله انكشاف جميع الحقائق التي قد قام الإنسان بفعل ظواهرها، لا أن يكون ذلك معنى المعاد نفسه.

ومن هنا فإنّ إدراك قدرة الله تعالى وعظمته وقهّاريّته ووحدانيّته

١ـ المقطع الأخير من الآية ٢٩، من السورة ٧: الأعراف.

٢ـ مقطع من الآية ١٠٤، من السورة ٢١: الأنبياء.

سيحصل في المعاد وسيتّضح في القيامة جليّاً ، وليس الأمر بحيث أنّ هذه القدرة والعظمة والقهّاريّة والوحدانيّة والعدل ، وسائر الصفات العليا والأسماء الحسنى ستظهر يوم القيامة . فذلك الإدراك يحصل لأولياء الله في هذه الدنيا ، وسيحصل لعموم الناس في القيامة وفي العوالم التي تعقب الموت .

وقد ورد في ذيل دعاء عرفة لسيّد الشهداء عليه السلام حسب رواية ابن طاووس قوله :

إلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الآثَارِ وتَنَقُّلَاتِ الأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ .

إلى أن يصل إلى قوله :

إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الآثَارِ فَارْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الاسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمَادِ عَلَيْهَا .

إلى أن يصل إلى قوله :

أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ ؛ وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ ؛ أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوَالِمُ ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ ، مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ [1]

١ـ هذه المطالب ضمن ذيل دعاء عرفه لسيّد الشهداء عليه السلام في موقف عرفة ، وقد أوردها السيّد الأجلّ عليّ بن طاووس في كتاب «الإقبال» ص ٣٤٨ و ٣٤٩ . ونقلها المرحوم المجلسيّ رضوان الله عليه في المجلّد العشرين من «بحار الأنوار» ص ٢٨٦ ⇦

عكس روى تـو چـو در آئـينهٔ جـام افـتاد
صوفى از خـندهٔ مِـى در طـمع خـام افـتاد[1]

⇐ عن كتاب «الإقبال». وله في ذيل هذا الدعاء كلام ننقله هنا نصّاً: قد أورد الكفعميّ رحمة الله عليه أيضاً هذا الدعاء في «البلد الأمين»؛ وابن طاووس في «مصباح الزائر» كما سبق ذكرهما. ولكن ليست في آخره فيهما بقدر ورقة تقريباً، وهو من قوله: «إلهي أنا الفقير في غناي» إلى آخر هذا الدعاء، وكذا لم توجد هذه الورقة في بعض النسخ العتيقة من «الإقبال» أيضاً. وعبارات هذه الورقة لا تلائم سياق أدعية السادة المعصومين أيضاً، وإنّما هي على وفق مذاق الصوفيّة. ولذلك قد مال بعض الأفاضل إلى كون هذه الزيادة من مزيدات بعض مشايخ الصوفيّة ومن إلحاقاتهم وإدخالاتهم.

وبالجملة هذه الزيادة أمّا وقعت من بعضهم أوّلاً في بعض الكتب، وأخذ ابن طاووس عنه في «الإقبال» غفلةً عن حقيقة الحال، أو وقعت ثانياً من بعضهم في نفس كتاب «الإقبال» ولعلّ الثاني أظهر على ما أومأنا إليه من عدم وجدانها في بعض النسخ العتيقة وفي «مصباح الزائر» والله أعلم بحقائق الأحوال - انتهى.

وأنا أقول: إنّ هذه الفقرات من الدعاء ذكرها العارف المشهور أحمد بن محمّد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندريّ المتوفّي سنة ٧٠٩ هجريّة في كتابه المسمّى بـ «الحِكم العطائيّة والمناجاة الإلهيّة» حيث عُدّت من جملة أدعية هذا العارف ومناجاته. وكانت وفاة ابن طاووس على ما في «أعيان الشيعة» ج ٤٢، ص ١٨٤، في سنة ٦٦٤ هجريّة، فإذا صحّت نسبة هذا الدعاء إلى ابن عطاء فمن المستبعد أن ينقلها ابن طاووس في كتابه في حين أنّ ابن عطاء توفّي بعد ابن طاووس بـ (٤٥ سنة). لذا فإنّ الاحتمال الثاني للمجلسيّ أرجح. ولكن يمكننا أن نقول: إنّ هذا الدعاء لسيّد الشهداء عليه السلام نفسه بَيدَ أنّ ابن طاووس لم يعثر على هذه الفقرة عند تأليف «مصباح الزائر» وأوردها في «الإقبال»، ثمّ نقل ابن عطاء - وكان معاصراً لابن طاووس ومتأخّراً عنه - هذا الدعاء عن ابن طاووس وذلك في كتابه «الحكم» وكان يُناجي به، لذا عُدّ من مناجاته بعد وفاة ابن عطاء.

١- «ديوان حافظ» طبعة پژمان، ص ٧٩ و ٨٠.

يقول: حين انعكست طلعتك في مرآة الكأس، (أي في قلب العارف) فقد طمع العارف - من نور الكأس - في الشراب.

حسن روی تو به یک جلوه که در آینه کرد
اینهمه نقش در آئینهٔ اوهام افتاد
این همه عکس مِی و نقش‌ونگاری که نمود
یک فروغ رخ ساقیست که در جام افتاد
غیرت عشق زبان همه خاصان ببرید
کز کجا سِرّ غمش در دهنِ عام افتاد
من ز مسجد به خرابات نه خود افتادم
اینم از عهدِ ازل حاصل فرجام افتاد
چه کند کز پی دوران نرود چون پرگار
هر که در دایرهٔ گردشِ ایّام افتاد
هر دمش با منِ دل سوخته لطفی دگر است
این گدا بین که چه شایستهٔ انعام افتاد[1]

١ـ يقول : ولمّا تجلّى حُسن وجهك في المرآة مرّةً ، فقد تجلّى في مرآة الأوهام كلّ هذه النقوش والرسوم.

لم تكن كلّ هذه الصور والرسوم والنقوش التي كان يُجلّيها ، إلّا شعاع واحد من طلعة الساقي التي انعكست في الكأس.

لقد أخرست غيرةُ العشق لسان الخواصّ جميعاً ، أن كيف دارت ألسنة الجميع بسرّ غمّ الحبيب وعشقه ؟

لم آتِ من المسجد إلى التكية من تلقاء نفسي ، بل ساقني إليه الأجل من الأزل المكتوب.

وما الذي يفعله لئلّا يدور ـ كدوران الفرجار ـ بدوران الدهر ، مَن تهاوى في دائرة دوران الأيّام ؟

(أي أنّ من سقط بدائرة دوران الأيّام والدنيا ، فلن يكون قادراً على عدم اتّباع دوران الدهر).

⇦

زير شمشيرِ غمش رقـص كـنان بـايد رفت

كانكه شد كُشـتهٔ او نـيک سـرانـجام افـتاد[1]

أجل إنّ ما ذكرناه في هذا البحث من طلوع وشـهود وجه الله فـي عوالم ما بعد الموت ، وفناء وانعدام المـوجودات جـميعها ، بـبطلان إدراك الاستقلال في سلسلة العلل والمعلولات ، لا يتنافى مع مـا ورد فـي ظـاهر الآيات والروايات حول كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وتسجير مياه البحار يوم القيامة ، وذلك لعدم استبعاد وقـوع هـذه الحـوادث أيـضاً فـي الأرض والسماء يوم القيامة الكبرى . فقد أخذنا ـ إذَن ـ بالظاهر مضافاً إلى أخذنا بتفسير القرآن وتأويله ، فللّه الحمد وحده .

إنّ كلّ ما يصفه القرآن الكريم من الموجودات جميعها يـعبّر عـنها بعنوان الآيـة ، والآيـة تـعني العـلامة والدلالة لذي الآيـة ؛ ومـن هـنا فـإنّ المخلوقات جميعها تمثّل وجه الله تعالى ، لأنّها آياته .

وهكذا فإنّ عالم الخلقة الذي هو آيات إلهيّة ،كلّه وجه الله سبحانه :

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ.[2]

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ .[3]

⇦ كلّ نَفَس منه لطفٌ بي ، أنا صاحب القلب المحترق الواله ، فانظر إلى هذا الشحّاذ كيف صار لائقاً بأنعام كهذا !

١ـ يقول : يجب عليّ التسليم لحدّ سيفه راقصاً جذلاً ، إذ صار محمودَ العاقبة مَن كانَ قتيله !

٢ـ الآية ١٠٥ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٣ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

وما أجمل وصف الأُزريّ وجه رسول الله في قصيدته إذ نعته بوجه الله :

هُوَ سِرُّ السُّجُودِ فِي الْمَلَأ الأَعْـ ـلَى وَلَوْلَاهُ لَمْ تُعَفَّرْ جِبَاهَا
وَهُوَ الآيَةُ الْمُحِيطَةُ بِالْكَوْنِ فَفِـ ـي عَيْنِ كُلِّ شَيْءٍ تَرَاهَا
اَلْفَرِيدُ الَّذِي مَفَاتِيحُ عِلْمِ الْـ ـوَاحِدِ الْفَرْدِ غَيْرُهُ مَا حَوَاهَا
هُوَ طَاوُوسُ رَوْضَةِ الْمُلْكِ بَلْ نَامُوسُهَا الأَكْبَرُ الَّذِي يَرْعَاهَا
وَهُوَ الْجَوْهَرُ الْمُجَرَّدُ مِنْهُ كُلُّ نَفْسٍ مَلِيكُهَا زَكَّاهَا[1]

١ـ «ديوان الأُزريّ» ص ١٣٧ .



المجلس التاسع والعشرون

المعاد هو العود إلى الله وشهود وجه الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ.[1]

المعاد يعني العود والرجوع إلى الله تعالى ، أو زمان العود ، أو محلّ العود إليه تعالى ، لأنّه من مادّة عَادَ يعودُ بمعنى الرجوع . ومن ثمّ فإنّ المعنى المطابق للمعاد ليس جزاء الأعمال والأجر عليها .

أجل ، إنّ ما يستلزمه الرجوع والعودة إلى الله تعالى ، وظهور قدرة الله وعظمته ومعرفته وتوحيده ، هو انكشاف الأعمال والآثار المترتّبة عليها من الجنّة والنار : **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .**[2]

ومن هنا فإنّ المعاد هو الرجوع إلى الله ، ولابدّ للإنسان أن يعود إلى مبدأه ؛ ومن الطبيعيّ أنّ الحقائق ستنكشف للإنسان في هذا الرجوع ، تلك الحقائق التي كانت خافية عليه في هذا العالم ، فقدكانت سلسلة العلل

ـ الفقرة الأخيرة من الآية ١٥٥ والآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الفقرة الأخيرة من الآية ٢٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

والمعلولات والأسباب والمسبّبات قد حبست الإنسان في أغلال التعيّن والتقيّد ، فلم تدعه يشاهد جمال الأحديّة واضحاً جليّاً في الموجودات بأسرها .

إنّ الأفكار التي تغلب على الإنسان في عالم الحسّ والمحسوسات هذا ، وغرائزه التي تخرج عن حدّ الاعتدال ، كالشهوة والغضب والوهم ، تُغرقه في عالمٍ من الوهم والخيال يفصله عن إدراك الحقيقة ، إذ إنّ هذا الوهم والخيال معاكس للحقيقة ومخالف لها .

وعندما يعزم على السفر ويشدّ رحاله ، فإنّ هذه التخيّلات والأوهام ستحترق وتزول ، وتنكشف له تلك الحقائق .

فهذه التخيّلات هي أوهام هذا العالم الذي نشأت فيه خلافاً لأصالة الواقع ، وكان لها جانب وجه الخلق ؛ أمّا تلك الحقائق فترجع إلى ذلك العالم ولها جانب وجه الله . على أنّ حقيقة الموجودات واحدة لا أكثر ، لأنّ التشخّص ملازم للوحدة . فكلّ شخص من الموجودات والأشياء واحد ، وجانبا وجه الخلق ووجه الله اعتباران لا ينافيان تشخّص تلك الأشياء . ولأنّ أحدهما ظاهر فإنّ الآخر خافٍ كامن ، اللهم إلّا للأفراد الذين وصلوا إلى مقام جمع الجمع وصاروا يحفظون الباطن والظاهر بملاك الباطن والظاهر تماماً .

وعلى كلّ حال فإنّ الإنسان ينظر حيناً إلى الموجودات في هذا العالم بنظر الاستقلال ، ويرى أنّ كلّاً منها مؤثّر وفاعل ؛ وينظر حيناً آخر إليها على أنّها قائمة بالله تعالى ، وأنّ الله قيّوم عليها ؛ وأن لا موجود قيّوماً في العوالم كلّها إلّا الله . فهذا هو وجه الله ووجه الربّ الوارد في قوله :

وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .

ومادام الإنسان في هذه الدنيا أسير هوى النفس الأمّارة والآمال البعيدة والخيالات الباطلة والأفكار الشيطانيّة ، فإنّ هذه الأشياء ستمنع ظهور وجه الربّ له ، وتحول بينه وبين إدراك حقيقة الأمر .

يقول الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثماليّ :

وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ ، وَأَنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَّا أَنْ تَحْجُبَهُمُ الْأَعْمَالُ [1] دُونَكَ . [2]

إنّ تلك الحقائق ستكون مكشوفة للأفراد الذين يسيرون في صراط مستقيم بقدم راسخة بحثاً عن معرفة الله ، وقيامتهم ستكون ظاهرة لهم في الدنيا ، وجميع العوالم التي يطويها سائر أفراد البشر بعد الموت عالماً بعد آخر ، يطوونها هم في هذه الدنيا .

وعلى هذا الأساس رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله :

مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا . [3]

وروى كذلك عنه صلّى الله عليه وآله :

أَوْلِيَائِي تَحْتَ قُبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي . [4]

كما ورد أيضاً :

رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حِجَابٌ إِلَّا مِنْ حِجَابِ يَاقُوتَةٍ بَيْضَاءَ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ . [5]

١ـ الْآمَالُ (خ.ل) .

٢ و ٣ـ «مرصاد العباد» ص ١٧٩ ، ١٨٢ و ٩٣ .

٤ـ «مرصاد العباد» ص ١٩٠ ؛ ورسالة «عشق و عقل» وتعريبها «العشق والعقل» ص ٨٦.

٥ـ رسالة «سير و سلوك» وتعريبها «السير والسلوك» المنسوبة إلى العلّامة بحر ⇦

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال :

لَوْ كُشِفَ لِيَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً .

وروي عنه عليه السلام أنّه كان يقول في دعائه قاضيَ الحاجات :

اَللّهُمَّ أَرِنِي الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ .[1]

وروي أنّ عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليه السلام كان يقول :

لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ .[2]

ومن الجليّ أنّ المراد بالولادة الأخرى ، إماتة نفسه من الدنـيا ومـن غير الله ومن الوجه الخلقيّ للأشياء ، والحياة بالله والوجه الربّيّ للأشياء .

وورد في الحديث القدسيّ أنّ الله عزّ وجلّ يخاطب نبيّه داود على نبيّنا وآله وعليه السلام قائلاً :

يَا دَاوُدُ أَبْلِغ أَهْلَ الْأَرْضِ أَنّـي حَبِيبٌ لِمَنْ أَحَبَّنِي ، وَجَلِيسٌ لِمَنْ جَالَسَنِي ، وَمُؤْنِسٌ لِمَنْ أَنَسَ بِذِكْرِي ، وَصَاحِبٌ لِمَنْ صَاحَبَنِي ، وَمُخْتَارٌ لِمَنِ اخْتَارَنِي ، وَمُطِيعٌ لِمَنْ أَطَاعَنِي ، مَا أَحَبَّنِي عَبْدٌ أَعْلَمُ ذَلِكَ يَقِيناً مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا قَبِلْتُهُ لِنَفْسِي ، وَأَحْبَبْتُهُ حُبّاً لَا يَتَقَدَّمُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي .

مَنْ طَلَبَنِي بِالْحَقِّ وَجَدَنِي ، وَمَنْ طَلَبَ غَيْرِي لَمْ يَجِدْنِي .

فَارْفُضُوا يَا أَهْلَ الْأَرْضِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ غُرُورِهَا ، وَهَلُمُّوا إِلَى كَرَامَتِي وَمُصَاحَبَتِي وَمُجَالَسَتِي ، وَآنِسُوا بِي أُآنِسْكُمْ وَأُسَارِعْ إِلَى مَحَبَّتِكُمْ .[3]

⇐ العلوم ص ٤٨ ، من النسخة المطبوعة مع حواشي وتعليقات المؤلّف .

١ـ دعاء أمير المؤمنين عليه السلام المطبوع مع شرحه بقلم الحاجّ الملّا محمّد جعفر كبوتر آهنگي (بالحجم الجيبيّ) .

٢ـ «بحر المعارف» للمولى عبد الصمد الهمدانيّ ، ص ١٠٣ .

٣ـ «مسكّن الفؤاد» للشهيد الثاني ، الطبعة الحجريّة ، ص ١٦ و ١٧ .

ونقل المرحوم العلّامة الحاجّ الملّا مهدي النراقيّ أعلى الله تعالى مقامه الشريف في «جامع السعادات» فقال :

قَالَ عَلَيهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى شَراباً لِأَوْلِيَائِهِ إِذَا شَرِبُوا سَكِرُوا ، وَإِذَا سَكِرُوا طَرِبُوا ، وَإِذَا طَرِبُوا طَابُوا ، وَإِذَا طَابُوا ذَابُوا ، وَإِذَا ذَابُوا خَلَصُوا ، وَإِذَا خَلَصُوا طَلَبُوا ، وَإِذَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، وَإِذَا وَجَدُوا وَصَلُوا ، وَإِذَا وَصَلُوا اتَّصَلُوا ، وَإِذَا اتَّصَلُوا لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَبِيبِهِمْ .[1]

وروى الصدوق في «معاني الأخبار» عن محمّد بن موسى بن المتوكّل ، عن أبي الحسين محمّد بن جعفر الأسديّ ، عن محمّد بن الحسين الصوفيّ ، عن يوسف بن عقيل ، عن إسحاق بن راهويه قال :

لمّا وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون ، اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له : يا ابن رسولِ الله ! ترحلُ عنّا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك ؟

وكان قد قعد في العُمارية ، فأطلع رأسه وقال :

سمعتُ أبي موسى بن جعفر يقول : سمعتُ أبي جعفر بن محمّد يقول : سمعتُ أبي محمّد بن عليّ يقول : سمعتُ أبي عليّ بن الحسين يقول : سمعتُ أبي الحسين بن عليّ بن أبي طالب يقول : سمعتُ أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهم السلام يقول : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : سمعتُ جبرئيل عليه السلام يقول :

سَمِعْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ [مِنْ] عَذَابِي» .

قال : فَلَمَّا مَرَّت الرَّاحِلَةُ نَادَانَا : بِشُرُوطِهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا .

١ـ «جامع السعادات» الطبعة الحجريّة ، ص ٤٩٣ .

ثمّ يقول الصدوق: وقد أخرجت ما رويته في هذا المعنى من الأخبار في كتاب «التوحيد».[1]

ومن الطبيعيّ أنّ البحث في هذا الحديث المبارك المعروف بحديث سلسلة الذهب بحث طويل سواء من جهة صحّة السند أم من جهة المعاني والفوائد التي تُستخرج منه، ونكتفي بالإشارة إليه قائلين: إنّ المراد بـ «لا إله إلّا الله حصني» هو معنى التوحيد، حيث إنّ من ورد وادي التوحيد أمن من عذاب الله تعالى؛ ووادي التوحيد هو نفس الارتباط بوجه الله الذي انكشف له، فصار ينظر إلى العالم كلّه بنظر التوحيد.

إذ لم يرد في الرواية تعبير: مَن قال لا إله إلّا الله، بل ورد نفس لا إله إلّا الله، أي حقيقة معنى التوحيد وعالمه. فما يصون الإنسان من العذاب هو نفس التوحيد لا التفوّه به، مع أنّ آثاراً تترتّب على النطق به لا محالة.

وما ورد في سند آخر لهذه الرواية من أنّ:

كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي.

لا ينافي هذا المعنى، لأنّ الكلمة تعني الموجود والشيء والعالم، والأشياء جميعها هي كلمات الله تعالى؛ ومن رأى الموجودات برمّتها وعدّها كلمة الله وكلامه، فقد نظر إليها ـ بطبيعة الحال ـ من جانب وجه الله.

ولمّا تعذّر الوصول إلى مقام التوحيد وانكشافه بالشهود العينيّ والعلميّ بغير الاتّصال والارتباط بالولاية التي هي طريق وسبيل وعلامة ودلالة ذي الآية، أي: حقيقة الذات والأسماء والصفات، فقد بيّن الإمام

١ـ «معاني الأخبار» ص ٣٧٠ و ٣٧١؛ و «عيون أخبار الرضا» ص ٣١٣ و ٣١٤؛ و «التوحيد» للصدوق، ص ٢٤ و ٢٥. وقد وردت هذه الرواية في «أمالي الشيخ الطوسيّ» ج ٢، ص ٢٠١؛ و «الجواهر السنيّة» ص ١٤٧، ١٥٦، ١٥٨، ٢٢٢ و ٢٦٢؛ وفي القسم الثاني من المجلّد الرابع من «أعيان الشيعة» ص ١١٨ بأسانيد متنوّعة واختلاف في المضمون.

الرضا عليه السلام ـ من ثمّ ـ في هذا الحديث أنّ شرط الوصول إلى مقام التوحيد هو قبول الولاية .

وحصيلة القول إذا تجاوزنا هذه الجماعة والفئة التي صار نور الحضرة الأحديّة مشهوداً لها في الدنيا ، والتي وصلت إلى مقام وجه الله ، فإنّ باقي الأفراد الذين أسرهم هوى النفس ، قد أطبق على بصيرتهم وران على قلوبهم حجابٌ من الأوهام والخيالات صوّر لهم الحق باطلاً ، والباطل حقّاً .

فهم حين يرحلون عن هذه الدنيا إلى حيث عالم الحقيقة والحقّ المحض ، وإلى حيث تتجلّى الحقيقة وتظهر ، وحيث هناك محلّ وموطن ظهور قدرة الله وعلمه وقيّوميّته وإرادته ومشيئته ، وأخيراً محلّ عالم التوحيد ، فسيكون مشهوداً لهم هناك أنّ هذه الدنيا التي عاشوها لم يكن فيها شيء غير الله وآثاره وظهوراته ، وأنّ جميع عالم الإمكان والوجود كان قائماً بالله سبحانه ، وأنّه لم يكن هناك موجود أصيل ومستقلّ ، تعتمد عليه الموجودات وترتبط به غير الذات المقدّسة للحضرة الأحديّة . إلّا أنّهم لم يدركوا هذه الحقيقة في الدنيا ، وسيدركونها حقّ الإدراك في القيامة .

سيسألهم الله تعالى حين يمثلون بين يديه : لماذا كنتم مشركين في الدنيا ، ولِمَ عددتم غيري مؤثّراً وفاعلاً ؟ ولِمَ كنتم في كلّ حال وفي كلّ حركة وسكنة تجعلون غيري شريكاً لي وتعتقدون به ؟

وحيث استنارت نواظرهم في ذلك العالم ورأوا جمال الأحديّة في الموجودات جميعها ، ولم يروا مؤثّراً غير الله ، وشاهدوا أنّ كافّة أُولئك المعبودين الذين عبدوهم في الدنيا دون الله سبحانه كانوا باطلاً ووهماً وسراباً وخيالاً ، فقد قالوا يا إلهنا ، لم نعبد غيرك في الدنيا : **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ**

شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ.[١]

وجوابهم هذا «ضلّوا عنّا» ليس مفاده أنّهم موجودون ومختفون عن أنظارنا، بل مفاده أنّهم ضلّوا وفنوا وانعدموا.

ثمّ ارتقوا فقالوا: بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا؛ لم نعبد في الدنيا أساساً غير الله تعالى.

أي أنّ العبادة التي كنّا نقوم بها متعلّقة بالله تعالى، إذ لم يكن غير الله من شيء، ولم يكن من شيء نعبده غير الله وأسمائه وصفاته. ولقد كانت عبادتنا التي فعلناها متعلّقة بالله تعالى على الرغم من أنّ حجاباً كان يغطّي أبصارنا فلا يدعنا نميّز الحقّ أو نرى ذلك الجمال الخالد في الموجودات قاطبة، وعلى الرغم من أنّنا كنّا نضع مقابل الله تعالى صفحة من التخيّلات والأفكار الواهية فنعبدها ونجعلها معبودنا.

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ.

أي: أنّ أولئك الذين يريدون ستر وجه الحقّ سيضلّون مسيرهم بواسطة أفكارهم، وسيكون الحقّ لديهم مختفياً والباطل متجلّياً في صورة الأصالة والحقيقة والواقع، وذنبهم أنّهم لم يميّزوا بين الحقّ والباطل، وإلّا فليس هناك موجود أصيل تتعلّق به العبادة حقّاً غير الله تعالى.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.[٢]

١ـ الآيتان ٧٣ و ٧٤، من السورة ٤٠: غافر.

٢ـ الآيات ٢٨ إلى ٣٠، من السورة ١٠: يونس.

وهي آية في غاية العجب .

ذلك أنّ الإنسان يرضى بموجودات معيّنة في الدنيا بصفتها مؤثّرة ، ويستعين بها لقضاء حوائجه ورفع فاقته ، وينظر إليها نظراً استقلاليّاً ؛ وهو الشرك بالله تعالى ، سواءً كان شركاً جليّاً أم شركاً خفيّاً . لأنّه لا مؤثّر غير الله سبحانه ؛ فهو تعالى يقول : إنّنا سنحضرهم جميعاً ونحضر معهم الأفراد الذين أطاعوهم وعبدوهم ، لكنّهم لن يستطيعوا أن يقتربوا في ذلك العالم من أُولئك المعبودين ، فقد كان ذلك القرب مختصّاً بعالم الدنيا ، حيث كان بعضهم يقضي حاجات البعض الآخر ، وحيث كانوا يتوسّلون بأُولئك الشركاء في الشدائد والمحن ، ويسألونهم رفع فاقتهم وحاجتهم .

أمّا في ذلك العالم ، عالم الحقيقة ، حيث لا مؤثّر إلّا الله تعالى ، فإنّ الشركاء لا يمكنهم أن يرتبطوا بهم ذلك الارتباط الذي كان لهم في الدنيا وفي عالم المجاز والبُطلان ، لذا فإنّهم يفترقون ويبتعدون بعضهم عن بعض .

ثمّ إنّهم يقولون لشركائهم الذين اتّخذوهم لأنفسهم : لقد عبدناكم في الدنيا ، فأعينونا اليوم ! إنّ تلك العبادات والأدعية والطاعات ، وذلك التواضع والمدح والثناء لكم هناك يوجب عليكم مساعدتنا هنا !

فيجيبهم شركاؤهم : إذاً ما كنتم إيّانا تعبدون ! ولم نكن نحن الذين كنتم تعبدون وتطيعون ؛ أنّكم لم تعبدوا واقعنا وحقيقتنا ، بل عبدتم خيالكم ووهمكم ! والله شاهدٌ بيننا وبينكم أنّ ما نقوله هو الحقّ ، وأنّنا لم نكن نعلم بعبادتكم إيّانا . هنالك يظهر لكلّ نفس جميع ما اجترحت في الدنيا ورُدّوا إلى المولى الحقيقيّ الواقعيّ ، وسيدرك الجميع أنّ هذا النحو من العبادات التي مارسوها لغير الله كانت باطلة وخاطئة كلّها . ولقد تبدّل العالم ، فلم تعد تنفعهم هذه الأعمال وهؤلاء الشركاء شيئاً :

وَرُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَقِّ .

فأُولئك الموالي والأفراد الذين كانوا يطيعونهم في الدنيا ويعتقدون أنّ لهم عنوان الأولويّة وحقّ المولويّة عليهم ،كانوا باطلاً بأجمعهم ، وقد ضلّوا وضاعوا قاطبة ، وتجلّى لهم المولى الحقّ هذا اليوم ، وظهر لهم مشهوداً بجميع قدرته وعظمته .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

لقد ضلّ عنهم ماكانوا يفترونه على الله ، وماكانوا يسرقون من قدرته وعظمته وعلمه فينسبونه إلى هؤلاء الأرباب المتفرّقين وموالي الباطل ويطيعونهم فيه . ضلّ كلّه عنهم ، لأنّ العلم متعلّق بالله تعالى وحده ، فنسبته إلى الموالي الآخرين خطأ ؛ والقدرة مختصّة بالله الأحد ، ونسبتها إلى موالي الباطل خطأ .

وسيظهر لهم ذلك اليوم ويرون رأي العين بعد عمر قضوه في العبادة أنّهم قد عبدوا الوهم فقط وأطاعوا غير الله سبحانه وتعالى وأنّ حقيقة العبادة قد عادت إلى مرجع العبادة وهو الله سبحانه . وأنّ ذنبهم كان توهمّه ـ وهو الله الذي لا شريك له ، ذو الذات اللامتناهية والحياة اللامتناهية والعلم اللامتناهي والقدرة اللامتناهية ـ مقيّداً محدوداً . فَلِمَ حدّدوا ذلك اللامتناهي وحبسوه في هذه النوافذ الصغيرة ؟ ولِمَ رجوا تلك الذات المقدّسة والأسماء الجماليّة والجلاليّة التي لا تتناهى بصورة ذات وأسماء معيّنة ومقيّدة ؟ ذنبهم في تحديده وتقييده ، لا في أصل عبادته .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ .[1]

١ـ الآيتان ٦٢ و ٦٣ ، من السورة ٢٨ : القصص .

وسيناديهم الله يوم القيامة : أين تلك الموجودات التي كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شركائي ؟ أي : أنّه يقول لهم : إنّني لم أجعل لنفسي شريكاً في فعلي ، وليس لي شريك حقيقيّ ، فشركائي هؤلاء هم أوهامكم وتصوّراتكم !

لقد أوجد هذا الوهم والخيال شركاء لي في ذاتي وحياتي وعلمي وقدرتي وسائر صفاتي ، فعكفتم على عبادتهم ، فأين هم ؟

هذا هو نداء الله لهم .

لقد كان أُولئكم يجرّون الناس إلى المعاصي والذنوب ، ويسوقونهم معهم إلى جهنّم ، وها هي قد حقّت عليهم كلمة عذاب الله ، فهم يقولون : ربّنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا ، تبرّأنا إليك من عبادتهم التي كانوا يعبدوننا بها ، فهم لم يعبدونا قطّ .

هذا مع أنّنا نعلم أنّهم قد عبدوهم ، عبدوهم جميعاً مقابل الله تعالى ، لكنّ حقيقة العبادة ترجع إلى الله سبحانه ، أمّا تلك العبادة التي كانوا يعبدونها بواسطة إغوائهم إيّاهم ، فلم تكن إلّا خيالاً ووهماً .

آنجا كه دستگاهِ حقيقت شود پديد

شرمنده رهروى كه عمل بر مجاز كرد[1]

والخلاصة ، فعندما يتجلّى نور الخالق عزّ وجلّ ويسطع في ذلك العالم ، وتنكشف الحقائق : **وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** ، وحينما تضيء الأرض وتشرق بنور ربّها وتتخلّى عن ظلماتها وتتألّق الحقائق فسيكون مشهوداً أنّ أفراد البشر في الدنيا حيثما كانوا يتحرّكون وأيّ هدف كانوا يرومون ، فإنّه ليس هناك غير الله من شيء ، حتّى أنّ عبادة المشركين كانت في

١ـ يقول : عندما يتجلّى نظام الحقيقة فإنّ الحياء سيلفّ السالك الذي عمل بالمَجاز .

الحقيقة للّه تعالى . فما هو ذنبهم يا ترى ؟

ذنبهم هو أنّ الإله الذي كان ينبغي عليهم عبادته والنظر إليه بعينٍ مُبصرة ، والتطلّع إلى جماله في الموجودات جميعها ، وعدّه مؤثّراً ، قد حبسوه في حدود التعيّن . فَلِمَ فعلوا ذلك ؟ ولِمَ شاهدوا تلك القدرة العظيمة والعلم العظيم والحياة العظيمة في زيد وعمرو ، وفي الشمس والقمر ، وفي الأب والأُمّ والرئيس والحاكم ، وفي المال والجاه والاعتبار ؟ إنّ أُولئكم ليسوا ربّاً ، فَلِمَ عبدتموهم وأطعتموهم ؟

إنّ القدرة والعلم اللتين كنتم تشاهدونها فيهم في الدنيا كانت متعلّقة بالله تعالى ، فليس لأحد قدرة في ساحة الله تعالى وفي مقابله سبحانه ؛ فلِمَ نسبتم قدرته تلك إلى الموجودات المتعيّنة المقيّدة ؟ ولبئس ما فعلتم . فالتعيّن والتقيّد سراب ، والباطل لا يلبث أن يزول ويتبدّد فليس له هنا أثر .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

كان ذلك التعيّن هو افتراؤهم على الله تعالى ، وها هم يرون اليوم أنّ أُولئكم ضلّوا وتلاشوا في ديار العدم .

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ .[1]

إنّ ذنب المشركين هو أنّهم عبدوا جانب الوجه الخلقيّ للموجودات وغفلوا عن جانب الوجه الإلهيّ ، مع أنّنا قلنا إنّ جانب الوجه الإلهيّ هو الحقيقيّ ، وإنّ جانب الوجه الخلقيّ هو السراب والوهم .

١ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٥٣ : النجم .

وهكذا فإنّ أسفهم وحسرتهم أنّهم عاشوا عمراً في الدنيا ولم يفتحوا أعينهم ليروا الله تعالى . لقد رأوا الله صغيراً منكسراً مهشّماً ، كنور الشمس والقمر المتكسّر على أمواج البحر ، كلٌّ قد حدّق في قسمٍ منه فتخيّل أنّه الشمس والقمر .

إنّ هذه الخيالات والأوهام خاطئة ، وهي ثرثرة في الكلام ، وتمريج في القلوب ؛ لا تدع أذهاننا تهدأ وتصفو عمّا يكدّرها كي تتجلّى الشمس والقمر في الذهن كما هو حقّها من التجلّي ، ولينال قلب الإنسان وسرّه مقام مشاهدة الجمال الحقيقيّ للّه كما ينبغي له .

إنّ **المعاد** يعني الاطّلاع على عظمة الله وقدرته وعلمه وحياته اللا متناهية ، اطّلاعاً يشبه ما كان مشهوداً لنا إجمالاً في العالم الذي يسبق عالم الطبع والمادّة ، وهو عالم بدئنا ، وإنّ عودتنا ستكون إلى ذلك العالم الذي كانت بداية خلقنا منه .

لابدّ لنا من الرحيل ، ونيل مقام لقاء الربّ جلّ وعلا وشهوده تفصيلاً ، حيث إنّ الفرق بين التوحيد البدائيّ والنهائيّ يتمثّل في الإجمال والتفصيل فحسب . هذه هي حقيقة المعاد ، إذ إنّ الظاهر والباطن شيء واحد هناك ؛ الظاهر عنوان الباطن ، وليس الباطن إلّا الجانب المرآتيّ والآيتيّ للظاهر . **والوجه الخلقيّ والوجه الربّيّ** هناك شيء واحد ، وسلسلة العلل والأسباب في عين إتقانها مندكّة وفانية في وجه الله تعالى .

إنّ كلّ شيء له ظهور في عالمه الخاصّ وفي الكينونة ؛ فعنوان الباطن هو عنوان الغيبة ، لأنّ الظاهر فاقد لشيء بالنسبة إلى شيء آخر . ومن ثمّ فإنّ الظاهر والباطن شيئان مختلفان عن بعضهما .

أمّا لو كان الشيء غير مخفيّ عن الشيء الآخر ، فهذا هو عين البروز ، وهذا البروز هو عين الظهور .

إنّ الإنسان في الدنيا أسير حجاب الوهم ، يرى هذا العالم مرتبطاً بسلسلة علل وأسباب مستقلّة ، ويراه مفكّكاً مجزّءاً ، فهو يبحث عن أثر مستقلّ لكلّ جزء . وهذه الرؤية والمشاهدة هي التي أوجدت الظاهر مقابل الواقع ،كما أوجدت الوجه الخلقيّ مقابل الوجه الربّيّ .

أمّا لو زالت سلسلة الأسباب هذه ، وصار بطلانها مشهوداً للعيان ، وصار تأثير علّة العلل والإله الفرد الواحد مُشاهداً للموجودات جميعها كشعاع الشمس في المرايا المختلفة ، فسيكون الظاهر هناك عين الباطن ، وسيكون الغيب والشهادة هناك واحداً ، ولن يكون شيء مختفياً عن شيء .

إنّ الأفراد الذين يحضرون في الحشر يشاهدون أنّ الله تعالى مطّلع خبير بأحوالهم وأفعالهم ؛ وهو مطّلع وخبير هنا أيضاً ، بَيدَ أنّ هذا المعنى مبهم مستغلق لا يدركه جُلّ الناس ، وسيفهمونه ويدركونه هناك .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا .[1]

يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ .[2]

ليس هناك من حجاب ، فالحجاب والستر متعلّقان بعالم الخيال والوهم ، والحجاب مرتبط بعالم وجه الخلق .

وعندما يضمحلّ جانب الوجه الخلقيّ وينقضي ، ويظهر جانب الوجه الإلهيّ والوجه الربّيّ للموجودات ويكون الإنسان في عالم مشرق بنور الله ، ذا علم واطّلاع على بواطن الأشياء ، فليس هناك عندئذٍ من شيء مخفيّ مستور .

فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .[3]

١ـ صدر الآية ٢١ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢ـ النصف الأوّل من الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٣ـ النصف الثاني من الآية ٢٢ ، من السورة ٥٠ : ق .

بصرك حادّ نافذ يرى جيّداً ، ينفذ إلى الباطن ويشاهد الأسرار والغيب ، البصر الحديديّ يعني البصر الحادّ العالِم بالباطن علماً ذا قبس ملكوتيّ ، وعلماً حقيقته الارتباط بالله سبحانه .

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ .[1]

وهو يومٌ تنكشف فيه الخفيّات والنوايا الكامنة ، وتتّضح فيه الأفكار والعقائد ، لأنّ هذه النظرة التي نظر بها الإنسان في هذه الدنيا إلى الموجودات ويرى كلّاً منها مستقلّاً متباعداً مجزّءاً لا يرتبط بالبعض الآخر وبالله ، هي نظرة ومشاهدة كامنة ومخفيّة في باطن أفكاره . أمّا في ذلك اليوم فإنّ هذه المخفيّات ستظهر وتنكشف ، لأنّ العالم عالم القلب ، عالم قلب الظاهر إلى الباطن ، ولأنّ اليوم يوم ظهور البواطن .

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ .[2]

ألا يعلم الإنسان أنّه إذا انشقّت القبور وألقت ما فيها (وظهر ما في القلوب من العقائد الفاسدة والنوايا الباطلة والأغراض السقيمة) ، وإذا حُصِّلَ ما في الصدور فتجلّى من الظلمة والخفاء والكمون وصار جليّاً للعيان ؛ ألا يعلم أنّ الله يومئذٍ خبير وعليم بهم ؟

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .[3]

فما هي سلامة القلب ؟ هي أن لا يكون فيه سوى الله تعالى . فإذا وجد سوى الله تعالى في قلب الإنسان بأيّ قدرٍ كان ، كان ذلك القلب سقيماً مريضاً .

١ـ الآية ٩ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

٢ـ الآيات ٩ إلى ١١ ، من السورة ١٠٠ : العاديات .

٣ـ الآيتان ٨٨ و ٨٩ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

يروي الكلينيّ في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم بإسناده المتّصل عن سفيان بن عُيينة ، عن الإمام الصادق عليه السلام : **سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ «إلَّا مَنْ أَتَى آللَهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» قال : الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ سِوَاهُ .**

قَالَ : وَكُلُّ قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ أَوْ شَكٌّ فَهُوَ سَاقِطٌ : وَإنَّمَا أَرَادُوا الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا لِتَفْرُغَ قُلُوبُهُمْ لِلآخِرَةِ .[1]

القلب الفارغ هو القلب المهيّأ لطلوع نور توحيد الله تعالى ، وهو محلّ إشعاع الأنوار الإلهيّة والتجلّيات السبحانيّة .

چو تافت بر دل من پرتو جمال حبيب

بديد ديدهٔ جان حُسن بر كمال حبيب

چه التفات به ذات كائنات كند

كسى كه يافت دمى لذّت وصال حبيب

به دام و دانهٔ عالم كجا فرود آيد

دلى كه گشت گرفتار زلف و خال حبيب

خيال مُلك دو عالم نياورد به خيال

سَرى كه نيست دمى خالى از خيال حبيب[2]

١ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، باب الإخلاص ، ص ١٦ .

٢ـ «ديوان المغربيّ» ص ٩ و ١٠ .

يقول : عندما أشرق على قلبي ضياء جمال الحبيب ، شاهدت البصيرة حُسن كمال الحبيب .

وما التفات امرىء إلى ذرّات الكائنات ، إذا ذاق لحظةً لذّة وصال الحبيب ؟

وأنّى سيحطّ على الحبّ المنثور على شِراك العالم قلب صار أسير زلف وخال الحبيب !

وهيهات أن تخطر صورة من العالمين برأسٍ لم يخلُ لحظةً من خيال الحبيب !

درون مــن نــه چنان از حـبيب مـملوّ شـد
کــه گـر حـبيب در آيـد بـود مـجالِ حـبيب
حــبيب را نــتوان يــافت در دو کــون مـثال
اگر چه هر دو جهان هست بر مـثالِ حـبيب
بدان صفت دل و جان از حبيب پُر شده است
کــه از حـبيب نـدارم نـظر بـه حـال حـبيب
چــه احـتياج بـود ديـده را بـه حُسـن بـرون
چــو در درون مـتجلّى شـود جـمال حـبيب
ز مشــرق دلت اى مـغربى چـه کـرد طـلوع
هــزار بَــدْر بــرفت از نــظر هـلال حـبيب[1]

وروي في كتاب «أسرار الصلاة» للشهيد الثاني أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال :

قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يَزْهَرُ ؛ وَ قَلْبُ الْكَافِرِ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ.[2]

و قال أيضاً :

لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى الْمَلَكُوتِ.[3]

و ما أبدع إنشاد الحكيم السنائيّ حين يقول :

---

١ ـ يقول: لقد طفح وجداني بالحبيب، فلم يعد مجالٌ فيه لحبيبٍ إلّا إذا غادره الحبيب !
وأنّى للحبيب مثالٌ في كلا الكونين ، ولو كان كلا العالمينِ على مِثال الحبيب !
لقد امتلأ القلب والروح بالحبيب بحيث لم يَعُدْ نظري الحبيبَ إلى حال الحبيب !
فما احتياج البصر إلى الحُسن خارجاً ، و إذا تجلّى في الوجدان جمال الحبيب !
فما الذي طلع من مشرق قلبك يا مغربيّ ، فغيّبَ ألفَ بدرٍ عن النظر ؟ هلالُ الحبيب !
٢ و ٣ ـ «بحار الأنوار» ج ١٥ ، قسم الأخلاق ، ص ٣٩ .

دل ان كس كـه گشت بـر تَـنْ شـاه
بـــود آســوده مُـلك از او و سـپاه
بـد بـود تَـنْ چـو دل تَـباه بـود
ظـلمِ لشگـر ز ضـعفِ شـاه بـود
اين چنين پُر خَلَل دلی كه تو راست
دَدْ و ديـوند بـا تـو زيـن دل راست
پـارۀ گـوشت نـام دل كـردی
دل تـحقيق را بـهل كـردی
ايـنكه دل نـام كـرده‌ای بـه مـجاز
رو بـه پـيش سگـان كـوی انـداز
از تن و نفس و عقل و جـان بگـذر
در رهِ او دِلی بـدست آور
آن چـنان دل كـه وقت پـيچا پـيچ
انـدر او جـز خـدا نـباشد هـيچ
دل يكـی مـنظريست ربّـانی
خـانۀ ديـو را چـه دل خـوانـی[1]

١ـ «حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة» لحكيم السنائيّ : ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .
يقول : إذا ساد قلبُ امرئ على بدنه ، صار المُلك والجيش منه في راحة ودعة .
ساء وضع بدنٍ فسد قلبه ، فظلم الجيش انّما هو من ضعف المَلك ووهنه .
إنّ القلب الذي لديك مليء بالثغرات ، فالوحش والشيطان منه وإيّاك على حدٍّ سواء .
أفمضغة لحمٍ سمّيتها قلباً ؟! لقد أعرضتَ بهذا عن قلب التحقيق !
فاذهب وألقِ إلى كلاب الطريق ما سمّيته مجازاً قلباً !
وتخطَّ البدن والنفس والعقل والروح ، واكتسب قلباً في طريقه ونهجه .
قلباً إذا ما واجهتْهُ المنعطفات لم يكن فيه شيء سوى الله .

از درِ نـــفس تـــا بـــه كـعبهٔ دل

عـــاشقان را هـــزار و يک مـــنزل[1]

إنّ من يرحل عن الدنيا بقلب غير سليم ، هـو مـريض بشتّى أنـواع الأمراض الباطنيّة ،كالشكّ والشرك والحسد والرياء والخدعة وحبّ الجـاه وحبّ المال ، فهذه الأمراض ستكون مانعاً من تجلّي الجـمال الإلهـيّ فـي القلب . وعليه إخراجها من قلبه ، وهو أمر عسير شاقّ .

أفيمكن ـ يا ترى ـ معالجة هذه الأمراض عند الاحتضار ، وعند سؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، وعالم البرزخ ، وفي عـالم الحشـر والسـؤال والحساب والعَرْض ؟

ومن كانت الأباطيل شغله الشاغل طول عمره ، ومن نأى عن عـالم التجرّد ومقام حقيقة النفس ، وعاش في عالم الظلمات ، وولع بالدنيا مـن أساسها ، ومرّن قلبه وروحه وخواطره على هـذا الأمـر ، وراضـها بـالآمال النفسانيّة والظلم والجناية والإعـراض عـن اللـه تـعالى ، فـصارت مـلكاته ملكات حيوان وسبع ضارّ مفترس ،كيف تُنتزع هذه الملكات منه ؟ إنّكم لو قلتم لمن كان مرابياً في الدنيا : تُب واقلع عن ذنبك هذا ! إنّ أرباحك التي عادت عليك ليست حلالاً لك ، فإن عـرفت أصـحابها فـعليك أن تـقسّمها بينهم ، وإن لم تعرفهم فستكون مجهولة المالك وعليك إعطاءها للفقراء !

فأنّى له أن يتقبّل هذا الكلام ؟ ومتى سيكون مستعدّاً للـتوبة ولردّ الأموال الربويّة ؟ لقد قضى العمر لحظاته وساعاته مغرماً بأوساخ المـال ، وفي جمع الدينار والدرهم ، وتمرّس على ظـلم المـظلومين وانـتزاع لقـمة العيش من حلقوم الصغير واليتيم والبـائس ، ولم يـتورّع عـن بـيع أمـوال

١ـ يقول : وإنّ للعشّاق من باب النفس إلى كعبة القلب ألف منزل ومنزل !

الفقراء والمساكين في سوق المزايدة ، وعن تمريغ أصحابها بالتراب ، فانعكست هذه الأعمال الشيطانيّة والبهيميّة في روحه وأثّرت فيها ، حتّى كأنّها تحجّرت كالصخر في مسرح خواطره . أفماءٌ هو حتّى يطهّره الإنسان يا ترى ؟

إنّ تحجّر هذه الصفات السيّئة القبيحة قد جعل نفسه كالحجر الأصمّ الصلد ، وهذا التحجّر كالنقش والنحت في الصخر ، فأنّى له أن يزول بالماء ؟ إنّ علاجه هو أن تُقلب ماهيّته .

لذا يُشاهد أنّ أمثال هؤلاء الأفراد يضحّون بأنفسهم في سبيل الدرهم والدينار ، وأنّهم يصبحون جشعين بخلاء قساة ، بحيث لو رأوا أبناءهم يجودون بأنفسهم أمام أعينهم لماكانوا مستعدّين للإنفاق من أجل إنقاذهم ، مع ما يكنزونه من الثروة الطائلة . بل يضنّون بالمال حتّى على أنفسهم ولا يصرفون شيئاً لمعالجتها فيما إذا ابتلوا بمرض أو احتضروا .

فكيف ـ والحال هذه ـ يُخرجون هذه الأمراض ؟ وما هي العقبات التي يلزم على القلب طيّها ليصل إلى مرحلة السلامة ؟ الله وحده يعلم ذلك . بَيدَ أنّه لا مفرّ من طيّ الطريق واجتياز العقبات في نهاية المطاف .

ولا سبيل للخلاص إلّا إذا تجلّى نور الله في القلب ، وتحرّك المؤمن بالفرقان الإلهيّ .

ويلزم هنا بيان نكتة معيّنة ، وهي أنّ نور الله وتوحيده وعظمته وعلمه إذاكانت ظاهرة للجميع في عوالم ما بعد الموت ، فلماذا نرى في بعض الآيات أنّ المجرمين محجوبون ذلك اليوم ؟

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ .[1]

---

١ ـ الآية ١٥ ، من السورة ٨٣ : المطفّفين .

إذا كان من لوازم عالم الآخرة ، وهو عالم المعاد ، الاعتراف والإقرار بقدرة الله ووحدته وسائر أسمائه الحسنى ، فماذا يعني حجاب الكفّار والمشركين ؟ ونذكر المثال الآتي لتوضيح ذلك :

افرضوا أنّ هناك ملكاً يعيش تحت ظلّ حكومته جماعات معيّنة ، منهم أفراد مطيعون من أهل الصلاح والنزاهة يأتمرون بأمره ، وآخرون من أهل الظلم والطغيان والتمرّد والتعدّي .

وأذِنَ هذا الملك لجميع الأفراد المطيعين من أهل الصلاح ودعاهم إلى بلاطه ليوزّع عليهم الهدايا والصلات والجوائز ، فجالسهم وتبسّط معهم في الحديث والمفاكهة ، ووقّرهم وكرّمهم وأحاطهم برعايته وعنايته ، فيكون الملك قد أظهر نفسه لهم وهم جالسين في بلاطه ، ناظرين إلى عظمته وقدرته .

وفي ذلك اليوم يأمر هذا الملك بالقبض على الظالمين والخائنين والغشّاشين وحَبْسهم ، فيمتثل الخدم والحشم أمره ويبادرون إلى اعتقال المتمرّدين وتكبيلهم بالأغلال والسلاسل ويأتون بهم . فتكون قدرة الملك قد ظهرت لهم أيضاً في ذلك اليوم ، لأنّهم يرون أنفسهم أسرى في يده وقبضته ، فهم لا يستطيعون أن يدّعوا إمكان فرارهم وخلاصهم وأنَّ تحزّبهم وتجمّعهم سيحرّرهم .

وعلى كلّ حال ، فقد ظهرت قدرة السلطان وعظمته لكلتا المجموعتين ، المطيعة منهما والمتمرّدة ، ولكن شتّان بين هذه وتلك ؟

فأفراد المجموعة الأُولى منعّمون يرفلون في الرياض وتهبّ عليهم النسائم متمتّعين بجمال السلطان وفي كنف عطفه وعنايته ، وفي ظلّ إحسانه وإنعامه . وهؤلاء في السجن والعذاب والأغلال ، يتلوّعون في أُتون الحياة . أُولئك تنالهم المراحم والعنايات والألطاف ، وهؤلاء عرضة للنقم

والنكايات .

أجل ، كلّ جماعة تقف حيال تجلّيات السلطان ، لكنّ تجلّيات الجماعة الأُولى الجمال وتجلّيات الثانية الجلال .

الجمال لطف وإحسان ، وإجلال وإكرام ، ومرحمة وإنعام ؛ بينما الجلال قهر وغضب ، وجبروت وشدّة ، وبأس ونقمة .

ای آخر هر اوّل وی اوّل هر آخر
ای ظاهر هر باطن وی باطن هر ظاهر

انوار جمال تست در ديدهٔ هر مؤمن
اثار جلالِ تست در سينهٔ هر كافر

قد صار لنا الطَرْف في حسنكم واله
قد ظلّ لنا العقل في حسنكم حائر[1]

إنّ المؤمنين حين يرحلون عن الدنيا فإنّهم في مظاهر جمال الحقّ جلّ وعلا على الدوام ، يسلّم بعضهم على بعض ويعظّم بعضهم بعضاً ويجلّونهم ويكرمونهم ، وقد بيّن لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة في سور مختلفة تبعاً للسير والمقام الذي كان لكلّ منهم في الدنيا ، وتبعاً لمقدار القرب من الله تعالى .

كما أنّ الكفارّ واقعون تحت ظهور وبروز اسم القهّار والجبّار وشديد المحال وأشدّ المعاقبين ، وتحت ظهور وبروز الأسماء الجلاليّة . وهذا الظهور والتجلّي من القوّة بدرجة تجعل شركاء المشركين ينكرون عبادة

١ـ يا آخر كلّ أوّل ، ويا أوّل كلّ آخر ؛ يا ظاهر كلّ باطن ويا باطن كلّ ظاهر .
أنوار جمالك في مرأى كلّ مؤمن ؛ آثار جلالك في صدر كلّ كافر .
قد صار لنا الطَرْف ... الخ .

أولئك إيّاهم ، فيقولون : **مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** .

كما أنّ المشركين يُنكرون عبادتهم بالنسبة إلى أُولئك ، فيقولون : **وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** .[1]

التوحيد منكشف ظاهر للجميع ، لكنّ تجلّيات الجلال توجب حَجب المشركين والكفّار عن تجلّيات الجمال .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ .[2]

وبغضّ النظر عن هذا ، فإنّ أيّ عمل يفعله الإنسان في الدنيا ، فإنّ عاقبته ستكون ملازمة له قريبة منه في الآخرة . الكذب الذي يجترحه هنا سيظهر هناك في هيئة الكذب ، والخدعة والمكر والحيلة التي يقابل بها الله تعالى في الدنيا ، ستظهر له في الآخرة وتبرز في هيئة تلك الأفعال . لذا فإنّ المشركين يُنكرون شركهم يومئذٍ ويقولون : **وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** .

وذلك أنّ كذبهم في الدنيا له ظهور أمامهم في الآخرة ، والأيمانُ التي أقسموها كذباً سيكون لها مثال وظهور هناك ، كما أنّ عدم استطاعتهم السجود يوم القيامة إنّما هو ظهور لاستنكافهم عن السجود في الدنيا .

ومع أنّ عظمة الله تعالى وقدرته تظهر حينئذٍ ، ممّا يستلزم غاية الخشوع والتذلّل والسجود ، ولكنّ باعتبار انطباع نفوس المشركين على عدم السجود ، وعدم استعدادها للسجود للمعبود تعالى في الدنيا ، فقد تجلّت هذه الحالة النفسيّة فيهم هناك في هيئة عدم القدرة على السجود ، فصاروا

١ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآيتان ٤٢ و ٤٣ ، من السورة ٦٨ : القلم .

يُدْعَون إلى السجود فلا يستطيعون .

إنّ الأفراد الذين كانوا لا يسجدون في الدنيا ولا يصلّون ، ولا يرون في أنفسهم الاستعداد لإظهار العبوديّة للّه تعالى ، والذين تمنعهم روحهم المتعاليّة المستكبرة في الدنيا من الهوي إلى التراب ، وتمريغ الوجه فيه مقابل مقام عزّ الله وعظمته ؛ سيعجزون هناك أيضاً عن السجود والصلاة أمام الله تعالى ، وعن إظهار الخضوع والخشوع اختياراً ، والإقرار والاعتراف بمسكنتهم قلباً ، وعن تعظيم الله تعالى ، بالرغم من ظهور القدرة والوحدة وتجلّيهما .

وذلك أنّهم لم يقرّوا في هذه الدنيا بوحدة ذات الله المقدّسة طائعين ، وسيعجزون هناك أيضاً ـ مع ظهور التوحيد وبسط مقام الوحدة ـ عن التلفّظ بالشهادة بالتوحيد وإجرائه على ألسنتهم مهما حاولوا .

وما أروع البيان القرآنيّ لهذه الحقائق ! إذ نقرأ في سورة إبراهيم قوله :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ .[١]

أجل ، أفئدتهم هواء خالية ، لأنّها كانت خالية من محبّة الله ومعرفته في هذه الدنيا ، نازعة إلى الباطل الذي لا أصالة له ولا وزن . هذا الباطل الذي سيضمحلّ هناك ، فيبقى الفؤاد خالياً فارغاً .

وَأَنْذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا

١ـ الآيتان ٤٢ و ٤٣ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ.[1]

أجل، ستكون الأرض ذلك اليوم نقيّة لا أمت فيها، منوّرة بنور ربّها، أرض لا يُعصى الله عليها. وستُقلب هذه الأرض وتنشقّ وتتخلّى عن أثقالها فتُلقيها خارجاً، وهناك محلّ ثواب الأعمال وجزائها. فمن عمل مثقال ذرّة خيراً أو شرّاً، وجد عمله حاضراً عنده يراه ويلمسه.

أمّا الذين ساروا في الدنيا بخطوات الاستقامة والمصابرة، وبقدم ثابتة في ساحة التقوى والإيمان والصدق ومجاهدة النفس الأمّارة وقمع هذا الشيطان المتمرّد بصدق، وحفظوا دينهم في الهزاهز والفتن، فإنّ أعمالهم ونواياهم ومصائبهم محفوظة عند الله تعالى وفي باطن عالم الكون هذا، وستصل إليهم.

أمّا الذين تخيّلوا أنّ الله وعالم الخلقة والرسل والكتب الإلهيّة أُمور سطحيّة لا طائل فيها، فتعاملوا معها عابثين، ولم يروا لأنفسهم مسؤوليّة والتزاماً وشُغلوا في هذا العالم الفسيح باللهو واللعب جامحين، وتفوّهوا بكلّ ماجرى على ألسنتهم، وعملوا ما أمكنهم فعله، وأطلقوا العنان لأنفسهم، وهتكوا المحرّمات الإلهيّة، فإنّ أعمالهم ونواياهم محفوظة عند الله تعالى أيضاً، وستلاحقهم سياط العدل.

وقد جرى ذكر روايات مختلفة بشأن السابقين في طريق الله

١ـ الآيات ٤٤ إلى ٤٨، من السورة ١٤: إبراهيم.

والركبان يوم القيامة ، إلّا أنّنا نورد هنا رواية يرجع سندها إلى بني العبّاس من منطلق إقرار الخصم بفضائل أهل البيت .

يقول الشيخ المفيد في كتابه «الأمالي» : أخبرني أبو عليّ الحسن بن عليّ بن فضل الرازيّ ، قال : حدّثنا أبو الحسن عليّ بن أحمد بن بشر العسكريّ ، قال : حدّثنا أبو إسحاق محمّد بن هارون بن عيسى الهاشميّ ، قال : حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن مهدي الابليّ ، قال : حدّثنا إسحاق بن سليمان الهاشميّ ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني هارون الرشيد ، قال : حدّثني أبي المهديّ ، قال : حدّثني المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمّد بن عليّ ، قال : حدّثني أبي ، عن جدّي عليّ بن عبد الله بن العبّاس ، عن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال : يا أيّها الناس نحن في القيامة ركبان أربعة ليس غيرنا . فقال له قائل : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ، من الرُّكبان ؟

قال : أنا على البراق ، وأخي صالح على ناقة الله التي عقرها قومه ، وابنتي فاطمة على ناقتي العضباء ، وعليّ بن أبي طالب على ناقة من نوق الجنّة خِطامها من لؤلؤ رطب ، وعيناها من ياقوتتين حمراوين ، وبطنها من زبرجد أخضر ، عليها قبّة من لؤلؤ بيضاء يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، ظاهرها من رحمة الله ، وباطنها من عفو الله ، إذا أقبلت زفّت ، وإذا أدبرت زفّت ، وهو أمامي .

على رأسه تاج من نور ، يضيء لأهل الجمع ذلك التاج ، له سبعون ركناً كلّ ركن يُضيء كالكوكب الدرّيّ في أُفق السماء وبيده لواء الحمد ، وهو ينادي في القيامة : **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ** ، فلا يمرّ بملأ من الملائكة إلّا قالوا : نبيّ مرسل ، ولا يمرّ بنبيّ مُرسل إلّا قال : مَلَك مقرّب ، فينادي منادٍ من بُطنان العرش : يا أيّها الناس ليس هذا ملكاً مقرّباً ، ولا نبيّاً

مرسلاً، ولا حامل عرش، هذا عليّ بن أبي طالب، وتجيء شيعته من بعده فينادي منادٍ لشيعته: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن العلويّون. فيأتيهم النداء: **أَيُّهَا الْعَلَوِيُّونَ**. أنتم آمنون، ادخلوا الجنّة مع من كنتم توالون.[1]

أجل، هذا هو مقام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يمسك بلواء الحمد، أي: أنّه قد وصل إلى مقام التوحيد والفناء في ذات الحضرة الأحديّة، بحيث إنّه يحمد الله تعالى كما هو أهله. ولذا فإنّه حقيقة وجه الله المحيط بالكون والمكان، وهو والأئمّة الطاهرون في عالم سعة التجرّد وإحاطة الإطلاق.

ويُشير الملّا الروميّ في أشعاره إلى مقام سعة وإحاطة وجهه الإلهيّ فيقول:

تا صورتِ پيوند جهان على بود
تا نقشِ زمين بود و زمان بود على بود
مسجود ملائك كه شد آدم ز على شد
آدم چو يكى قبله و مسجود على بود
هم آدم و هم شيث و هم ايوب و هم ادريس
هم يوسف و هم يونس و هم هود، على بود
هم موسى و هم عيسى و هم خضر و هم الياس
هم صالح پيغمبر و داود، على بود[2]

١ـ «أمالي المفيد» ص ١٦٠ و ١٦١.

٢ـ يقول: كان عليّ منذ أن كانت صورة مادّة العالم، وكان عليّ منذ أن كان للأرض والزمان أثر.

به سجدت لآدم الملائكة، فقد كان آدم كالقبلة، وعليّ هو الذي سُجِدَ له.

إنّ آدم وشيثاً وأيّوب وإدريس ويوسف ويونس وهوداً كانوا عليّاً.

وإنّ موسى وعيسى والخضر وإلياس، وصالح وداود كانوا عليّاً.

آن عـارف سـجّاد كـه خـاكِ درش از قـدر

بـر كـنگرهٔ عـرش بـر افـزود عـلى بـود[1]

ايـن كـفر نـباشد سـخنِ كـفر نـه ايـنست

تـا هست عـلى بـاشد و تـا بـود على بـود

كما قال فيه عليه السلام :

رومى ! نشد از سرّ على ، كس آگـاه

زيرا كـه نشـد كس آگـه از سـرّ إلـٰه

يک ممكن و اين همه صفات واجب

لا حـــول و لا قـــوّة إلّا بـــالله[2]

كما أنشد الشيخ كاظم الأُزريّ فيه :

لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ كَشْفٍ

قَدْ أَمَاطَتْ عَنِ الْغُيُوبِ غِطَاهَا

وَاسْأَلِ الْأَعْصُرَ الْقَدِيمَةَ عَنْهُ

كَيْفَ كَانَتْ يَدَاهُ رُوحَ غَذَاهَا

وَهْوَ عَلَّامَةُ الْمَلَائِكِ فَاسْأَلْ

رُوحَ جِبْرِيلَ عَنْهُ كَيْفَ هَدَاهَا

أَيُّ نَفْسٍ لَا تَهْتَدِي بِهُدَاهُ

وَهْوَ مِنْ كُلِّ صُورَةٍ مُقْلَتَاهَا

١ـ يقول : إنّ العارف السجّاد الذي فاق تراب اعتاب بابه شرفات العرش ، كان عليّاً .
لقد نظرتُ في الآفاق مليّاً ، فشاهدتُ يقيناً أنّ في كلّ موجود عليّاً .
وليس هذا كفراً وما هو حديث كفر ، إذ إنّ الموجود هو عليّ ، والذي كان كان عليّاً .

٢ـ يقول : يا روميّ ! لم يطّلع امرؤ على كُنه سرّ عليّ ، إذ لم يطّلع أحد على سرّ الإله .
أممكنٌ وله صفات الواجب هذه كلّها ؟ لا حول ولا قوّة إلّا بالله !

يَا عَلِيُّ حَسْبُكَ الْمِقْدَارُ لَاهُو
تِيَّةٌ لَا يُحَاطُ فِي عُلْيَاهَا
هِيَ قُطْبُ الْمُكَوَّنَاتِ وَلَوْلَا
هَا لَمَا دَارَتِ الرَّحَى لَوْلَاهَا
لَكَ نَفْسٌ مِنْ جَوْهَرِ اللُّطْفِ صِيغت
جَعَلَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ فِدَاهَا[1]

١ـ «ديوان الأُزْريّ» والأبيات منتخبة منه .



المجلس الثلاثون

القيامة ليست في عرض هذا العالم بل محيطة به



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .[1]

المعاد هو عودة الإنسان ورجوعه إلى مبدأه ، ومن لوازم هذا السفر طلوع نور التوحيد في عالم القيامة ، وبطلان سلسلة الأسباب والمسبّبات التي لها عنوان الوجه الخلقيّ .

المعاد عودة الإنسان إلى الله تعالى ، وإقراره واعترافه بمقام توحيد الله وعظمته ووحدانيّته وصفات جماله وجلاله . ولذا فإنّ عالم المعاد والقيامة ليس في عَرْض هذا العالم ، بل مُحيطٌ به ، لأنّ مقام توحيد الله تعالى وصفاته وأسمائه محيط بجميع العوالم ،كما أنّ إدراك عالم القيامة وظهور النفس إحاطة أيضاً بهذه النشأة وهذا العالم .

ولعلّ الإجابة على أسئلتهم : متى تقوم القيامة ؟ وأين تقوم ؟ أتقوم في الأرض أم في إحدى الكواكب السماويّة ؟ أين المكان الذي أعدّ الله عزّ

١ـ الآية ٧٧ ، من السورة ١٦ : النحل .

وجلّ فيه الجنّة وجهنّم للمؤمنين والكافرين ؟ أين محلّه ؟ ومتى يحين زمان ذلك ؟ قد اتّضحت للبعض تلقائيّاً خلال المباحث الأخيرة ، ولكن لابدّ لنا من ذكر مقدّمة لتنقيح الموضوع بصورة كاملة وبيانه بوضوح لإفادة الجميع ، وسيتّضح بعد هذه المقدّمة متى سيكون زمن قيام القيامة ، وأين مكان الجنّة وجهنّم .

لقد كانوا يسألون النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله : متى قيام الساعة ؟ ومتى قيام القيامة ؟ ومتى يحين هذا الوعد الذي تعد به ؟ ومنذ ذلك الوقت كان هذا السؤال يتردّد في أذهان الناس وعامّة الطبقات .

والمقدّمة التي سبق الإشارة إليها هي :

إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم المادّة والطبع ، أي : أنّ موجوداته موجودات مادّيّة ، ولها طبائع مختلفة ، ومن لوازم عالم المادّة الزمان والمكان .

أي : أنّه ليس هناك وجود لمادّة خارجة عن الزمان والمكان ، فهما من أعراض الجوهر المادّيّ التي لا تنفكّ عنه . ومن ثمّ فقد دُعي هذا العالم بعالم الطبع والمادّة . ولدينا عالم آخر ليس فيه مادّة ، ولا وجود فيه للطبائع ، وهو عالم المِثال والبرزخ ، حيث إنّ حقيقة وملكوت موجوداته أقوى بكثير وأعجب وأشرف وأعلم وأقدر . وبوجه عامّ فهو من جميع الجهات أقوى بكثير من هذا العالم .

إلّا أنّ ذلك العالم محيط بهذا العالم ، وهو لا يتبع هذا العالم بحيث إذا ما انقضى هذا العالم وتصرّم ، فإنّ الزمان الذي سيتبع هذا الزمان هو عالم البرزخ والمثال .

وهناك عالم أعلى من عالم المثال والبرزخ ، وهو عالم النَّفْس ، حيث إنّ موجوداته أعجب وأقوى بكثير ، وعلمها وقدرتها وإدراكها أكثر من

عالم البرزخ .كما أنّ ذلك العالم لا يتبع عالم البرزخ بحيث نقول إنّ زمن عالم البرزخ حين يتصرّم وينقضي ، فإنّ عالم القيامة سيطلع آنذاك ، لأنّ عالم القيامة ـ أساساً ـ ليس له زمان خاصّ ، بل هو فوق الزمان ، ونتيجةً لذلك فإنّ عالم القيامة الذي هو ظهور تجلّيات النفس محيط بعالم البرزخ . وهكذا فإنّ عالم البرزخ محيط بهذا العالم ، وعالم القيامة محيط بعالم البرزخ .

وبناءً على ذلك فإنّ عالمي البرزخ والقيامة موجودان الآن ؛ بَيدَ أنّه ليس صحيحاً أن نقول (الآن) ، لأنّ كلمة (الآن) تعني هذا الزمان ، فنكون بذلك قد أشرنا إلى عالم الطبع الذي له زمان . وعلينا القول إنّ عالم البرزخ موجود ، وإنّ عالم القيامة موجود .

أمّا قولنا إنّ عالم القيامة موجود الآن فهو من باب ضيق العبارة ، لأنّنا لا نستطيع استخدام غير هذه العبارة لإيصال المعنى المذكور . ويمكننا فقط أن نقول إنّ عالم القيامة موجود ، وهو لا يتبع هذا العالم ، بل محيطٌ به . وإذا ما استعملنا لفظ (فعلاً) بدلاً من لفظ (الآن) ، لواجهنا الإشكال نفسه ، لأنّها ألفاظ تؤدّي نفس المعنى . فهي أخيراً عوالم متداخلة ، يحيط أحدها بالآخر ويُسيطر عليه .

إنّ هذا العالم تحت إشراف عالم البرزخ وسيطرته ،كما أنّ عالم البرزخ تحت إشراف عالم القيامة وسيطرته . ذلك أنّ تلك العوالم لها السيطرة على هذا العالم ، فجهات هذا العالم جميعها تحت إشراف تلك العوالم ، إلّا إذا عكسنا الأمر فإنّه سيختلف ، فعالم البرزخ ليس له سيطرة وإحاطة بعالم القيامة ؛ وعالم الطبع ليس له سيطرة وإحاطة بعالم البرزخ . كما أنّ الموجودات التي في عالم الطبع والمادّة ليس لها سيطرة على عالم المثال والصور الملكوتيّة ؛ والموجودات التي في عالم المثال والملكوت

الأسفل ليس لها سيطرة على عالم الملكوت الأعلى والنفس.

هذا هو موجز الموضوع، ولعلّ هذه المسألة تستبين جيّداً بإيراد المثال الآتي: أنّ هذا الموضع الذي نجلس فيه الآن هو مسجد، فافرضوا أنّ هناك روضة خلف هذا المحلّ وهذا المسجد لها صفة الروضات البرزخيّة. وافرضوا أنّ هناك جنّة برزخيّة أو جهنّم برزخيّة، وأنّ هذا الجدار جدار طويل. أي: أنّ هذا الحائط الذي بيننا وبين هذه الروضة، أو هذا الموقد وجهنّم جدار ممتدّ إلى مسافة بعيدة. وأنّه يُقال لكم بأنّ عليكم أن تتحرّكوا من هنا وتذهبوا إلى تلك الروضة. وهو سيرٌ ينبغي على أفراد البشر قاطبة أن يسلكوه. فالجميع عليهم أن يدخلوا في عالم البرزخ. فإن زكّى الإنسان نفسه باتباعه التعاليم والأوامر الإلهيّة ووصل إلى مقام الطهارة، ونزّه سريرته بحيث أصبح بإمكانه أن يرى وهو جالس هنا في المسجد موجودات عالم الملكوت وسينهض مباشرة نحو الجدار ويضربه بمعول أو فأس ضربات متتابعة حتّى يثقبه ثمّ يشرع في توسعة ذلك الثقب حتّى يتمكّن أخيراً من الدخول إلى تلك الروضة.

فهو في هذه الدنيا، إلّا أنّه وصل إلى البرزخ، وطريقه في ذلك مجاهدة النفس واتّباع ما أمر الله به، والاحتراز عمّا أرادته النفس الأمّارة.

أمّا هذه الفؤوس والمعاول التي يضرب بها الجدار، فيسقط إثر كلّ ضربة قطعة من الحجر أو الطوب، أو الإسمنت، فهي في حكم تلك الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان في الدنيا، فيرتفع مع كلّ عمل صالح حجاب من الحُجب، حتّى يُزال أخيراً هذا الجدار، فيدخل الإنسان في الروضة.

فالأفراد الذين لا يفعلون هذا العمل هم الذين لا يقومون بأعمال صالحة بحيث يمكنهم أن يفتحوا ثغرة في الجدار ليدخلوا تلك الروضة. أو

الذين يقومون بأعمال صالحة أحياناً، فيطرقون الجدار طرقات غير منتظمة، والزمان يمرّ بالطبع، لأنّ هذا الجدار إنّما هو الزمان الذي يقع بيننا وبين تلك الروضة، وامتداد هذا الجدار إنّما هو امتداد الزمان.

وعليه فإنّ ذلك الزمان يزيحهم من أمام الجدار إلى جانب وطرف آخر، وكلّما مرّ الوقت والزمن، فإنّهم يتحرّكون معه بامتداد الجدار، يتقدّمون إلى الأمام. وبدلاً من أن يثقبوا الجدار، فإنّهم يتقدّمون إلى الأمام ويطوون امتداد طول الجدار. فأمّا أن يوفّقوا في النهاية إلى فتح ثغرة فيه خلال سنة أو سنتين أو عشر سنوات، فيدخلون إذ ذاك في عالم البرزخ أو أنّهم سيعجزون عن ذلك فيأخذهم طيّ الزمان اضطراراً إلى امتداد الجدار، حتّى ينتهي جدار زمنهم، أي: حتّى يحين موتهم، فيصلون إلى نقطة التوقّف التي عليهم أن يردوا منها إلى عالم البرزخ.

وقد رأيتم أنّ بعض المصانع تعمد إلى نصب سكّة حديديّة على الأرض، تتحرّك عليها باستمرار عجلات وأحزمة ناقلة. فإن شاءوا نقل كرسيّ أو صندوق أو شيء آخر إلى نهاية المصنع، فإنّهم يضعونه على هذه السكّة الحديديّة، فتوجب حركة الحزام الناقل والعجلات المتّصلة من سقف المصنع بهذه السكّة، حركةَ هذا الشيء حتّى يصل إلى آخر المصنع.

فتصوّروا أنّكم تقفون على هذه السكّة الحديديّة الممتدّة بمحاذاة جدار الزمن، وأنّ حزام عالم الغيب هذا يحرّك عجلات الزمن ويُديرها، فيحرّك الكرسيّ الذي تجلسون عليه وينقله إلى الأمام باستمرار.

ولو فرضنا أنّ الوقت الآن وقت الظهر، فإنّ كرسيّنا سيقابل نقطة معيّنة من هذا الجدار، ثمّ تمرّ ساعة فيتحرّك الكرسيّ إلى الأمام ويقابل نقطة أُخرى من الجدار. وهكذا فإنّه يتحرّك إلى الأمام باستمرار دون إرادتكم واختياركم. وهذه العجلات في حركة دائبة مستمرّة، تأخذ الإنسان إلى

الأمام ـ شاء أم أبى ـ حتّى يحين موته وينتهي الجدار ويصل إلى نهاية المصنع . هذا الجدار هو السدّ بيننا ـ نحن وإيّاكم ـ وبين عالم البرزخ .

إنّ الأفراد الذين يفتحون ثغرة في الجدار فإنّهم ينفذون من الجدار إلى عمق الروضة ويردون عالم البرزخ . أمّا الذين لم يفتحوا ثغرة في الجدار ، وظلّوا جالسين على كراسيهم دونما حراك ، فإنّ السكّة الحديديّة ستدفعهم إلى الأمام باستمرار ، فهم ينتظرون ـ على الدوام ـ البرزخ الذي سيأتيهم بعد انقضاء هذا العالم ، ولا يعلمون أنّ ذلك البرزخ يواجههم ، وأنّ جداراً واحداً يفصلهم عنه ، وأنّ عليهم التحرّك من أمام الجدار لا من امتداده وفي موازاته . بَيدَ أنّهم ـ لمّا لم يكونوا من أُولي الهمّة في تدمير هذا الجدار ـ فإنّ عجلة الزمن ستجرفهم إلى الأمام ، حتّى يحين الموت وينهدم الجدار ، فيردون البرزخ حينئذٍ . ونعلم في ضوء ذلك أنّ البرزخ موجود خلف جدار الزمان ، والحور العين موجودات حاضرات خلف هذا الجدار ، والأشجار والمياه والنسائم والأرواح الطيّبة الطاهرة ، وأنواع العذاب والنقم حاضرة جميعاً ، لكنّ هناك جداراً وحجاباً وساتراً يمنع رؤيتها .

إنّ الذين يسيرون في طريق الله ويعملون بأمره سيردون ذلك العالم ، أمّا الذين لا يتحرّكون فإنّهم لن يردوهُ حتّى يحين موتهم ، فيكونوا قد طووا الطريق إلى البرزخ حتّى وصلوا إلى زمن الموت . فهذا الزمن لم يوصلهم إلى نقطة الموت في حقيقة الأمر ، بل جعلهم يطّلعون على أحوال البرزخ . كما أنّ البرزخ موجود الآن دون أن يمتلكوا اطّلاعاً عليه ، لأنّ جداراً فاصلاً يحول بينهم وبينه . هذا بالنسبة إلى البرزخ ، أمّا بالنسبة إلى القيامة فإنّ الموضوع على هذا النحو أيضاً .

افرضوا أنّ هناك روضة أُخرى أمام الذين وردوا البرزخ ، تُدعى بالقيامة وتجلّيات النفس ، إلّا أنّ بين تلك الروضة وبين هذه الروضة

البرزخيّة جداراً فاصلاً أيضاً . فإذا استطاع الذين وردوا عالم المثال ـ من خلال تزكية النفس الأمّارة ومجاهدتها **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا** ـ أن يطهّروا أنفسهم وسرائرهم من لوث ودنس عالم الصورة ولم يجعلوا غير الله فيها ، وكانت أعمالهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم كلّها وفق أمر الله تعالى ، فإنّ ذلك الحجاب القيامتيّ سيُزال عن أنظارهم . وسيكونون موجودين في الدنيا ، يعيشون على أرض الطبع وعالم الزمان ، لكنّهم وردوا عالم النفس والقيامة من البرزخ ، فصارت تلك الجنان الموعودة يوم القيامة حاضرةً بأجمعها أمامهم ، مشهودة لديهم .

أمّا الذين لا يفعلون ذلك ، فقد ذهبوا إلى عالم البرزخ ، لكنّهم عجزوا عن الذهاب إلى القيامة ، لذا فإنّ عليهم أن يطووا المسافة التي بينهم وبين القيامة ، ويجتازوا الجدار الحائل بينهم وبينها ليصلوا إلى الزمن الذي يحضرون فيه عند نفخ الصور في عالم القيامة .

وفي ضوء ذلك فإنّ القيامة ليست في عَرْض البرزخ بل في طوله ، لكنّ انكشاف عالم القيامة ومعرفة خصائص ذلك العالم وأحواله وخصوصيّاته وآثاره يتوقّفان على نفخ الصور واضمحلال عالم البرزخ .

ومن هنا فإنّ الأفراد الموجودين في الدنيا يصلون إلى البرزخ ، كما يصلون إلى القيامة ، وسيُشاهدون أنّ عالم البرزخ محيط بعالم الطبع هذا ، وأنّ عالم القيامة محيط بعالم البرزخ والدنيا كليهما .

ويتّضح ـ بعد بيان هذا المطلب الذي ذكرناه بوصفه مقدّمة ـ الجواب الذي نجيب به إذا ما سُئلنا عن وقت قيام القيامة .

الجواب أنّ القيامة حاضرة حاضرة ، وهي أقرب إلى الإنسان من لمح البصر ، ورضوان الله أقرب إلى الإنسان من لمح البصر ، لأنّ برزخ الإنسان في الإنسان نفسه ، ولأنّ قيامة الإنسان في الإنسان نفسه .

إنّ نفس الإنسان محيطة بعالم مثال الإنسان وصورته، والمثال محيط بالبدن، ومن ثمّ فإنّ برزخ الإنسان وقيامته أقرب شيء إليه، وهما أقرب إليه حتّى من لمح البصر.

غاية الأمر أنّ عليه ـ من أجل الوصول إلى هذا المعنى وإدراكه ـ أن يطوي هذا الجدار، فهذا الجدار البرزخيّ يجب أن يُطوى، ويجب أن يُنفَخ في الصور. فهذه الأُمور هي لطول المسافة لا لبُعد الطريق.

وينبغي على من يعجز الآن عن شقّ هذا الجدار وفتح ثغرة فيه وبلوغ هدفه ومقصده، أن يطوي طول هذا الجدار. أمّا كم يستغرق طيّ هذا الجدار؟ هل يستغرق خمسين، أم ستّين، أم سبعين، أم مائة سنة؟ فالجواب هو أنّه ينبغي له أن يعيش ليفهم ما هو البرزخ. ثمّ إنّه يذهب إلى البرزخ إلّا أنّه لا يمكنه الذهاب إلى القيامة فوراً، لأنّه أسير عالم المثال والصورة.

وهكذا يجب عليه مسايرة ذلك الجدار الفاصل بين البرزخ والقيامة، فيسير ويسير حتّى يصل إلى نهاية الجدار. مع أنّه لو تمكّن لفَتح ثغرة في الجدار على الفور ووصل إلى رضوان الله وإلى تلك النعم التي وعد الله عزّ وجلّ بها في القيامة. وما عليه إلّا أن يفتح في الجدار، فيجد نفسه في القيامة.

يسألون: أين تقوم القيامة؟ ومتى تقع؟

هي أقرب من لمح البصر.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.[1]

١ـ الآية ٧٧، من السورة ١٦: النحل.

الله سبحانه موجود في كلّ مكان ، وملكوت السماوات والأرض وغيبهما موجودان في كلّ مكان . فغيبهما ـ إذَن ـ في يد الله ومع الله ولله .

كم يستغرق وصول الإنسان إلى القيامة ؟ هي أسرع وأقرب من لمح البصر ، لأنّ وجود نفس الإنسان وحقيقتها ، أقرب إلى الإنسان من لمح البصر . **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . ويمكنه إيصالكم إلى القيامة في لمح بصر أو أسرع منه .

فمتى ـ إذَن ـ تقوم القيامة ؟ لا يمكن القول : الآن . متى يقوم البرزخ ؟ لا يمكن القول : الآن .

إلّا أنّ من الممكن القول إنّ كلّاً من القيامة والبرزخ قائم وموجود .

متى يصل الإنسان إلى البرزخ فيدرك آثار ذلك العالم ؟ والجواب أنّه عندما يخطو خارج عالم الطبع ، ويرى سلسلة الأسباب والمسبّبات محكومة في يد الله تعالى .

متى يخرج من عالم البرزخ فيدرك عالم القيامة ؟ والجواب أنّه حينما ينسف عالم الصورة ويتخطّاه ، عندئذٍ يرد عالم القيامة ، بسرعة أكثر فأكثر ، أمّا الذين لا يمكنهم الإسراع فسيصلون متأخّرين .

المؤمنون يصلون أسرع من الكفّار ، والكفّار يصلون متأخّرين ، وقد يحصل أن يطول برزخ البعض كثيراً في تخطّيهم للعقبات ، حيث تواجههم مصاعب جمّة للوصول إلى القيامة ، أمّا البعض الآخر فالأمر ميسور لهم .

وهو يسير جدّاً للأئمّة الطاهرين عليهم السلام وأولياء الله ، فقد طووا في الدنيا البرزخ والقيامة ، وشاهدوا الحساب والكتاب والصراط والميزان والعدل والجنّة وجهنّم وعبروها جميعاً ، فوصلوا إلى مقام الفناء في ذات الحضرة الأحديّة ، ثمّ عادوا إلى عالم البقاء فجاءوا لنا بالخبر .

يَسألون رسول الله صلّى الله عليه وآله : **مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ** ؟

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا .[1]

فما الذي يفهمه أُولئك السائلون ـ ترى ـ من هذه المعاني ؟ إنّ عالم النفس والروح والتجلّيات الأنفسيّة ، وإحاطة عالم النّفس بالبرزخ ، وإحاطة البرزخ بهذا العالم هي مباحث مهمّة ، بل في غاية الأهمّيّة .

وهذه المطالب التي عُرضت في عدد من الأبحاث الأخيرة التي مرّت هي عصارة مُستخلصة من جميع الآيات القرآنيّة والروايات والأخبار الواردة في أمر المعاد والمعارف الإلهيّة .

وعندما يأتي ذلك الشخص الذي كان مُشركاً فآمن لتوّه ، أو ذلك المشرك الذي لم يؤمن بعد ، فيسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله : متى تقوم القيامة التي تعد بوقوعها ؟

فما الذي سيقوله الرسول الأكرم في جوابه ؟ وبأيّ كيفيّة سيفهمه ؟ وكيف يُلفت نظره ويقول له : ها أنت تحترق في النار الآن ؟ إنّ النار تحيط بوجودك كلّه لكنّك لا تدرك شيئاً ! إنّ قيامتك معك الآن لكنّك لا تفهم ولا تدرك ! عليك أن تطوي هذه الدنيا ثمّ تذهب إلى البرزخ فتذوق أنواع العذاب البرزخيّ الشديد حتّى تصل إلى القيامة ! ثمّ يُنفخ في الصور فيُحضر الخلائق في المحشر ، الأوّلون منهم والآخرون . يجب طيّ يومٍ مقداره خمسون ألف سنة لتفهم كيف هي القيامة !

لا يمكن للنبيّ أن يقول شيئاً غير هذا ! وكم كان جوابه رائعاً صحيحاً مدروساً مطابقاً للواقع ! وما أحسن قوله : إذ قال :

قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا .

فأيّ كلامٍ أروع وأعلى من هذا الكلام ؟

١ـ الآية ٥١ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.[1]

يقولون إن كنتَ صادقاً في هذا الوعد الذي تعده (فتقول إنّ هناك أصحاب الجنّة وأصحاب جهنّم ، وإنّ الجنّة محلّ المؤمنين وجهنّم محلّ الكفّار) فعيّنْ وقته وقل متى سيجيء ؟

فقل لهم أيّها النبيّ : إنّما العلم عند الله ، ولقد جئت لأنذركم من العواقب الوخيمة للكفر والشرك والنفاق والعمل السيّئ . إنّما أنا نذير مُبين لكم من هذا الخطر ، فاذهبوا وأصلحوا أنفسكم ! ما شأنكم بوقت القيامة ؟ إنّ اطّلاعكم على وقتها لن ينفعكم شيئاً ، فأصلحوا أنفسكم لئلّا يشملكم البلاء ، فهذا هو المهمّ !

لقد كنتم تسخرون بالقيامة عبر قولكم : متى هذا الوعد ؟ وكيف تزول الأرض ؟ وكيف تنهار الكرات والكواكب السماويّة ؟ وشاهدتم رأي العين أنّه كان أقرب إليكم من لمح البصر ، وأدركتم كَمْ كان قريباً منكم !

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.[2]

حيث عبّر القرآن الكريم هنا عن قُرب الدنيا إلى القيامة بالمكان القريب .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.[3]

١ـ الآيات ٢٥ إلى ٢٧ ، من السورة ٦٧ : الملك .

٢ـ الآية ٥١ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٣ـ القسم الأعظم من الآية ٣٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

ولهذه الآية دلالة على أنّ الأعمال التي يفعلها الإنسان من خير وشرّ ، ستكون محضرة بنفسها يوم القيامة . أي : أنّ هذه الأعمال بعينها ستوجد في البرزخ ، وفي القيامة ؛ غاية الأمر أنّ صورتها البرزخيّة والقيامتيّة لا تُرى في هذه الدنيا ؛ فالقيامة والبرزخ ـ إذَن ـ قريبان من الدنيا إلى الحدّ الذي يحضر معه نفس العمل الدنيويّ فيهما (في القيامة والبرزخ) بمجرّد فعله ، ولمّا كان الإنسان خلف جداري البرزخ والقيامة فإنّه لا يرى هذه الأعمال بصورتها القيامتيّة .

فإذا عبر ، شاهد الأعمال التي أرسلها من قبل حاضرة وموجودة ومحفوظة بأجمعها . وهكذا ستوجد في القيامة الصورة البرزخيّة للعمل وحقيقة العمل نفسه بمجرّد حصول العمل في عالم الطبع ، وسيستقرّ كلٌّ منهما في موطنه وموضعه .

والآية الكريمة : **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ**؛[1] آيةٌ عجيبة جدّاً في إفادة هذا المعنى مثار البحث .

لولا كلمةٌ سبقت من ربّك في أن يبقى الناس في الدنيا إلى أجل مسمّى ، ويؤخّر موتهم إلى ذلك الزمان ، لقُضي بين الناس فوراً ، ولرأى جميع أفراد البشر أنفسهم في القيامة . وإذ ليس بيننا وبين القيامة فاصل وحاجز ، والعلّة في الفاصل الذي وقع بيننا وبين القيامة كلمةُ الله وإرادته ، فقد سبقت وحالت دون ذلك .

فما هي تلك الكلمة ؟

وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ .[2]

١ـ مقطع من الآية ١٤ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٢ـ المقطع الأخير من الآية ٣٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

لمّا جاء أفراد البشر من نسل آدم إلى الدنيا، فقد قدّر الله سبحانه لهم أن يستقرّوا في الأرض ويتمتّعوا بثمراتها حتّى حين.

إنّ حكم الله وتقديره هذا في سكنى البشر فوق الأرض هو **الكلمة الإلهيّة** التي أبقت الإنسان في الدنيا إلى زمان خاصّ ومعيّن، ولولا هذه الكلمة الخاصّة **لقُضي بينهم** فوراً، ولفُصل بينهم بأعمالهم. فكان الإنسان في جهنّم أو في الجنّة على الفور. ولا فاصلة بينه وبين عالم الملكوت الأعلى، وبينه وبين الجنّة والنار.

وذلك أن السَبْق يستعمل في اللغة عندما تكون هناك فاصلة بين شيئين، كأن يقول أحدكم مثلاً: سبقتُ رفيقي؛ أي: أنتك سبقته وتركته وراءك في الطريق، وأنتك سبقته إلى مكان معيّن. ونتيجة لهذا السبق فقد صارت بينك وبين رفيقك فاصلة، وإلّا لماكان للسبق من معنى. ولوكنت قد تحرّكتَ مع رفيقك في مسيرٍ ما بسرعة معيّنة، لكنتَ معه دون أن يفصل بينكما فاصل.

إنّ سبق كلام الله هو الذي يحول دون القضاء والحكم بين الناس، وتلك هي «الكلمة الإلهيّة» التي قضت أن تبقوا في الأرض إلى أمد وزمان معيّن:

وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ.

فلولا هذه الكلمة لماكانت هناك مُهلة، بل كان قد قُضي بين الناس وصدر حكم الله فيهم، ولرأى جميع أفراد البشر أنفسهم في الملكوت، سواءكان ملكوت الجنّة أم جهنّم.

وقد وردت آيات قرآنيّة جاء فيها أنّ المجرمين حين يُحشرون يوم الجزاء فإنّ الله تعالى يسألهم: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟

فيجيبون: لبثنا في عالم البرزخ ـ الذي يُقال له عالم الأرض أيضاً ـ

قليلاً . بينما كان عذاب الله شديداً عليهم في البرزخ ، وكانت لهم مشاكلهم في الحشر أيضاً ، كما أنّهم عاشوا وعمروا طويلاً في الدنيا ، ومجموع هذه الأزمنة كثيرٌ لكنّهم يقولون : ما لبثنا إلّا ساعة .

فما هي هذه الساعة ؟

إنّها تعني أنّهم حين يردون عالم القيامة ، ويلحظون إحاطة ذلك العالم بالبرزخ والدنيا ، فإنّهم يرون أنّ تلك العوالم كأنّها لشدّة ارتباطها واتّصال بعضها ببعض عالم واحد لا أكثر ، وأنّ مكثهم ولبثهم في الدنيا والبرزخ لم يكن غير ساعة ، وهناك يحسّون جيّداً بقُرب العوالم بعضها من بعض .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا .[1]

وسيرون ذلك العالم متّصلاً ومرتبطاً بهذا العالم ، وقريباً منه بحيث إنّهم :

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .[2]

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .[3]

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ .[4] **وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ**

١ـ الآيات ٤٢ إلى ٤٦ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

٢ـ مقطع من الآية ٣٥ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٣ـ الآيات ١١٢ إلى ١١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٤ـ لأنّهم عاشوا في الدنيا فكان برزخهم عسيراً ومديداً .

يَوْمِ ٱلْبَعْثِ [١] فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. [٢]

لقد جئتم هنا فها أنتم ترون هذه السعة العجيبة والإحاطة المدهشة قياساً بالدنيا ، وأنتم تخالون أنّ ذلك لم يدم إلّا ساعة واحدة ، بينما كان مكثكم طويلاً . ولقد تصرّمت الأزمنة المتطاولة والقرون والأحقاب المتماديّة ، لكنّ شدّة هذه السعة والإحاطة واتّحاد العوالم هذه الأشياء كلّها قلّلت هذا الزمن المتمادي في نظركم وجعلته ساعة واحدة !

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. [٣]

قلنا : إنّ القيامة قريبة ، وموجودة الآن ، موجودة معك ، والنار قد أحاطت بك ، وعذاب الله قد أحاطك ، لكنّ بدنك قد تخدّر وروحك قد تبلّدت وفقدت الإحساس بالألم ، فهي لا تدرك كيف انّها في حالة اشتعال واحتراق .

إنّ الشخص الغاضب الذي تجيش أحاسيسه العصبيّة فإنّ عقله سيفقد الإدراك في تلك الحال ، فتراه يضرب الكأس والكوز فيكسرهما ، ويقتل امرءاً ويرتكب ألف جناية ، بيدَ أنّه لا يدرك ذلك . أمّا إذا هدأ وسكن غضبه فإنّه سيفهم آنذاك أيّ نارٍ كانت قد استعرت في روحه .

وعندما تطغى شهوة المرء فإنّه يرتكب ألف عمل شنيع ولا يدرك

١ـ الدنيا ، والانتقال من الدنيا إلى البرزخ ، والانتقال من البرزخ إلى القيامة .

٢ـ الآيتان ٥٥ و ٥٦ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٣ـ الآية ١٨٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

قبحه ، وإذا ما عاد إلى حالته الطبيعيّة فإنّه يفهم ما الذي فعله حال الشهوة ، وكيف انّه قد زنى بأُمّه أو ابنته وأسقط نفسه إلى مستوى أرذل وأدنى من الحيوان .

إنّ الناس أسرى الشهوات في الدنيا ، وهذه الشهوات قد دوّخت أرواحهم وأنفسهم وعقولهم ، ولم تدعهم يفهمون أنّهم متألّمون مبتلون . وإنّ أهل الدنيا الذين يعيشون مع الآمال البعيدة ، مبتلين بحبّ المال وحبّ الجاه ، لا يدركون الحقائق . ومع أنّهم يحترقون في النار لكنّهم لا يحسّون ألماً ولا يجدون حرقة . ولكن عندما يتخلخل عالم الأسباب والمسبّبات وسلسلة العلل والمعلولات وتتداعى تشكيلات هذا العالم وأنظمته ، ويطلع نور الله تعالى ، ويتخطّى الإنسان مسير الشهوة . فإنّهم سيدركون يومئذٍ أنّ النار طاغية ، وما أعجبها من نار !

وكم أحرقت من أبدانهم وأنضجتها .

علماً أنّ سكر شهوة الإنسان وغضبه يمنعانه من إدراك الاحتراق والاشتعال ، لأنّ **حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ** .

وعندما ينقلب العالم ويتبدّل ، ويخرج المرء من الطبع والمادّة ويشدّ الرحال إلى عالم التجرّد ، فإنّه سيرى أيّ مصائب قد انصبّت على أُمّ رأسه ، وأيّ جراح وقروح قد ألحقها بنفسه اللطيفة ، وكيف قذف بها في أُتون النار ! **لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** .

وهكذا تأتي القيامة بغتةً فتجرف الجميع ، ولكن إلى أين ؟

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ؛ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ .[1]

---

١ ـ الآية ٦ ، من السورة ٨٤ : الانشقاق .

وهذه الآية ليست عائدة إلى المؤمنين؛ فلقاء الإنسان الوارد في هذه الآية وفي كثير من آيات القرآن الكريم عائد إلى الإنسان عموماً، المؤمن والكافر، المتّقي والفاجر، العادل والفاسق. وعلى الإنسان ـ أيّاً كان ـ أن يتحرّك صوب الله تعالى ويحظى بلقائه.

وهكذا يشعّ نور الله من نافذة عالم وحدانيّته، فيضيء جميع البواطن، وتصل إلى الإنسان ـ إثر طلوع نور التوحيد ـ آثار النعم الإلهيّة في مظاهر الجمال، من الجنّة والحور العين، وجنّات تجري من تحتها الأنهار، والنسائم المبهجة؛ والروائح العطرة المنعشة، **وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ**، وكافّة النعم التي وُعد بها في القيامة.

وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ.[1]

فهذه النعم كانت مختفية في بواطن النفوس، مُستترة في حقيقة المؤمن، ولكنّ قوله: **لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ**.

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا؛ فنور الله تعالى سيُضيء هذه المواضع والمواقع في صُقع النفوس.

إنّ العاصين والمذنبين هم هكذا دائماً، يُسبّبون النار والحريق لأنفسهم فلا يُدركون ذلك، لأنّهم سكارى بالشهوة، والغضب، والغفلة.

ولقد تخدّرت وتبلّدت في وجودهم الحواسّ التي يجب أن تُدرِك هذه النيران وتحسّ بها، ولقد بطل ذلك الحسّ وفقد أثره وقوّته.

ولقد تعطّل ذلك الحسّ المعنويّ المجرّد ـ الذي يُدعى حسّاً لضيق التعبير ـ وأصبح قابعاً في زاوية الجمود متشرنقاً في سجن الجمود والبطلان.

١ـ مقطع من الآية ٧١، من السورة ٤٣: الزخرف.

أمّا حين يظهر نور الله فيشرق على هذه الحواسّ الميّتة الشملة النائمة ، فيمنحها الحياة والصحو والتيقّظ ، فإنّ الأمر سيتّضح آنذاك .

مَثَل ذلك تماماً كصحراء تتراكم في جهةٍ منها الأقذار والقُمامة والموادّ العفنة ، في حين تزهر في جهتها الأُخرى الورود والرياحين والياسمين ، لكن لمّا كان الوقت ليلاً ، والجوّ بارداً ، والشمس غائبة لا تمنح نوراً ولا حرارة ، لذا لا روائح للأقذار تزكم الأُنوف ، ولا عطور للرياحين تعبق من هذه الجهة .

أمّا حين تبزغ الشمس من وراء الأُفق ، وتشعّ بنورها على هذه الأراضي اليابسة الباردة المظلمة ، فستتحرّك كافّة هذه الموجودات وتنشط وتظهر الآثار والخصائص الكامنة المودعة في وجودها .

فتهبّ من تلك الجهة حينئذٍ الروائح العفنة الكريهة ، وتعبق من هذه الجهة عطور الورود والرياحين .

إنّ ما يستلزمه ظهور الباطن وخفاء الظاهر هو ظهور الحقائق وارتفاع حُجب الماهيّات وأستار الهويّات ، ووصول الكلّ إلى **غايةِ الغاياتِ ونهاية النهاياتِ الذي هو بدء البداياتِ وهو الله سبحانه وتعالى** . فالجميع يصل إلى الله الذي هو المنزل الأقصى المقصود للموجودات بأسرها .

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ .[1]

أي : أنّكم سترجعون وتنقلب آثاركم وخصائصكم برمّتها فتصبحون شيئاً آخر ، وكأنّ عالم القيامة ـ وهو ظهور الحقّ ـ يقلب الإنسان ويبدّله إنساناً آخر . إنّ طلوع القيامة يجعل شؤون الحياة كلّها في صورة أُخرى لا يتّسع لها فكر الإنسان أساساً ، ويجسّدها ويجعلها في مرأىً منه

١ـ المقطع الأخير من الآية ٢١ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

بنحو آخر .

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .[١]

وقد وردت هذه الفقرة من الكلام الإلهيّ في كثير من الآيات القرآنيّة .

وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .[٢]

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ .[٣]

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ .[٤]

فما أسعد الذين يتحرّكون بكيفيّة صحيحة ! أُولئك الذين استعدّوا للسفر كما جاء في القرآن الكريم وفي سيرة روّاد طريق الحقّ : الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ، ولم يتخلّفوا عن قافلة طريق الحقّ .

فمن نال درجةً من السعادة ، فقد نالها بسبب متابعتهم عليهم السلام ، ومن شقي فإنّما شقي بمخالفتهم ، لأنّهم وجه الله المتحقّقون بالحقّ والواقعيّة .

وجليّ أنّ الإنسان يقترب من متن الواقع وحقيقة نفس الأمر بقدر اقترابه منهم ، وأنّ مَن بَعُد عنهم فقد شطّ وابتعد عن أصالة الواقع ونفس الأمر وميزان تشخيص ذلك وجدان الإنسان نفسه .

ذلك أنّه إذا أنجز عملاً صائباً ، فيمكنه بوجدانه أن يوازنه بعمل الأئمّة عليهم السلام ، وإذا قام بعمل خاطئ ، فعليه أن يزنه على هذا المنوال

١ـ المقطع الأخير من الآية ٢٤٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ المقطع الأخير من الآية ١٨ ، من السورة ٥ : المائدة .

٣ـ المقطع الأخير من الآية ٥٣ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٤ـ النصف الثاني من الآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

أيضاً، ليُدرك قُبحه وكراهته.

على هذا الأساس تقوم درجات ومقامات رسول الله والصدّيقة الطاهرة والأئمّة عليهم الصلاة والسلام.

يروي المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» عن «تفسير فرات بن إبراهيم» بسلسلة سنده المتّصل عن الإمام جعفر الصادق، عن آبائه، قال:

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالى إذا جمع الناس يوم القيامة وعدني المقام المحمود وهو وافٍ لي به، إذاكان يوم القيامة نصب لي منبر له ألف درجة، فأصعد حتّى أعلو فوقه فيأتيني جبرائيل عليه السلام بلواء الحمد فيضعه في يدي ويقول: يا محمّد هذا المقام المحمود الذي وعدك الله تعالى، فأقول لعليّ: اصعد! فيكون أسفل منّي بدرجة فأضع لواء الحمد في يده، ثمّ يأتي رضوان بمفاتيح الجنّة فيقول: يا محمّد هذا المقام المحمود الذي وعدك الله تعالى، فيضعها في يدي فأضعها في حجر عليّ بن أبي طالب، ثمّ يأتي مالك خازن النار فيقول: يا محمّد هذا المقام المحمود الذي وعدك الله تعالى، هذه مفاتيح النار، أدخِلْ عدوّك وعدوّ أُمّتك النار، فآخذها وأضعها في حجر عليّ بن أبي طالب، فالنار والجنّة يومئذٍ أسمعُ لي ولعليّ من العروس لزوجها، فهي قول الله تعالى: **أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**.[1]

ألقِ يا محمّد يا عليّ عدوّكما في النار. ثمّ أقومُ وأُثني على الله ثناءً لم يُثنِ عليه أحدٌ قبلي، ثمّ أُثني على الملائكة المقرّبين، ثمّ أُثني على الأنبياء والمرسلين، ثمّ أُثني على الأُمم الصالحين، ثمّ أجلس فيُثني الله

١ـ الآية ٢٤، من السورة ٥٠: ق.

عَلَيَّ ، ويثني عَلَيَّ ملائكتُه ، وتثني عَلَيَّ أنبياؤُه ورسلُه ، ويُثني عَلَيَّ الأُمـمُ الصالحة ؛ **ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ بُطْنَانِ العَرْشِ :**

يَا مَعْشَرَ ٱلْخَلَائِقِ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ حَتَّى تَمُرَّ بِنْتُ حَبِيبِ اللَّهِ إِلَى قَصْرِهَا ، فَتَمُرُّ فَاطِمَةُ بِنْتِي ، عَلَيْهَا رَيْطَتَانِ خَضْرَاوَانِ ، وَمِنْ حَوْلِهَا سَبْعُونَ أَلْفِ حَوْرَاءَ ، فَإِذَا بَلَغَتْ إِلَى بَابِ قَصْرِهَا وَجَدَتِ الْحَسَنَ قَائِماً وَالْحُسَيْنَ قَائِماً [1] مَقْطُوعَ الرَّأْسِ . فتقول للحسن : مَن هذا ؟ يقول : هذا أخي ، إنّ أُمّة أبيك قتلوه وقطعوا رأسه .

فيأتيها النداء من عند الله : يا بنت حبيب الله إنّي إنّما أريتُك ما فعلت به أُمّة أبيك لأنّي ذخرتُ لك عندي تعزيةً بمصيبتك فيه ، إنّي جعلتُ لتعزيتك بمصيبتك أنّي لا أنظر في محاسبة العباد حتّى تدخلي الجنّة أنتِ وذرّيّتك وشيعتك ومن أولاكم معروفاً ممّن ليس هو من شيعتك قبل أن أنظر في محاسبة العباد ، فتدخل فاطمة ابنتي الجنّة وذرّيّتها وشيعتها ومَن أولاها معروفاً ممّن ليس هو من شيعتها ، فهو قول الله تعالى في كتابه : **لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ .** [2] قال : **هُوَ يَوْمُ القِيامَةِ . وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ،** [3] **هِيَ وَاللَّهِ فَاطِمَةُ وَذُرِّيَّتُهَا وَشِيعَتُهَا وَمَنْ أَوْلَاهُمْ مَعْرُوفاً مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مِنْ شِيعَتِهَا .** [4]

لقد أعطى سيد الشهداء عليه السلام وجوده لله تعالى ، وقدّم حتّى طفله الرضيع ، فإن أعطاه الله تعالى كلّ مالديه فقد عامله بعدله .

١ـ ورد في المصدر : «تفسير فرات بن إبراهيم» بلفظ : «والحسين نائماً» .

٢ـ صدر الآية ١٠٣ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ المقطع الأخير من الآية ١٠٢ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٤ـ «بحار الأنوار» الطبعة الحديثة ، ج ٧ ، ص ٣٣٥ و ٣٣٦ .

دو كَـون در خـور يک مـويِ اصـغر تـو نـيرزد

چو كار در تو فِتَد چيست خونبهات حسين جان ؟[1]

وقد ورد في بعض الروايات أنّه عليه السلام جاء إلى خيام الحرم وقال :

إِيتِينِي بِوَلَدِيَ الرَّضِيعِ حَتَّى أُوَدِّعَهُ .

فَأُعطِي ولده الرضيع ، فانحنى عليه ليقبّله ، فجاءه على تلك الحال سهم حَرْمَلة فأسلم الروح شهيداً .

١ـ يقول : إنّ الكونينِ لا يعدلان شعرة واحدة من ولدك عليّ الأصغر ، فإذا كنت أنت القتيل ، فماذا يعدل دمك يا حبيب الروح يا حسين ؟

المجلس الحادي والثلاثون

القيامة عالم النور والإشراق وظهور الحقائق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم
وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

إلى قوله تعالى :

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .[1]

بلغنا في أبحاثنا عن المعاد موضوع الحشر ، فقد عرضنا الكثير من أبحاث تتمّة عالم الدنيا وجميع مسائل عالم البرزخ ، وكيفيّة إحياء الموتى وبعثهم يوم المحشر ، ومعنى الحشر ، وها هم الموتى قد نهضوا من قبورهم فحضروا في المحشر .

ونستعرض هذا الموضوع وما سيجري يوم القيامة في ما يأتي من أبحاث إن شاء الله تعالى مستهدين بالآيات القرآنيّة المباركة والأخبار الموجودة لدينا .

١ـ الآيات ٦٧ إلى ٦٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

سبقت الإشارة إلى أنّ الموجودات ليست محجوبة عن بعضها البعض في القيامة ، لأنّ القيامة ليست عالم المادّة والزمن . فالموجودات ليس لها يومئذٍ حجاب وساتر فيما بينها بحيث يفصل بين مفرداتها .

وقد تقدّم ذكر هذا الموضوع في بحث مفصّل سابق ، استشهدنا فيه بآيات من القرآن الكريم .

أمّا كلامنا الآن فيدور حول عالم القيامة بوصفه عالم الظهور والبروز والتجلّي ، أي : عالم النور لا عالم الظلمة . ولذا نرى أنّ موجودات ذلك العالم كلّها موجودات نورانيّة على الرغم من أنّ الموجودات محجوبة بعضها عن البعض إجمالاً :

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

والشاهد هنا في قوله :

وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ .

أي : أنّ له قدرة بحيث إنّ الأرض والسماء في قبضته وتحت سيطرته وهيمنته وحكومته .

سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزّه وتقدّس وعلا وسما عمّا يُشرك به الناس ، ويجعلون له شريكاً في وحدانيّته .

إنّ ذلك العالم عالم نورانيّ ، وإنّ سنخ ذلك العالم مبدئيّاً هو الظهور والبروز والتجلّي . أمّا هذا العالم الذي نعيش فيه فله مادّة وزمن ، والهيولى الأُولى فيه ـ وهي مادّة الموادّ ـ تتّخذ لنفسها صوراً مختلفة ، ثمّ إنّ الموجودات تستقرّ على تواتر الأيّام وبالتقيّد في المكان . وفي ضوء ذلك

فلمّا كان الزمان والمكان من مواصفات الموجودات في العالم ، وكان تحقّق الموجودات وتشخّصها مرتبطاً بالزمان والمكان ، فإنّ الموجودات المادّيّة ستزال بإزالة الزمان والمكان . لذا فإنّ كلّ موجود في هذا الزمان منفصل عن الأزمنة الأُخرى ، كما أنّ كلّ موجود في هذا المكان معزول عن الأمكنة الأُخرى ، ولا يمكن للإنسان أن يوجد في عدّة أزمنة أو عدّة أمكنة في آن واحد .

وكلّ موجود إنّما يوجد في مكان واحد وزمان واحد ، حيث يكوّن هذان العرضان شخصيّته الماهويّة .

افرضوا أنّ هذا العالم الذي نعيش فيه ليس له ثقل المادّة وكثافتها ، وأنّ هناك مكاناً لا ينفصل فيه موجود عن موجود آخر بلحاظ إشغال حيّز ومكان ما ، وأنّ هناك زماناً لا تنفصل فيه الأزمنة بعضها عن بعض ، فالماضي والحاضر والمستقبل تصبح شيئاً واحداً . وتكون هذه الجهة من العالم مع تلك الجهة جهة واحدة ، باعتبار افتراضنا انعدام المكان .

لذا فإنّ الموجودات جميعها ستكون حاضرة ومشهودة هناك ، وسيكون كلٌّ منها منكشفاً ومشهوداً للموجود الآخر ، إذ إنّ الحجاب ليس مادّة فيفصلها بعضها عن بعض ، كما ليس هناك زمانٌ أو مكان فيفرّقا بينها .

وبناءً على ذلك فإنّ كلّ شيء سيكون موجوداً ، وكلّ شيء سيكون منكشفاً وجليّاً لكلّ شيء .

افرضوا أنّ هناك جماعة متحلّقةً في أحد المساجد ومشغولة بتبادل الحديث وبتدارس القرآن وبحثه وتفسيره ، فإنّ أفراد هذه الجماعة سيحسّون بوجودهم وشخصيّتهم في تلك الساعة التي يجلسون فيها ، لكنّهم لا يحسّون بمحادثة الساعة السابقة ، ولا بوجود الساعة السابقة ،

ولا الساعات اللاحقة ولا المحادثة الدائرة فيها .كما أنّهم لا يدركون اليوم الذي انقضى والساعات التي تصرّمت ، ولا يدركون اليوم الذي لم يأتِ بعد ولا ساعاته . ومن جهة أُخرى فإنّ هذه الجماعة تواجه بعضها بعضاً فحسب ، لذا فإنّهم يتعاملون مع الأفراد الذين يتذاكرون ويتخاطبون معهم ، لكنّهم لا يرون ما وراء جدار المسجد فضلاً عن الموجودات الأبعد والأشياء الأبعد .

أمّا لو افترضنا أنّهم يجلسون في مسجد توجد فيه ساعة المذاكرة والساعة التي قبلها والساعة التي بعدها ، وأنّ وجودهم الفعليّ واحد مع وجودهم في اليوم السابق واليوم اللاحق ، وأنّ السنة السابقة واللاحقة شيء واحد لهم ؛ هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى فإنّ هذا المسجد مسجدٌ نورانيّ ، جدرانه بلّوريّة وسقفه بلّوريّ وأرضه بلّوريّة ، والساعة الموجودة فيه من البلّور أيضاً ، وعقارب الساعة وعجلاتها المسنّنة وإطارها من البلّور ، وأنّ فراش المسجد من البلّور ، وأرضيّته من البلّور .

وفي هذا الفرض لن يشاهد ظاهر الساعة فحسب ، بل يُشاهد باطنها كلّه بما يضمّه من عجلاتها ولوالبه ورقّاصها . ولمّا كان الفراش بلّوراً فإنّه لا يحجب مشاهدة الأرض ، فيستطيع الإنسان أن يرى الأرض من فراشها . ولمّا كانت الأرض بلّوريّة ، فإنّ كلّ ما تحتها إلى تخومها سيشاهد أيضاً . ولمّا كانت الجدران بلّوريّة ، فإنّ ما خلفها سيشاهد هو الآخر .

العالم ـ إذَن ـ عالمٌ بلّوريّ ،كما أنّ وجود الإنسان نفسه بلّوريّ أيضاً ، وكما يدرك كلّ إنسان نفسه ويراها ، فإنّه يدرك جميع الموجودات الأُخرى ، كما أنّ تلك الموجودات تدرك الإنسان وتفهمه ، فليس هناك شيء غائب عن شيء .

وهكذا يسطع النور على هذه الأشياء البلّوريّة ، فيتلألأ كلٌّ منها ويعكس النور على الأشياء البلّوريّة الأُخرى ؛ ولمّا كانت الأشياء جميعها متلألئة ومُشعّة ، فإنّ العالم سيكون عالماً نورانيّاً ومشهوداً برمّته .

هذه هي كيفيّة العوالم العلويّة ، وقد مثّلنا بالدنيا ، إلّا أنّ حقيقتها في عالم الآخرة .

ولقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن العالم العلويّ ، وكانوا يستوضحونه عن كيفيّة ذلك العالم وخصائصه وآثاره ، ذلك العالم الذي يقابل العالم السفليّ الذي نعيش فيه ، وذلك العالم هو محلّ الملائكة والأرواح والعقول والموجودات المجرّدة . فما هي خصائص هذه الموجودات يا ترى ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : صُوَرٌ عَارِيَةٌ عَنِ الْمَوَادِّ ؛ عَالِيَةٌ عَنِ الْقُوَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ؛ تَجَلَّى لَهَا فَأَشْرَقَتْ ؛ وَطَالَعَهَا فَتَلأْلأَتْ ؛ وَأَلْقَى فِي هُوِيَّتِهَا مِثَالَهُ؛ فَأَظْهَرَ عَنْهَا أَفْعَالَهُ . وَخَلَقَ الإنْسَانَ ذَا نَفْسٍ نَاطِقَةٍ ؛ إنْ زَكَّاهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، فَقَدْ شَابَهَتْ جَوَاهِرَ أَوَائِلِ عِلَلِهَا ؛ وَإذَا اعْتَدَلَ مِزَاجُهَا ، وَفَارَقَتِ الأَضْدَادَ ، فَقَدْ شَارَكَ بِهَا السَّبْعَ الشِّدَادَ .[1]

وقد أوردنا هذا الحديث الشريف مع سنده وناقشناه في الجزء الثالث من «معرفة المعاد» ؛ ونشرع الآن ببحث مفاده ومعناه .

لقد أجاب الإمام عليه السلام بأن لا وجود للمادّة في العالم العلويّ ، فهناك صور عارية عن المادّة ؛ ومن الطبيعيّ أنّ المادّة لمّا كانت غير موجودة فإنّ الزمان غير موجود أيضاً ، لأنّ المادّة من ملازمات الزمان .

وتلك الموجودات موجودات فعليّة محضة ، ليس لها قوّة وقابليّة ، أمّا

---

١ ـ «شرح الغُرر والدُّرر للآمديّ» تأليف آقا جمال الخونساريّ ، ج ٤ ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.

الموجودات التي تتحرّك نحو الكمال ، فتمتلك القوّة والقابليّة وتوصل قواها إلى الفعليّة ـ بطيّ مدارج الكمال ـ فهي في حركة دائبة بين القابليّة والفعليّة ، تبدّل القوّة إلى الفعل في كلّ لحظة ، وفي اللحظة الأُخرى تبدّل تلك الفعليّة ـ التي هي بدورها قوّة وقابليّة بالنسبة إلى المراحل والمراتب التالية ـ فعليّة أُخرى . وهكذا تتبدّل باستمرار كلّ قوّة إلى فعليّة نسبيّة ، وتتبدّل تلك الفعليّة النسبيّة إلى فعليّة أكمل ، حتّى تصل إلى منزل الفعليّة المحضة ، وتحوز الفعليّة المطلقة .

إنّ بذرة الفاكهة،التي أُودعت فيها القوّة والقابليّة لتكون جذراً ، وساقاً ، وشجرة ، وأوراقاً ، ولتعطي ـ من ثمّ ـ فواكه كثيرة لسنين طويلة ، إذا زرعت تحت الأرض،في حركة تكامل ونمو شجرة وإعطاء فاكهة .

وهكذا تقوم موجودات هذا العالم جميعها ـ بامتلاكها القوّة والقابليّة بواسطة اللبس والخلع بتبديل تلك القوى إلى الفعليّة ، وتصعد سلّم الترقّي فتصل إلى التكامل ، وذلك الترقّي والكمال يعدّان من مختصّات هذا العالم . أمّا في ذلك العالم فإنّ الموجودات كلّها تمتلك الفعليّة المحضة .

إنّ كلّ موجود يرحل عن هذه الدنيا ، فإنّه يُختم هناك بالفعليّة التي كان عليها عند رحيله بمجرّد رحيله ، ومع أنّ في البرزخ إجمالاً حركة وتكاملاً ، إلّا أنّه ـ كما أُشير سابقاً ـ يعدّ من تتمّة عالم الدنيا لأنّه يمتلك خصائص الكمّ والكيف التي تُشبه الموجودات المادّيّة . أمّا في القيامة فلا حركة ولا تكامل أبداً ، فمَن وضع قدمه فيها فإنّه سيكون قد وصل إلى الفعليّة المحضة .

كما تنعدم الحركة والتكامل لدى ملائكة ذلك العالم ، فقد خُلق كلّ منهم ليظلّ في مهمّته التي وُجد من أجلها إلى الأبد ، وليس لهم ضعف وقدرة ونقصان وزيادة ، كما لا يمكنهم أن يتخطّوا ما عُيّن لهم ، ولا أن

يقصّروا أو يتماهلوا في أداء ذلك .

هذه هي بعض خصائص موجودات العالم العلويّ الخالية من المادّة والحجاب ، والمستقرّة على أرضيّة الفعليّة والتحقّق الصرف المحض .

ولقد تجلّى الله تبارك وتعالى لهم ، أي : أنّه أظهر نفسه في مرآة هويّاتهم وماهيّاتهم التي تُدعى في اصطلاح العرفاء ذوي العزّة والقدر بـ «**الأعيان الثابتة**» ، **فَأَشْرَقَت** ، وطلع فيها فتلألأت وأنارت . ثمّ إنّه ألقى في هويّات تلك الموجودات شبهه ومثاله ، وهو ظهور وبروز صفاته وأسمائه ، فأظهر أفعاله عن تلك الموجودات .

ولذلك فإنّ ظهور أفعال الله عن تلك الموجودات كان بسبب إلقائه مثاله فيها ، فقد وضع فيها أوّلاً الاسم والصفة ، فظهرت تبعاً لذلك أفعاله عنها . فأفعال موجودات العوالم العلويّة كلّها هي ظهور صفات وأسماء النور فحسب ، حيث قد ظهر فيها على أساس التجلّي الذاتيّ .

لقد خلق اللهُ الإنسان ذا النفس الناطقة وميّزه وفضّله بها على سائر المخلوقات ، فإن زكّى الإنسان نفسه ونمّاها بالعلم والعمل ، شابهت إذ ذاك أصل جواهر سلسلة عللها في مبدأ التكوين ، وتناسخت وتشابهت مع تلك الموجودات الطاهرة والمنوّرة في العالم العلويّ .

وإذا اعتدل مزاج الإنسان وفارق الأضداد والقوى الشهويّة والغضبيّة والوهميّة المختلفة ، وجعل استعمال تلك القوى على أساس الاعتدال ، وتبعاً لأوامر قوّته العقليّة وقوّته الناطقة القدسيّة ، فإنّ السماوات السبع التي تشرف عليه ستشترك معه في الحياة وآثارها .

أي : أنّ الإنسان سيرتقي كالسبع الشداد «السمٰوات السبع» المحكمة المتقنة ، وستكون له روح الكمال ، ويصبح مثلها ذا صفات وأفعال مجرّدة ومطلقة .

كان هذا شرحاً مختصراً حول الحديث الشريف المشار إليه ، أمّا البحث المفصّل عنه فلا يسعه هذا الكتاب .

وما أروع الأبيات التي أنشدها الخواجه حافظ الشيرازيّ في نشأة العالم العلويّ واختلاف الظروف والماهيّات وخلقة الإنسان الذي هو جامع لصفات الله تعالى .

در ازل پرتو حُسنت ز تجلّی دم زد
عشق پیدا شد و آتش به همه عالم زد

جلوه‌ای کرد رُخَت ، دید مَلَك عشق نداشت
عینِ آتش شد از این غیرت و بر آدم زد

عقل می‌خواست کز آن شعله جهان افروزد
برق غیرت بدرخشید و جهان بر هم زد

مُدّعی خواست که آید به تماشاگه راز
دستِ غیب آمد و بر سینهٔ نامحرم زد

دیگران قرعهٔ قسمت هم بر عیش زدند
دلِ غمدیدهٔ ما بود که هم بر غَم زد[1]

١ـ «ديوان حافظ» طبعة پژمان ، ص ٨٧ .

يقول : تحدّث ضياءُ حُسنك عن التجلّي منذ الأزل ، فظهر العشق ، وسرت ناره في أرجاء العالم .

لقد تجلّت طلعتُك للمَلَك فلم تلحظ فيه وَجْداً ، فتجلّت كالنارِ لآدمَ غيرةً .

وحين شاء العقلُ أن يستضيء بتلك الشعلة قبساً ، فقد شعّت الغيرةُ فاضطرب الكون وانقلبت أوضاعه كلّه .

وحين جاء العاذلُ ليتفرّج على الأسرار ، فقد امتدّت يدُ الغيب فطوّحت بالأجنبيّ .

لقد اقترع الآخرون على حظّ العيش فكان لهم الرغد والهناء ، لكن كان نصيب قلبنا المحزون المبتلى اقترع على غمّ العشق .

جان عِلْوى هـوسِ چاهِ زَنَـخدان تـو داشت
دست بـــر حــلقهٔ آن زلفِ خَــم انــدر زد
حــافظ آن روز طــربنامهٔ عشـقِ تـو نـوشت
كــه قــلم بــر سَــرِ اســباب دلِ خُــرّم زد[1]

ويقول في موضع آخر :

عكسِ روى تــو چــو در آئــينهٔ جــام افـتاد
عــارف از خــندهٔ مِــى در طـمعِ خـام افـتاد
حُسن روى تو به يك جلوه كه در آيـنه كـرد
ايـــن هــمه نــقش در آئــينهٔ اوهــام افــتاد
اين همه عكس مى و نقش و نگارى كه نمود
يک فــروغِ رخِ ســاقيست كـه در جـام افـتاد
مـن ز مسـجد بـه خـرابـات نـه خـود افـتادم
ايــنم از عــهدِ ازل حــاصل فــرجام افـتاد[2]

١ـ يقول : لقد أُغرم الروح العلويّ بالهبوط إلى أسفل ذقنك (لوصالك) ، فتعلّقت بحلقات زلفك المجعّد .

ولقد كتب حافظ رسالة عشقك المبهجة ، فشطب على كلّ ما يُبهج القلب (وقال مرحى لمحنة هواك) !

٢ـ «ديوان حافظ» طبعة پژمان ، ص ٧٩ .

يقول : حين انعكست صورتك في مرآة الكأس ، فقد طمع العارف لابتسامة الكأس في الشراب .

ولمّا تجلّى حُسن وجهك في المرآة مرّةً فقد تجلّى في مرآة الأوهام كلّ هذه النقوش والرسوم .

لم تكن كلّ هذه الصور والرسوم والنقوش التي كان يجلّيها ، إلّا سطوع طلعة الساقي التي انعكست في الكأس .

لم آتِ من المسجد إلى التكية بنفسي ، بل ساقني إليه الأجل المكتوب من الأزل .

هر دَمَش با منِ دلسوخته لطفى دگر است
ايـن گدا بين كه چه شايستهٔ إنعام افتاد
زير شمشير غَمش رقص كنان بايد رفت
كانكه شد كشتهٔ او نيك سرانجام افتاد
در خمِ زلف تو آويخت دل از چاه زَنَخ
آه كز چاه برون آمد و در دام افتاد[1]

وقال المرحوم الحكيم السبزواريّ :

إذ لاحجاب في المفارقاتِ وإنّما اختصّ المقارناتِ
فكان في كلٍّ جميع الصور كلٌّ من الكلّ كمجلى الآخر[2]

ليس هناك من حجاب في موجودات العالم العلويّ التي تدعى بالمفارقات ،كما هو الأمر في عالم العقول والنفوس المجرّدة ؛ بل يختصّ الحجاب بموجودات العالم السفليّ ، لأنّه عالم المادّة والطبع ، الممتلك لقابليّة المادّة والهيولى الأُولى .

لذلك فإنّ الصور جميعها تنعكس في عالم المفارقات والموجودات العلويّة الملكوتيّة ، فكلٌّ منها بالنسبة إلى الآخر كموضع التجلّي الآخر بالنسبة إلى الأوّل ، فلكلٍّ ظهور وتجلٍّ في الآخر ، وكلّ منها مظهر ومجلى لأنوار قدسيّة أُخرى .

١ـ يقول : كلّ نَفَس منه لطفٌ بي أنا صاحب القلب المحترق الواله ، فانظر إلى هذا الشحّاذ كيف صار جديراً بإنعام كهذا .

يجب عليّ التسليم لحدّ سيفه راقصاً جذلاً ، فمن صار قتيله كان محمود العاقبة .

تعلّق القلبُ من بئر غمازتك بتجعدّات زلفك ، ولكن ـ آهٍ ـ فقد خرج من البئر ليسقط في الفخّ .

٢ـ «شرح المنظومة» طبعة ناصري ، ص ١٩١ .

ويقول السبزواريّ في شرح هذه الأشعار :

فَهِيَ كَالْمَرَائِي الْمُتَعَاكِسَاتِ ، هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَالَ أرسطاطاليس : وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي الْعَالَمِ الْأَعْلَى كُلُّهَا ضِيَاءٌ ؛ لِأَنَّهَا فِي الضَّوْءِ الْأَعْلَى ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَرَى الْأَشْيَاءَ فِي ذَاتِ صَاحِبِهِ ؛ فَصَارَ لِذَلِكَ كُلُّهَا وَالْكُلُّ فِي الْوَاحِدِ ؛ وَالْوَاحِدُ مِنْهَا هُوَ الْكُلُّ ؛ وَالنُّورُ الَّذِي يَسْنَحُ عَلَيْهَا لَانِهَايَةَ لَهُ ، هَذَا كَلَامُهُ .[1]

ثمّ يقول السبزواريّ في الحاشية بعد بيان هذا المطلب :

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ فِي الْعُقُولِ الَّتِي هِيَ فَوَاتِحُ كِتَابِ التَّكْوِينِ يَتَحَقَّقُ فِي الْعُقُولِ الَّتِي هِيَ خَوَاتِمُهُ ؛ كَعُقُولِ إِخْوَانِ الْحَقِيقَةِ وَالصَّفَا ؛ فَإِنَّهَا حَيْثُ كَانَتْ وَحْدَانِيَّةَ الْوِجْهَةِ وَالْعَقِيدَةِ ، مُتَّفِقَةَ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ، كَانَ كُلُّهَا فِي كُلِّهَا ؛ وَالْكُلُّ فِي الْوَاحِدِ ، وَالْوَاحِدُ مِنْهَا هُوَ الْكُلُّ .[2]

متّحد بـوديم و يک گـوهر هـمه بی سر و بی پا بُديم آن سر همه

يک گهر بوديم ، هم چون آفتاب بی گِره بوديم و صافی همچو آب

چون به صورت آمد آن نور سَره شد عدد چون سايه‌های کـنگره

کـنگره ويـران کـنيد از مـنجنيق تا رود فرق از ميان ايـن فـريق[3]

ونذكّر توضيحاً بأنّه كما كانت موجودات العالم العلويّ كلّها في البداية نوراً محضاً وضياءً صرفاً وخالصاً ، فإنّ النفوس الناطقة ووجود الإنسان ستصل ـ بدورها ـ إلى هناك في مراتب صعودها ومراحل تكاملها .

---

١ و ٢ـ «شرح المنظومة» ص ١٩١ .

٣ـ يقول : كنّا جميعاً جوهراً واحداً متّحدين ، مندمجين بلا رأس ولا قدم .

كنّا جوهراً واحداً ، كالشمس ، في صفاء لا يشوبه شيء ، كالماء .

ولمّا اتّخذ ذلك النور المحض طابع الصورة ، فإنّه تعدّد كظلال الشرفات .

فحطّموا الشرفات بالمنجنيق ، ليزول الفرق بين هذين الفريقين .

وسيصل هذا الإنسان ذو النفس الناطقة إلى حيث يشاهد جميع الموجودات ويراها منطوية في وجوده. فمن باب المثال افرضوا أنّ لنا ـ نحن المتحلّقين هنا ـ بدناً ومادّة. وهو أمر لا ريب فيه، إذ نملك يداً ورجلاً وعيناً نستخدمها لإنجاز أعمالنا، فنذهب ونرجع ويرى بعضنا بعضاً. ونحن لا ندرك بحواسّنا الظاهريّة شيئاً عن بعضنا غير هذا الهيكل الظاهر، إلّا أنّ حقيقتنا وواقعنا ليست هذا البدن، إذ إنّ لنا أفكاراً وإدراكات، فنحن نعرف أصدقاءنا ومعارفنا وندركهم في أذهاننا. وإذا قُدّر أن تكون لنا نورانيّة وصفاء، فإنّنا ما إن ننظر بأعيننا إلى الأصدقاء ونرى ظاهرهم، فإنّنا سنخبُر بجميع ما تختزنه عقولهم وأفكارهم وأذهانهم وحقائقهم وعقائدهم وصفاتهم ونواياهم.

ولو كنّا نحن وأصدقاؤنا موجودات متلألئة ومتشعشعة نورانيّة كهذه المرايا والبلّورات، بحيث لا يُحجب أيّ موجود عن حقائقنا وحقائق الموجودات الأُخرى، فإنّنا سندرك الكلّ، كما سيدرك الكلّ كلّ الكلّ.

إنّ العلّة في عدم اطّلاعي على علومكم، وفي عدم اطّلاعكم على علوم الأصدقاء، وفي عدم اطّلاعكم على ما في خارج هذا المسجد الذي تجلسون فيه، وعلى ما يُخبّئهُ الغد، تكمن في هذه الحجب المادّيّة. فإن أُزيل الزمان والمكان وتلاشى حجاب المادّة، فإنّ جميع الموجودات ستكون حاضرة الآن أمامكم، وستكونون حاضرين لأصدقائكم، وسيكون كلّ صديق حاضراً ومشهوداً لصديقه الآخر.

ولن يكون عندئذٍ من حجاب، ولا من موجود محجوب عن موجود آخر؛ وسيصل الإنسان ذو النفس الناطقة، إثر تكامل قواه وإمكاناته المودعة فيه، إلى حيث يدرك الموجودات برمّتها، وإلى حيث تصبح جميع حقائق العالم والعقول والصور والمعارف الإلهيّة منطوية في وجوده.

وكما كان الإنسان في أصل النشأة بسيطاً دون تعقيد، وكان في مكان

حيثُ الواحد الذي لا أحد غيره . لم يكن إلّا الله فحسب ؛كان هناك واحد وهو الله الواحد . ووحدته ليست عدديّة ، بل هي وحدة بالصرافة . وتبعاً لهذه المقدّمة فإنّ وجود الله المقدّس لم يدع غيراً في العالم ، ولم يكن في العالم موجود سواه . أجل كما كان الإنسان على ذلك النحو ، فإنّ عليه أن يعود بنفس الصورة إلى مقامه الأوّل .

ولمّا كان نور النفس الناطقة الموجود في عالم التوحيد ذا سعة وإحاطة في مقابل تشعشع أنوار الحضرة الأحديّة جلّ وعزّ . فقد تنزّل إلى عالم الصورة ، ثمّ إلى عالم المادّة فظهر في عالم الكثرة ، وصار متكثّراً كتكثّر النور الخالص حين يسقط على الشرفات التي تعلو البنايات فتنشأ منه هذه الاختلافات .

وهكذا فإنّ هذه الشرفات يجب أن تُحطّم بمنجنيق الهمّة الراسخة والإرادة المتينة ، وبطيّ طريق الله ، والورود في عالم تزكية النفس الأمّارة ، وبشدّ الرحال إلى لقاء الله . وينبغي لهذه الازدواجيّة والأنانيّة والاستكبار أن تدفن في مقبرة النسيان ، ليعود الإنسان من جديد إلى مقام التوحيد والصفاء والطهارة التي كانت له أوّل خلقه ، وليرجع كما كان جوهرة متلألئة وهّاجة ، ويصبح كالشمس الساطعة ، مركزاً لبثّ النور في العوالم ويكون محيطاً بها . علينا أن نرجع شئنا أم أبينا ، فالمعاد أمر لا مناص منه . ولكن لو تحرّكنا طوع إرادتنا ، فما أروع ذلك وما أثمنه !

غلام همّت آنم كه زير چرخ كبود
زهر چه رنگ تعلّق پذيرد آزاد است[1]

١ـ عدّة أبيات من قصيدة غزليّة لحافظ الشيرازيّ؛«ديوان حافظ» طبعة پژمان، ص١١.
يقول : تأسرني همّة مَن تحرّر من كلّ ما يمكن أن يُتعلّق به تحت هذه السماء الزرقاء .

ترا ز كنگرهٔ عرش مى‌زنند صفير
ندانمت كه در اين دامگه چه افتادست
كه اى بلند نظر شاهبازِ سدره نشين
نشيمنِ تو نه اين كُنجِ محنت آباداست[1]

وما أجمل ما مثّل سعديّ الشيرازيّ به مقام ومنزلة الإنسان في غزله الوعظيّ المشهور:

تن آدمى شريفست به جان آدميّت
نه همين لباسِ زيباست نشان آدميّت
اگر آدمى به چشم است ود هان و گوش وبينى
چه ميانِ نقشِ ديوار و ميانِ آدميّت
خور وخواب وخشم وشهوت شَغَبست وجهل وظلمت
حَيَوان خبر ندارد ز جهانِ آدميّت
به حقيقت آدمى باش و گر نه مرغ باشد
كه همين سخن بگويد به زبان آدميّت[2]

١ـ يقول: فهم ينادونك من شرفات العرش قائلين: ما الذي اجتنيته في هذه الأُحبولة والمصيدة؟

ويا أيّها الصقر ذو النظر الثاقب، المستقرّ في سدرة المنتهى، ليس مأواك هذه الزاوية المبنيّة بالمحنة.

٢ـ «كلّيّات سعدي» طبعة فروغي، قسم مواعظ سعدي، ص ١٢٢.

يقول: إنّ الإنسان شريف بروحه البشريّة، وليس هذا الرداء الجميل علامة البشريّة.

فإن كان الإنسان إنساناً بعينه وفمه وأُذنه وأنفه، فما الفرق بينه وبين الصورة على الجدار؟

الأكل والنوم والغضب والشهوة شغب وجهل وظلمة،و هي للحيوان والغافل عن عالم البشريّة! فتمثّل بحقيقة البشر، و إلّا كنت طيراً يتكلّم هذا الكلام بلسان البشر.

مگــــر آدمـــــی نـــبودی کـــه اســـير ديـــو مـــاندی

کــــــه فـــرشته ره نــــدارد بـــــه مکـــــان آدمــــيّت

اگــــر ايــــن درنـــــده خــــوئی ز طـــبيعتت بـــميرد

هـــمه عُـــمر زنـــده بـــاشی بـــه روانِ آدمــــيّت

طَـــيَرانِ مـــرغ ديـــدی تـــو ز پـــای بـــندِ شـــهوت

بـــدر آی تــــا بـــينی طَـــيَرانِ آدمــــيّت

نــه بـــيانِ فـــضل کـــردم کـــه نـــصيحتِ تـــو گـــفتم

هــــم از آدمـــــی شـــنيدم بـــيان آدمــــيّت[1]

وكما قلنا فإنّ المعاد ضروريّ ، **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ، إذ إنّنا جميعاً ملك مطلق للّه ، ونحن الراجعون إليه تعالى . فأيّ عالم هو ذلك العالم ؟ هو عالم الظهور والبروز . **يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ** ؛ والسرائر جمع السريرة وهي موضع السرّ ، أي يوم تنكشف القلوب والبواطن ، ويوم ينكشف سرّ الإنسان وباطنه وكمون نفسه ونيّته وتتّضح جهاراً .

يُقال إنّ **الهدهد** له نظر حادّ بحيث إنّه يحلّق في السماء ويرى الماء في طبقات الأرض السفلى ، إلّا أنّنا لا نستطيع رؤية الماء . وهكذا فإنّنا حين نريد الحصول على الماء فإنّنا نحفر الأرض ؛ وما أكثر ما حصل أن

١ـ يقول : ألم تكن إنساناً حين بقيت أسير الشيطان ؟ بينما ليس للمَلَك سبيل إلى محلّ البشر .

إذا ماتت في طبعك هذه النزعة الوحشيّة ، عشت طوال العمر بروح البشر .

يصل الإنسان إلى موضع لا يرى فيه أحداً إلّا الله ، فانظر إلى أيّ حدّ وصلت منزلة البشر !

لقد رأيتَ طيران الطيور ، فاخرج من أغلال الشهوة لترى طيران البشريّة !

لم اتفضّل بنصيحتي لك ، فقد سمعنا من الإنسان بيان الإنسانيّة .

حفرنا ونقّبنا فلم نعثر على الماء فأُجبرنا على التفتيش عنه والحفر في أماكن أُخرى .

أمّا نظر الهدهد فلمّا كان حادّاً ثاقباً ، فإنّ الأمواج التي يعكسها شعاع نور عينه تخترق طبقات الأرض فتصل إلى الماء ،[1] وهو من خصائص الهدهد .

إنّنا نفتح أعيننا اليوم فلا نرى إلّا الشخص الذي يواجهنا ، لكنّ الله سبحانه يقول لرسوله : **فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** .[2] إنّ نظرك اليوم حادّ ثاقب حديد . إنّنا كشفنا الحجاب عن عينيك فصرتَ ترى ما لا يراه الآخرون ، وتطّلع على الظاهر والباطن ، والشهادة والغيب ، والذهن والعقيدة ، والفكر والنيّة ، وكلّ الماضي والمستقبل ، وماكان وما يكون وما هو كائن .

فلماذا ... ؟ وما السبب ؟ إنّه قوله تعالى : **وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** ؛ لقد أشرقت أرض قلب رسول الله وسرّ نفسه وصقعها بإشراق نور ربّه .

يحدث أحياناً أن تشرق أرض الخارج عند إشراق الشمس ، ويحدث حيناً آخر أن تشرق أرضيّة القلب ـ وهي أرض أيضاً ـ بنور الله تعالى . ففي القيامة تُنار أرض القلوب وتظهر السرائر والمخفيّات ، وتنير مقابل إشراق نور الله وبنور الله .

وجملة القول إنّنا نتحرّك من هنا فنذهب إلى ذلك العالم، حيث لا مادّة هناك ، وحيث الجميع سواسية لا فرق بين المؤمن والمشرك والمنافق ،

١ـ وفي ضوء العلوم الجديدة هذا اليوم ، فإنّ شعاع الأجسام من الطبقات الأرضيّة يصل إلى عين الهدهد .

٢ـ من الآية ٢٢ ، من السورة ٥٠ : ق .

والرجل والمرأة ، ولا بين الشرقيّ والغربيّ . وعلى من شاء الذهاب إلى ذلك المكان أن يترك البدن في القبر فيحلّق إلى ذلك العالم . والموت مكتوب على الجميع ، وعليهم أن يتركوا عالم المادّة وراء ظهورهم ، ويمزّقوا حجاب الزمان والمكان ، ويرحلوا إلى مكانٍ مجرّد من المادّة ، إلى مكانٍ يستبين فيه كلّ شيء .

وإذا ما شاء الإنسان أن يفعل شيئاً في هذه الدنيا ، فعليه أن يعلم أنّ القيامة هي عالم البروز والظهور ، وأنّ عمله هذا سيظهر ويتجلّي أمام أنظار الخلائق .

وهنا يخاف الإنسان إذا فعل شيئاً أن يعرف به أبوه أو أُمّه أو أخوه أو رفيقه ، لذا يسعى دوماً لإخفاء عمله وإبقائه طيّ الكتمان . أمّا هناك **فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** ، إذ إنّ كلّ شيء سيكون حاضراً ومشهوداً .

إنّ أبصار موجودات العالم العلويّ حديد ، فما أن يفعل الإنسان شيئاً ويحاول إخفاءه ، فإنّ عمله هذا ومحاولة إخفائه سيكونان حاضرين مشهودين بأجمعهما . سيحضر العمل ومعه ذلك المكر والخداع الذي دبّره وأراد به إخفاء فعله . ووا ويلاه إذَن ! إذ لم يكن الإنسان يتوقّع أو ينتظر أن يصبح عمله مشهوداً للخلائق ، فها هي الحيلة النفسيّة في الإخفاء قد تجسّدت بجلاء ، ناهيك عن العمل نفسه .

هنالك يعضّ الإنسان على أصابعه ندماً ، هنالك : **خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** . فوا عجباً أين كُنّا ؟ وإلى أين جيء بنا ؟ لقد تصوّرنا في مكاننا الأوّل أنّ كلّ شيء مخفيّ عن كلّ شيء ، فجيء بنا إلى حيث نرى أنّ جميع الموجودات مشهودة لجميع الموجودات . صار الأمر معكوساً تماماً ، فلقد تبدّل سنخ العالم وتحقّق قوله : **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ، واتّضح قوله : **وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** .

وليس هذا الإشراق كإشراق الشمس الذي ينير الأرض ، بل هو إشراق آخر ، فما الذي يهمّنا يا ترى لو أنارت هذه الشمس سطح الأرض كلّه ، أو ما تحت الأرض ، أو أنارت النصف الآخر من الكرة الأرضيّة فرضاً ؟ وأيّ أثر سيتركه ذلك في أبصارنا ؟

إنّنا نرى مسافة معيّنة محدودة بقدر مدى نور أعيننا ؛ أمّا تلك الشمس التي تضيء بنور ربّها أرضَ القلب والنفس والقيامة فهي شمس أُخرى . تلك هي شمس الولاية التي تطلع بنور ربّها فتضيء الأرض إلى تخومها السفلى ، وتنار بها الأذهان ، وتتلألأ النفوس والعقول ويشرق بها سرّ النفس الناطقة وحقيقتها . ومَثَل ذلك تماماً كمثل كرة بلّوريّة في يدكم ترون داخلها ، وترون ظاهرها وباطنها ، وليس لها ظاهر وباطن آخر . كما أنّ الحور هناك **كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ** مضيئة ومشرقة .

هذه هي كيفيّة طلوع نور الولاية في عوالم الغيب وظهور القيامة الأنفسيّة . **وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا .**[1]

إنّ أبواب السماء مغلقة الآن فليس لدينا ثمّة خبر من الغيب ، بَيدَ أنّها تُفتَح يومئذٍ فيكون التردّد عبرها مُباحاً ، قد أُزيلت منها لافتات منع المرور والدخول ؛ وإذا ما ذهبتم إلى السماء فإنّكم ستطّلعون على كلّ شيء .

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .[2]

إنّ الأرض الترابيّة المادّيّة المخلوقة على أساس الثقل والكثافة تُبدّل إلى أرض نورانيّة ، فتصبح الأرض والسماء بلّوريّتين . ومن الطبيعيّ أنّ

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٢ـ الآية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

وصفهما بالبلّوريّة وصف منّي قد أوردته للتشبيه ، بَيدَ أنّه ليس هناك عنوان للبلّور .

الجميع أُذن ، وعين ، وفَهم وإدراك ، وطاعة وانقياد ، أمّا الآن فمهما قيل للإنسان إنّ الله حاضر فهل سيصدّق يا ترى ؟

لو قيل لمسجون قضى مدّة في السجن لم ير خلالها نوراً : لقد طلعت الشمس فأنارت الأرض بحيث لم يعد فيها نقطة مظلمة ومبهمة ! فإنّ تصديق ذلك سيكون عسيراً عليه . أمّا حين يُكسر باب السجن ويطلق هذا السجين فيرى نفسه ـ من شدّة الضياء ـ مدهوشاً بهذا الإشراق والنور ، فإنّه لو أُقسم له بأن ليس هناك شمس ولا نور ، لما صدّق ولقال : إنّ الإخبار عن الظلام مع وجود الرؤية والوجدان والشهود أمر خاطئ غير مقبول .

وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .[1]

إنّ الناس يتصوّرون أنّ الحياة والعيش بمعنى النوم والشخير والتنفّس ، وأنّ من يتنفّس فهو حيّ ، فإن انقطع نَفَسُه كان ميّتاً ؛ إلّا أنّ الحياة ليست كذلك . الحياة هي الإدراك المحض ، والعقل المحض ؛ الحياة هي العيش بلا موت . إنّ حياتنا نحن الذين نعيش على الأرض هي توأم الموت ، ليس بسبب الموت الذي سيدركنا ، بل لأنّنا في حال خَلْع ولبس دوماً . أي : أنّ لنا موتاً وحياةً . فبدننا في حركة دائبة دائماً تدور بين الحياة والموت ، والوجود والعدم ، فنحن نسير من الوجود إلى العدم ، ومن العدم إلى الوجود ؛ نموت ونحيا باستمرار . وشرح وتفصيل هذا المختصر يحتاج إلى مجال واسع . إلّا أنّنا نقول إجمالاً إنّ حياتنا الحاليّة ليست حياة محضة وخالصة ، بل حياة مخلوطة بالموت ، تُشبه مثقال ذهب خُلط بمثقال من النحاس

ــــــــــــــــ

١ ـ النصف الثاني من الآية ٦٤ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

فصيغت منهما حِلية ما ، وفي كلّ ذرّة ذهب ذرّة نحاس ، فهما متجاورتان . أمّا حين يضع الصائغ هذا المخلوط في البوتقة فيصهره ويفصل الذهب الخالص ، فإنّ كلّ ذرّة من الذهب ستكون ذهباً خالصاً .

وهكذا فإنّ حياتنا في هذه الدنيا ليست حياة محضة ، وليست حياة عقليّة صرفة ، ونحن لا نتمتّع بالأرزاق المختصّة بالنفوس الناطقة القدسيّة والأنوار الإلهيّة ، إذ إنّ هذه الحياة توأم اللهو واللعب ، اللعب بالأوهام والخيالات ، وتعشّق الجيفة والميتة ، وبدننا في حال تغيّر وتبدّل دائمين .

أمّا حياة ذلك العالم ، فحياة صرفة لا موت فيها ولا نوم ولا سِنة ، ولا لهو فيها ولا لعب ولا لغو ؛كما أنّها ليست بطلاناً ومجازاً .

إنّنا ننام هنا فنفقد إدراكاتنا ، أمّا هناك فنحن إدراك محض وعلم محض . وهذه المزعجات والمنغّصات التي تزعجنا هنا ناشئة عن ضعف في درجة الحياة ، أمّا هناك فلذّة ومسرّة محضة : **وَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ** .

ثمّ إنّ العلوم والمعارف الإلهيّة المكتسبة معنا بأجمعها يوم القيامة ، فهي ليست قابلة للنسيان ولا يطرأ عليها الخطأ والسهو والاشتباه . الحياة هناك لها فَوَران ، واللذّة والسرور والبهجة لها فَوَران ، والعالم هناك عالم بسيط مملوء بالنور والإشراق .

وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ .

حيث تطهر الأرض وتشرق وتتمهّد . وإنّ في باطن الأرض الآن أشياء كثيرة غير الأرض نفسها ، فإذا شئنا تطهيرها وتصفية قابليّتها وتنقيتها من غيرها ، فعلينا أن نطرح كلّ ما كان غيرها . وهكذا الأمر بالنسبة إلى نفس الإنسان . ففيها أشياء كثيرة من غير حقيقتها . هناك ثعبان ، وعقرب ، وحيوانات مفترسة ، وصور شيطانيّة ، وهناك خيالات وأوهام وآمال لا أساس

لها ولا أصالة . وهذه الأُمور قد اصطفّت في نفس الإنسان متأهّبة للقتال والمنازلة مع جنود العقل الذين لا يبارحون النفس . والحرب فيها قائمة مستمرّة بين الأُمم الاثنتين والسبعين وبين أُمّة العقل ، وهي قائمة على الدوام بين جنود الشيطان وجنود الرحمن . وهذه كلّها يجب تطهيرها وتصفيتها .

فيُقتل جنود الشيطان ، وتُسحق الأفاعي والعقارب ، وتُقطع رؤوس الحيّات ، كما يجب كنس جميع الخيالات ونفي الخواطر قاطبة استهداءً بالأسماء الإلهيّة ، وتصفية الذهن وتنزيهه . وجَعْل القلب بحضور وانتباه كامل مقابل الأنوار الإلهيّة ليكتسب المعارف الإلهيّة كالمغناطيس .

وخلاصة القول انّ أرض القلب يجب أن تطهّر من كلّ ما عدا الحقيقة البسيطة للنفس الناطقة المشرقة بنور الله ، فإن لم تخرج باختيارها ، فإنّها ستُلقى خارجاً بمشقّة وعسر ، وذلك عند سكرات الموت ، وسؤال منكر ونكير وأنواع العذاب البرزخيّ وشدّة نفخ الصور ، ذلك أنّ الجنّة محلّ المطهّرين المنزّهين .

وقد روي في «تفسير عليّ بن إبراهيم» وهو من كبار المحدّثين والمفسّرين ، ويُعدّ مقدّماً على الشيخ الكلينيّ ومن مشايخه في الحديث ، عن الإمام زين العابدين عليه السلام في تفسير الآية المباركة :

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ .[1]

قَالَ عَلَيهِ السَّلَامُ : يَعْنِي بِأَرْضٍ لَمْ تُكْتَسَبْ عَلَيْهَا الذُّنُوبُ بَارِزَةً لَيْسَ عَلَيْهَا جِبَالٌ وَلَا نَبَاتٌ كَمَا دَحَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَيُعِيدُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ كَما كَانَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، مُسْتَقِلّاً بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ .[2]

١ـ النصف الأوّل من الآية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢ـ «رسالة مخطوطة في المعاد» للعلّامة الطباطبائيّ ، ص ٢٧ .

أي :كماكان عرش الله على الماء في أوّل الخلقة ، قال تعالى :
وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ .[١]

والمقصود بعرش الله إرادة ظهور بناء الخلقة الشامخ والمشيئة في إيجاده ، أي : الحياة المحضة والقدرة المحضة ، ثمّ إنّ تلك القدرة والعظمة ظهرت في عالم الكثرة بصور مختلفة ، وظهر عالم الكثرة هذا بواسطة التجلّيات الإلهيّة . ثمّ إنّ هذا العالم سينطوي مرّة أُخرى فيتحرّك الإنسان نحو عالم الحياة والقدرة المحضة .كما أنّ الموجودات جميعها تعود إلى أصلها ، فليس هناك من أحد غير الله وقدرته وعظمته ، **وَلَيْسَ فِى الدَّارِ غَيْرَهُ دَيَّارٌ** .

هنالك سيفهم الإنسان :
لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .[٢]

وقال سماحة أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظله في تفسيركلام الإمام السجّاد (**مُسْتَقِلّاً بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ**) : تفسير لكون عرشه على الماء ، وله شواهد من الكتاب تدلّ على أنّ الماء إشارة إلى منبع كلّ حياة وقدرة وعظمة ، إن تمحى نقوش الخلقة ظهرت الموجودات ، وإذا انمحت عاد العرش على الماء .[٣]

هذا هو معنى قوله تعالى **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ**، إذ إنّ الموجودات ستعود فتجد عظمة الله تعالى وعلمه وقدرته .

وخلاصة القول ، فإنّ هذه المطالب جاءت لإقرار الإنسان واعترافه

١ـ مقطع من الآية ٧ ، من السورة ١١ : هود .

٢ـ النصف الثاني من الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٣ـ «رسالة مخطوطة في المعاد» للعلّامة الطباطبائيّ ، ص ٢٧ .

أنّ الله العظيم القدير واحدٌ أحد ، لا تدخّل ولا تصرّف لأيّ موجود في حكومته المطلقة ، لا أنّه كان مستقلاً في العظمة والقدرة أوّل الخليقة ، ثمّ يصبح ممتلكاً لهما من جديد عند المعاد وعودة الموجودات ؛ وإذا ما ظهرت في غضون ذلك نقوش الكائنات وارتدت الماهيّات رداء الوجود ، فإنّ قدرته وعظمته ستقلّان ، أو أنّ استقلاله سيتصدّع وينهار ، أو أن غيره في صدد منازعته ومشاركته في هذه الصفات . ثمّ إنّ تلك الشركة ستُفسخ عند الرجوع والعودة ، فتستبدل المصالحة بالمنازعة .

ليس الأمر كذلك أبداً ، وإن كانت أذهان العوامّ مشحونة بهذا المعنى ، لكنّ هذا يمثّل شركاً يجب تصحيحه ؛ ولقد كانت جهود الأنبياء والمرسلين والأئمّة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين لمحاربة أمثال هذا الشرك ، وعندما كانوا يدعون الإنسان إلى هذه النقطة من التوحيد ، فإنّه كان يفرّ ويتمرّد ويهرب هنا وهناك .

نفس اژدرهاست او کی مرده‌است از غم بی آلتی افسرده است[1]

وقد يحدث أحياناً أنّ الفأر يتورّط ويقع ذَنَبه في شرك المصيدة ، فيقول «سلّمنا وآمنّا» ، ويكل أُموره إلى الله ، لكنّه بمجرّد أن يُفرج عنه ويُرفع عُسره فإنّه يرجع إلى حالته الأُولى في الغفلة .

إنّ الإنسان يتوجّه نحو التعاليم الدينيّة دفعاً للآفات والعاهات ، فيقرّ بوحدانيّة الله ويقول مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . أمّا في القيامة حيث يزال الستار عن هذه الحقيقة ، فإنّه يقرّ بمالكيّة الله وملكيّته بروحه وسرّه وعقله ولسانه ونفسه ويقول : **آمَنَّا وَصَدَّقْنَا** .

١ـ يقول : النفس كالتنين ، فمتى ماتت يا ترى ؟ لقد كانت خاملة كئيبة للفاقة وانعدام الوسيلة .

نحن اليوم نرى بعضنا بعضاً أوّلاً ، ثمّ نرى الله ، وننظر إلى الموجودات والآثار بادئ بدء ثمّ نستدلّ على وجود الله وإتقان صنعه . أمّا هناك فالأمر على العكس . حيث يقع النظر على الله وصفاته أوّلاً . ثمّ يقع بالتبع على الموجودات . وسيكون مشهوداً أنَّالأرض في قبضة الله تعالى ، وهي إذ ذاك أرضٌ مشرقة نورانيّة .كما سيكون مشهوداً أنّ السماوات مطويّات في يد قدرته . أي : أنّ المُلك والملكوت ، والأرض والسماء ، وعالم الغيب والشهادة ، والظاهر والباطن ، والدنيا والآخرة ، والجسم والروح كلّها جميعاً في قدرة الله مقهورة مشهودة بالمقهوريّة .

إنّ الامتحانات والابتلاءات التي يبتلي الله سبحانه بها الناس هي من أجل الإقرار والاعتراف بهذه المسألة ، لا من أجل أن ينكشف للّه أمرٌ ما .

الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .[1]

إنّ الناس سيُمتحنون ويُفتنون ليتّضح لهم أنّ القول باللسان دون اعتقاد وإيمان قلبيّ ليس مثمراً .

فجليّ للّه وواضح مَن هو المؤمن ومَن هو الكافر ؟ ، فلا حاجة له في الابتلاء ، ولكنهم يُمتحنون ويُفتنون من أجل أن لا يدّعوا الإيمان الكامل ، ولئلّا يعدّوا أنفسهم في مصافّ سلمان الفارسيّ أو في مرتبة جهاد عمّار بن ياسر وأبي ذرّ الغفاريّ ، ولتتّضح لهم درجتهم ومنزلتهم وتصبح مشهودة لديهم .كذلك فإنّ ظهور سائر أسماء الله وصفاته في القيامة هو من أجل إقرار واعتراف المنكرين ، لا لتحقّق هذه الصفات نسبة إلى نفس ذات الباري تعالى شأنه العزيز .

إنّ الإنسان محبوس في هذه الدنيا خلف الحجب الظلمانيّة والنورانيّة ،

١ـ الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

لكنّه حين يتحرّك ويتعرّف على موجودات العالم العلويّ ، ويأنس بتلك الصور **العَارِيَة عَن الْمَوادّ الْعَالِيَة عَنِ القُوَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ** ، فإنّه سيرى أنّ ذلك العالم كلّه نور . فهو أوّلاً نور أزليّ وأبديّ أشرق على الموجودات ؛ أي : على تلك الموجودات الملكوتيّة التي هي روح محض بلا صورة ، والأعلى من الكمّ والكيف . ذلك أنّ الصورة تتعلّق بعالم المثال والبرزخ ، أمّا هناك فعالَمٌ لا صورةَ فيه يفوق عالم المثال . هناك عالم ذو معانٍ مجرّدة وبسيطة وحقائق بحتة وصرفة .

ثمّ إنّ ذلك النور تنزّل من هناك وجاء إلى عالم الصورة ، فصار مشهوداً للإنسان كيف قد أشرق النور على الأسماء الجزئيّة ، ومن ثَمّ على الأسماء الأقلّ جزئيّة ، ووصل إلى جميع ملائكة عالم الصورة ، حيث كان للعوالم : الواحد بعد الآخر حظّ من نور الله تبعاً لسلسلة مراتبها المنظّمة ، ثمّ انتشر من العوالم العلويّة إلى النفس الإنسانيّة ، ومنها إلى العوالم الأدنى .

وهنا يتجلّى لنا كلام مولى الموالي في هذا الحديث الشريف الذي سبق ذكره :

وَإِذَا اعْتَدَلَ مِزَاجُهَا وَفَارَقَتِ الْأَضْدَادَ فَقَدْ شَارَكَ بِهَا السَّبْعَ الشِّدَادَ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا .[1]

ويُستفاد منه أنّ القصد من خلق السماوات والأرض معرفة الإنسان وإقراره بسعة قدرة الله وإحاطة علمه تعالى شأنه .

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .



المجلس الثاني والثلاثون

الكفار والفجار محجوبون في القيامة في عين النور والإشراق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

إلى قوله تعالى :

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .[١]

دار البحث في أنّ ذلك العالم هو عالم الإشراق وعالم النور ، لذا فإنّ أيّاً من موجوداته ليس محجوباً عن الموجود الآخر ، وأنّ كلّ شيء ظاهر وبارز لكلّ شيء .

ويُثار هنا سؤال مفاده : ما هي حال أهل المعصية والشقاء والكفر الذين يرحلون عن هذه الدنيا إلى ذلك العالم ، ويحلّ عليهم هناك غضب الله فيبتلون بنار جهنّم جزاءً وفاقاً على أعمالهم ؟ هل يكون وجودهم نورانيّاً ومشرقاً ، أم مظلماً مع أنّ العالم هناك عالم النور والإشراق ؟

١ـ الآيات ٦٧ إلى ٦٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

وإذا كان وجودهم نورانيّاً فما الذي سيعنيه العذاب والابتلاء والوقوع تحت تأثير أسماء الله الجلاليّة ؟

وإذا كان وجودهم ظلمانيّاً ، مع فرض أنّ سنخ ذلك العالم نور وإشراق وظهور وبروز ؛ فكيف يكون لوجودهم الظلمانيّ سنخيّة مع عالم النور والإشراق ذلك ؟

والإجابة عن هذا السؤال هي :

أنّ الأفراد الذين يرحلون عن هذه الدنيا ، يرحلون عنها بما اكتسبوا فيها :

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ .[1]

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ .[2]

ومن ثَمَّ فإنّ أيّ درجة ينالها الإنسان في ذلك العالم ، إنّما ينالها إثر الأعمال التي قام بها هنا . كلّ ما في الأمر أنّ تلك الأعمال قد ظهرت وبرزت هناك جليّة . وإذا ما كان للإنسان ترقٍّ في عالم البرزخ أيضاً ، أو كُتب في صحيفة أعماله شيء بعد موته ، فإنّه في آخر المطاف نتيجة أعمالٍ قام بها في الدنيا وكان لها آثار واقعيّة ؛ وإلّا فإنّ ذلك العالم في حدّ نفسه ليس عالماً للعمل .

اَلْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ .

فالإنسان كان له عمل في الدنيا ، سواء كان عملاً صالحاً أم طالحاً ، فإنّ كلّ نيّة كانت له ، وكلّ غريزة تسوقه إلى جهةٍ ما ، وكلّ عقيدة ضمّ عليها جوانحه كلّ أُولئك سيكون قابلاً للتغيير إلى وقت الموت ، أمّا حين يموت

١ـ مقطع من الآية ٢٨٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآيتان ٣٩ و ٤٠ ، من السورة ٥٣ : النجم .

فإنّ نفسه تُختم، وكتاب عمله يُغلق، فيحاسَب هناك على أساس ما عمل في الدنيا.

أمّا الذين لم يتّجهوا في هذه الدنيا بحثاً عن المعارف الإلهيّة، ولم يعرفوا الله سبحانه، وتحرّكوا في اتّجاه معاكس للغرائز والفطرة الموهوبة من قبل الله تعالى، وساروا في جهة منحرفة كانوا من أهل الشقاء والظلم والذنوب، وكما كانت روحهم ظلمانيّة عديمة النور محجوبة عن الحقيقة في هذه الدنيا، فستكون هناك أيضاً بلا نور.

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ.[١]

ومن كان بلا نور، فما له من نور؛ وأنّ «زيد بن عمرو هو زيد بن عمرو» سواءً كان في المسجد أم الشارع أم المنزل أم مكان آخر.

وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.[٢]

وليس المراد بالعمى عمى العين الظاهريّة، إذ ليس لهذه الأعين عمى يوم القيامة، فقد جاء في كتاب المعارف الإلهيّة: القرآن الكريم أنّ هؤلاء الأفراد العُمي هُنا لا يُعدّون هناك عُمياناً:

إِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ.[٣]

إلى أيّ درجة الإبصار المعنويّ مهمّ جدّاً، وذلك العمى مهمّ أيضاً، بحيث إنّ بصيرة القلب والإبصار الأُخرويّ وذلك العمى الروحيّ والعمى الأُخرويّ أُمور يؤبه لها، ولا يعدّ هذا العمى الظاهريّ عمىً قياساً بذلك العمى.

١ـ المقطع الأخير من الآية ٤٠، من السورة ٢٤: النور.

٢ـ الآية ٧٢، من السورة ١٧: الإسراء.

٣ـ النصف الثاني من الآية ٤٦، من السورة ٢٢: الحجّ.

يقول القرآن الكريم إنّ هذه الأعين لا تعمى ، بل إنّ العمى يصيب ذلك القلب الذي في الصدور ، وهو الذي فقد ـ أثر انغماسه في الشهوات ـ إدراكاته ومعارفه ونظرته الواقعيّة ، فصار أعمى .

العمى للقلب الذي لا يدرك الحقائق والأُمور الواقعيّة ، ويتخبّط في الأوهام والأباطيل . لذلك فإنّ من كان أعمى البصيرة في الدنيا ، فهو أعمى البصيرة في الآخرة أيضاً .

وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ .

إنّ من لم يكحّل عيني بصيرته بكحل الهداية ، ولم يدرك أسرار العالم ، ولم يرتبط بالله سبحانه ، ولم يعتمد على الذات الأزليّة الأبديّة ، وسار نحو هوس النفس والهواجس الوهميّة ،فأعمى بذلك بصيرة قلبه هنا ، فهو هناك أعمى ومحجوب أيضاً .

أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .[1]

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ .[2]

كلّا ليس كما يتخيّلون أنّ آيات الله أساطير الأوّلين وخرافات السابقين ، وليس كما يكذّبون بحقائق الآيات الإلهيّة ويعدّونها كذباً وافتراءً ، بل إنّ أعمالهم القبيحة وسلوكهم السيّئ على تواتر الأيّام سبّبا الكدر والدنس والرين على قلوبهم .

كلّا ، ليس كما يتصوّرون أنّ لهم مقام القرب في الآخرة كذلك ، وأنّهم حين عاشوا في هذا العالم عيش المستكبرين ، فسيعيشون بالملازمة

١ـ المقطع الأخير من الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآيتان ١٤ و ١٥ ، من السورة ٨٣ : المطفّفين .

في رفعة ورفاهيّة هناك . بل هم محجوبون عن ربّهم يومئذٍ ، محجوبون وعُميان . والعلّة في ذلك غلبة الرين على قلوبهم . والرين بمعنى الدنس واللوث ، فهذا الرين هو الذي حجب قلوبهم فمنعها من لقاء الله تعالى ، وحبسها في المحجوبيّة .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ .[1]

هذه الأقفال تمنع التدبّر والتفكّر وإدراك المعاني الحقيقيّة للقرآن ، وهي حجاب وستر يطبق على القلوب فيمنع ظهور الحقائق وتجلّيها فيها . إنّ الأقذار حين تغطّي المصباح ، فإنّها تمنع نفوذ النور الباطنيّ إلى الخارج ، فيُحبس ذلك النور الداخليّ الباطنيّ ، ومع أنّ المصباح يكون مضيئاً ، إلّا أنّ البيت ـ مع ذلك ـ سيبقى مظلماً معتماً .

وهكذا الحال بالنسبة إلى مصباح قلب الإنسان ، إذ يُحجب ويُستر ويتّسخ إثر الهوى والهوس والمعاصي والأفكار الشيطانيّة ، فلا يدع القلب يفكّر ويتدبّر في الآفاق والأنفس ، أو يعتبر من عالم الخلقة ، أو يفطن من الآيات الإلهيّة إلى وجود الصانع الحكيم .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ .[2]

والمعيشة الضنكى هي المعيشة الشاقّة العسيرة المقرونة بالابتلاء ، وهي عاقبة الإعراض عن ذكر الله سُبحانه . ومهما امتلك الإنسان أموالاً وثروة طائلة ، إلّا أنّ حياته مقرونة بالقلق وتشويش البال والابتلاءات

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

٢ـ الآيات ١٢٤ إلى ١٢٦ ، من السورة ٢٠ : طه .

وانعدام بركة العمر والثروة والولد ، إذ يبتلى المرء بضغط الاضطرابات الروحيّة وهجوم الخواطر المزعجة والأفكار الشيطانيّة .

ولعلّه يمتلك قدرة وإمكانيّة وثروة تعادل الملايين ، إلّا أنّه لا يتمكّن من تناول طعام هانئ بلا تشويش ، ولا أن ينام نوماً مريحاً بفراغ بال ، أو يتنفّس نفساً مريحاً هادئاً ، وهذا كلّه من نتائج الإعراض عن ذكر الله تعالى . إنّ من يُعرض عن الارتباط بالله وذكره سبحانه ، ويشيح عن الاعتماد عليه تعالى ؛ فإنّ معيشته الدنيويّة تتمخّض بالمحن والمصائب ؛ هذا في الدنيا .

أمّا في الآخرة فإنّ العمى سيكون نصيبه ، لذا يخاطب الله تعالى في مقام السؤال أو الاعتراض : لقد كنتُ بصيراً في الدنيا ، فَلِمَ حشرتني أعمى هنا ؟

بَيدَ أنّ هذا المسكين لا يعلم أنّ هذا العمى الأُخرويّ هو غير عمى العين المبصرة في الدنيا ، إذ يتصوّر أنّ كلّ من كانت له في الدنيا عينٌ ظاهرةٌ ، فإنّه ينبغي كذلك أن يكون في الآخرة بصيراً . لذا يسأل مثل هذا السؤال متعجّباً . فيجاب بأنّ تلك العين المادّيّة والبصر الواقع في الرأس غير هذه العين المعنويّة والبصر الواقع في القلب .

أنّ باطنك أعمى اليوم ، لأنّك أعميته في الدنيا ، ونحن لم نتجنّ عليك ، بل حشرنا بصيرتك العمياء عمياء . ولقد أتتك آياتنا فنسيتها ولم تفتح عين بصيرتك لتراها ، فها هي اليوم عين بصيرتك مغلقة محجوبة ، فأنت في زمرة العميان .

وكما لم تتقبّل بقلبك آياتنا ، ولم تفتح بصر قلبك عليها ، ولم تُزِل صدأ قلبكِ وأوساخه ورينه بالعمل الصالح والإيمان والاعتقاد بالله تعالى ، فبقيت أخيراً في حجاب وفي عمى عن إدراك الحقائق ، فإنّ نتيجة العمى

والإعراض ستكون عمى في هذا اليوم .

ويستفاد من هذه الآية بجلاء أنّ من لم يرتبط بالله تعالى في الدنيا ، ولم يخضع لأوامره وتشريعاته ، ولم يسجد للحقّ ، ولم يرتدِ رداء ذلّ العبوديّة ، فجاءه الموت على هذه الحال ، فإنّه سيكون هناك أيضاً في عمى وظلمة وحجاب . فما الذي سيعود على هذا الأعمى لو كان عالم القيامة كلّه إشراقاً وضياءً ؟ ومَثَله تماماً كمثل العميان في هذه الدنيا ، إذ ماذا يفيدون منها لو كانت جميعها مشرقة بنور الشمس ؟

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا .[1]

وسنتحدّث بحول الله وقوّته حديثاً وافياً عن تفسير هذه الآية المباركة في فصل الأعراف الذي سيأتي لاحقاً ، إلّا أنّنا سنتكلّم عنها باختصار يناسب مقامنا وبحثنا الحالي .

سيأتي يومٌ ترى فيه يا رسولنا نورَ المؤمنين والمؤمنات يسعى ويُسرع أمامهم وعن أيمانهم ، وهو بالطبع نورهم الذي يسعى أمامهم حيثما ذهبوا ، فيستضيئون به في ظلمات طرقات القيامة وعقباتها ، ويُنيرون به مواطئ أقدامهم .

وكما قدّم المؤمنون إلى الآخرة أعمالهم التي فعلوها في الدنيا ثمّ أتبعوها بأنفسهم ، فإنّ هذا النور سيسعى أمامهم هو الآخر يوم القيامة يمثّل تجلّي الأعمال . وسيبشّر ملائكةُ الرحمة المؤمنين بأنّهم سيردون اليوم

١ـ الآية ١٢ والنصف الأوّل من الآية ١٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

جنّات غنّاء متشابكة الأغصان، تجري الأنهار في أرضها، فيخلّدون هناك، وذلك هو الفوز العظيم.

يومذاك يقول المنافقون والمنافقات للمؤمنين: انظرونا نقتبس من نوركم قبساً ننتفع به، فيُقال في جوابهم: ارجعوا إلى الوراء فالتمسوا هناك نوراً.

إنّ المنافقين لا نور لهم في الآخرة، وذلك أنّ الذين جاءوا بنورهم إلى الآخرة، فإنّما جاءوا به من هذه الدنيا. ويُطلق لفظ المنافق على من غاير قلبه لسانه، فهو يُظهر الإيمان بلسانه ويُبطن الكفر بقلبه؛ لسانه يقول: أنا خادمكم (مخاطباً أحد العلماء)، روحي فداكم، إنّ استقرار الإسلام من بركات السادة العلماء. لكنّ قلبه يقول: أيّها اللئيم. (يقصد العالِم المخاطَب).

لسانه يقول: صلّوا على محمّد وآل محمّد من أجل سماحة آية الله! لكنّ قلبه يقول: أهلكه الله، فهو إنسان سيّئ.

إنّ المنافقين أسوأ من الكفّار والمشركين، لأنّ الكافر والمشرك يقولان علناً نحن كفّار لا نقبل الإسلام ولا نعتقد بشريعة محمّد صلّى الله عليه وآله، فيعلم المسلمون واجبهم تجاههم، أمّا المنافقون فيتشدّقون بالحديث عن الإسلام، ويتحدّثون دوماً عن الإيمان والقرآن والعدل، إلّا أنّهم لا عقيدة لهم في الباطن، بل هم في صدد تخريب الإسلام وهدمه.

يأتي المنافق إلى المسجد فيقف في الصفّ الأوّل خلف الإمام وقريباً منه، فيخلع رداءه ويضع العباءة على منكبيه، ويصلّي النافلة باستمرار. ويقرأ الأدعية في كتاب «المفاتيح»،[1] ويقرأ سورة الواقعة في صلاة الوتيرة،

١ـ كتاب «مفاتيح الجنان» كتاب دعاء معروف. (م)

إلّا أنّه يركّز سمعه وفكره وجميع قواه الباطنيّة في متابعة ما يدور في المسجد ، محاولاً معرفة مَن يلتقي بإمام الجماعة ، وما الذي يقوله الإمام لهم ، ما رأيه ونظره بشأن الحكومة ؟ فيركّز هذه الأُمور كلّها في ذهنه ليأخذها إلى أعداء الإسلام ويكشفها لهم باعتباره جاسوساً لهم . يأتي في الظاهر فيقبّل يد الإمام وينحني إجلالاً له وتقديساً ، لكنّه يخطّط في باطنه لسجنه وإعدامه .

وعلى هذا الأساس فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : **مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ** ، لأنّه كان في غاية الانزعاج والأذى من المنافقين في الداخل .

ولقد كان المنافقون يأتون إلى مسجد رسول الله فيصلّون ، ويعدّون أنفسهم شركاء للمسلمين ، فإذا جنّهم الليل جلسوا حول بعضهم إلى الصباح يخوضون في سيرة رسول الله ويسخرون من أعماله ويهزأون به ويخطّطون في السرّ ضدّ الإسلام ، ويتعاونون مع الكفّار والمشركين سرّاً .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا .[1]

وعلى هذا الأساس جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ .[2]

هم يوم القيامة في ظلمات محضة ، وفي عقبات مظلمة معتمة ، قد ابتلوا بمتاهات وسبل وعرة عسيرة ، متاهات ما إن تزلّ فيها أقدامهم حتّى

١ـ الآية ٨١ ، من السوررة ٤ : النساء .

٢ـ النصف الأوّل من الآية ١٤٥ ، من السورة ٤ النساء .

يرتطمون بقعر وادي جهنّم وساء لهم منزلا . فلا نور الخارج يهديهم سواء السبيل ، ولا نور الباطن فيهتدوا بضيائه .

ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.[1]

ويقول هؤلاء المنافقون والمنافقات للمؤمنين والمؤمنات :

ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ؛ فيأتي الجواب : **قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا** .

هنا لا يأتي أحد بالنور ، ومن كان له نور ، فإنّما جاء به من الدنيا ، وكان ينبغي أن يكون لكم نور ، لكنّكم لا تملكونه الآن ، وهؤلاء المؤمنون والمؤمنات ذوو النور الذين ترونهم قد جاءوا بنورهم معهم من الدنيا ، فهو نورهم لا نور غيرهم ؛ وبينما يسبح المؤمنون في بحار من مياه رحمة الله ، يلهث المنافقون ظماءً إلى جرعة من ماء .

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ .[2]

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .[3]

لمّا كان المنافقون لا يؤمنون بكلام رسول الله ، ولجأوا ـ من جهة أُخرى ـ إلى التخريب والإفساد بالاحتيال والمكر ، فإنّ مكانهم في الدرك الأسفل من النار ، ومهما طلبوا نوراً فإنّ أحداً لن يأبه لهم .

أمّا المؤمنون فإنّ : **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** .[4]

نورهم وأجرهم معهم دوماً ، وكلٌّ منهم يتمتّع بعالم النور المتناسب

١ـ مقطع من الآية ٤٠ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ النصف الثاني للآية ١٨٢ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٣ـ النصف الثاني للآية ١٥ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٤ـ مقطع من الآية ١٩ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

مع مقدار إيمانه . ذلك أنّ النور كالماء ، له نهر وشطّ وبحيرة وبحر ومحيط ؛ فالمؤمنون أصحاب اليقين يغوصون في بحار النور ومحيطاته .

نُورٌ عَلَى نُورٍ .[1]

جميع الأنوار متراكمة شفّافة ؛ فالنور على النور يشمل المؤمنين ويسعهم .

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .[2]

أي : أنّ الكافرين سعداء يُخَيّل إليهم أنّ لهم نوراً ، لكنّ الأمر ليس كذلك ، فهم في الظلمات ، ولقد زُيّنت لهم أعمالهم فهم يتخيّلون الفهم والبصيرة . وتوضّح هذه الآية أنّ الإيمان نور وحياة ، وأنّ من آمن بالله وعمل صالحاً كان حيّاً ، أمّا باقي الناس فأموات غير أحياء . الحياة عبارة عن حياة العلم والوجدان ؛ الحياة ارتباط بربّ العالم وقيّومه . فالذين آمنوا يمشون بين الناس بنور الله ، ويشاركون في شؤون المجتمعات ويعاشرون وينكحون ويتاجرون ويزرعون ويصنعون ويسافرون وينامون ويستيقظون ، فجميع أعمالهم هذه إنّما هي بنور الله تعالى ، وبقلب يقظ وعين مُبصرة ، وهم يمارسونها ببصيرة ووعي قلبيّ ووجدانيّ .

خلافاً للأعمال التي يقوم بها سائر الناس الذين يمارسون الأعمال نفسها : يسافرون ويمسكون المسحاة ويزرعون ويتاجرون ويشتغلون بالأُمور الصناعيّة وينكحون وينجبون الأولاد ويرسلونهم إلى المدارس ، إلاّ

١ـ مقطع من الآية ٣٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ الآية ١٢٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

أنّ كلّ هذه الأُمور تحصل في الظلمة ، فقد ضرب ستار من الجهل وعدم البصيرة وفقدان اليقين على قلوبهم وضمائرهم ، فهم يمارسون هذه الأعمال بلا هدف أو قصد وهي مشوبة بالشكّ والريب .

فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .[١]

يتردّدون في عالم الشكّ والاحتمال والظنّ ، فلا يضعون أقدامهم على مسير عالم العلم واليقين : أمّا المؤمنون بقلوبهم المشرقة وصدورهم المنشرحة وفكرهم المنفتح ،كالبصير الذي يفعل ما يفعله عن تروٍّ وتأمّل ، فيُقدم على القيام بالأُمور المهمّة بفكر متين وعزم راسخ .

فهل يستوى مَن كان له مثل هذا النور ومَن هو في الظلمات لا يخرج منها ؟ وهل يستوي من كان مرتبطاً بربّه ومن يزحف في سجن الوهم والتخيّل ، فيرى هذا العالم ـ مع ما فيه من الجمال والسعة ـ منفصلاً ومتفرّقاً لا ارتباط له بالله ؟ إنّ الذي لا يعرف ربّه عدوّ للعالَم ومنفصل عنه ، وعدوّ للأُمّ والأب ، والزوجة والولد ، وعدوّ لسائق السيّارة ، ولساعي البريد ، وللرفيق والشريك ، وللعالم والجاهل ، وللشيخ والشابّ ؛ لأنّه ينظر إلى الموجودات بنظر التفرقة . وبدلاً من أن ينظر إليها كلّها بنظر أُلفة وأُنس لارتباطها واتّحادها بأصل الخلقة ، فإنّه ينظر إليها بنظر الاثنينيّة والانفصال والعداء ، فيبقى في سجن الظلام المليء بالجهل .

ومهما حاول إخراج نفسه من هذا السجن فإنّه سيعجز ، إذ لا عين له فيبصر بها ، ولا معرفة له بمحلّ الخروج والخلاص ، فهو أشبه بمن يغرق في البحر فتغمره اللجج العظيمة ،كلّما تخبّط في جهة ما زاد انغماره فيها ، حتّى يكتنفه الهلاك المحض . وهذه هي عاقبة الجهل والغفلة والخيانة

١ـ المقطع الأخير للآية ٤٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

والجناية في الدنيا .

إنّ الله تعالى ينمّي كل عمل يفعله الإنسان ، فإن سار الإنسان في سبيل الخير وفي مسير النور ، فإنّ الله سيقوّي ذلك وينمّيه ؛ وإن تحرّك في مسير الظلمة ، والشرّ ، فإنّ الله سينمّي ذلك أيضاً .

ولو زرع الإنسان بذور نبات البطيخ الأحمر الحلو ، لحصل على البطيخ الأحمر الحلو ، أمّا لو زرع بذور الحنظل لما جنى غير الحنظل .

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا .[1]

إنّنا سنعطي كلّ فردٍ ما شاء ، فإن شاء أحدٌ الدنيا أعطيناها مَن نشاء ، وإن شاء أحدٌ الآخرة وسعى لها وكان مؤمناً ، فإنّنا سنعطيه إيّاها ، فنحن نمدّ الجميع ونساعدهم .

إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .[2]

لقد هدينا الإنسان السبيل ، فإمّا يختار سبيل الجنّة والسعادة ، أو سبيل جهنّم والشقاء . ولذا يستفاد من هذه الفقرة من الآية :

كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ،[3] أنّ هناك جماعة في الظلمات لا يمكنهم الخروج منها ، قد تسرّبت الظلمات إلى قلوبهم وترسّخت فيها ، فصارت جوارحهم وأعضاؤهم مظلمة ، وصارت الظلمة تكتنفهم وتحيط بهم أينما اتّجهوا ؛ الظلمة في قبورهم ، فإن خرجوا منها وجدوها أمامهم ؛ والظلمة في المحشر ، والصراط ، والميزان وسائر

١ـ الآية ٢٠ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ الآية ٣ ، من السورة ٧٦ : الإنسان .

٣ـ الآية ١٢٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

المواقف ، فهم يواجهونها في المواطن بأسرها . قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .[1]

وهذه الآية بَعد قوله تعالى :

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ .

ومن الجليّ أنّ المراد بالنور والظلمة ليس هذا النور والظلمة الطبيعيّينِ الخارجيّين ، بل المراد بهما النور والظلمة المعنويّان الروحيّان ، والأنوار النفسانيّة والظلمات النفسانيّة التي تلازمهم وتقترن بهم .

على أنّ أيّ عمل يفعله المؤمن سيقوده إلى عالم النور ، فيوجب ازدياد نوره ، وسيكون الله سبحانه ربّه ومدبّره ، حتّى يدخله في حريم أمنه وأمانه .

كما أنّ أيّ فعل يفعله الكافر المُعرِض عن الله تعالى إنّما يخطو به خطوة في الظلمات ، فالأفراد الذين اعتمدوا على أنفسهم وعلى علومهم التجريبيّة ، أنكروا الله تعالى وتردّوا في وادي الإنكار والإلحاد ، لأنّهم لم يروا الله تعالى عياناً ، ولم يشاهدوه بالعلوم التجريبيّة ، ولم يلمسوه تحت مبضع الجراحة ؛ فأولياؤهم الطاغوت .

أي : أنّهم ذوو الطغيان ، طغيان القدرة وطغيان العلم وطغيان المال والهوى والهوس ، فهؤلاء يريدون ـ إذَن ـ أن يتنصّلوا من المسؤوليّة والالتزام ، إلّا أنّهم لا يعلمون أنّهم يفرّون من الله إليه . مثلهم كمثل الحَجَل الذي يهرب من يد الصيّاد فيدفن رأسه تحت الثلج . فهو لم يفرّ ، بل أسلم نفسه لذلك الصيّاد ، وأسدل حجاب الغفلة والجهل على عينيه

١ـ الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

وأغمضها ودفن رأسه في الثلج كي لا يراه الصيّاد ، فهو بعمله هذا لا يرى الصيّاد ، لكنّ الصيّاد يراه .

وهكذا فإنّ الحَجَل لم يُخرج نفسهِ ـ في عالم الواقع ومتن الخارج ـ من سيطرة الصيّاد وقبضته ، بل جعل نفسه طعمة سائغة له على أساس من الجهل وإسدال حجاب على فهمه وبصره .

وهكذا فإنّ الذين يفرّون من يد الله تعالى يتصوّرون أنّهم يدخلون عالماً من البهجة واللذّة والمسرّة ، إلّا أنّهم يجهلون أنّهم خرجوا من الرحمة ودخلوا في البلاء والنكبة والنقمة . وأنّ الطاغوت ، ونعني به الأُمراء والحكّام الجائرين المستكبرين الجاهلين بالله ، سيدخلونهم في الظلمات ، ويسلبونهم ذلك القدر الذي كان لهم من النور ، فيغوصون في الظلمة والحلكة تدريجيّاً إثر متابعة الطاغوت ، حتّى يصلوا إلى محض الظلمة المطبقة ، فيخلدوا هناك .

أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

ذلك أنّ جهنّم من مظاهر البُعد عن رحمة الله وقربه ، فمن كان مخلّداً فيها كان مخلّداً في الظلمة .

إذَن يستفاد من هذه الآية أنّه على الرغم من أنّ القيامة هي عالم النور ، إلّا أنّ هناك شِرذمة يعيشون مخلّدين في الظلمة . وقد عرضنا سابقاً نظير هذا المطلب في موضوع الحجب،وقلنا:إنّ العالَم ليس بعالم الحجاب ، بل هو عالم الظهور والبروز والتجلّي ، إلّا أنّ البعض ـ في الوقت نفسه ـ محجوبون عن البعض الآخر ، وأنّ الكفّار محجوبون ، فهذه المحجوبيّة من لوازم محدوديّة وجودهم ، فقد حدّدوا وجودهم وضيّقوه في الدنيا ، فصارت هذه المحدوديّة موجبة لحجابهم وبُعدهم ، وصاروا لا يستطيعون الخروج من ذلك التعيّن والتقيّد .

كما نقرأ في القرآن الكريم مثل هذا المعنى، في أنّ المخفيّات تظهر يومئذٍ، وأنّ هناك عالم السرّ والحقيقة، فليس لأحد ـ من ثمّ ـ قدرة على الكذب، كما لا يمكن لأحد أن يجيب منكر ونكير كذباً حين يسألانه: مَن ربُّك؟ فلا يمكنه الكذب للخلاص من عذابهما، ولا يسعه إلّا التصريح بما كان يعبده ويجعله إلهه ومعبوده في هذه الدنيا. كما لا يمكن لأحد يوم القيامة ـ وهي يوم الجمع ويوم الشهود ـ أن يظهر خلاف عقائده.

بَيدَ أنّه وردت ـ في الوقت نفسه ـ بعض الآيات التي تذكر أنّ الأفراد الذين كانوا في الدنيا من أهل الكذب، يحاولون هناك أيضاً تخليص أنفسهم بالكذب. قال تعالى:

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.[1]

فهم يقولون هناك: والله ربّنا ما كنّا مشركين. فانظر (أيّها النبيّ) كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ماكانوا يفترون.

فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ.[2]

وحين يأتي الملائكة الشداد الغلاظ لقبض أرواح الظالمين وسوقهم إلى جهنّم، فإنّ هؤلاء الظالمين يحاولون مسالمتهم وخداعهم بالحيلة والمكر للخلاص من أيديهم، وتخفيف شدّة سكرات الموت وألم نزع أرواحهم. لذا يقولون مسالمين: ماكنّا نعمل من سوء في هذه الدنيا.

بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.[3]

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ

١ـ الآية ٢٤، من السورة ٦: الأنعام.

٢ـ مقطع من الآية ٢٨، من السورة ١٦: النحل.

٣ـ تتمّة الآية ٢٨، من السورة ١٦: النحل.

أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ .[١]

فهذا الحلف الكاذب هو ظهور حيلتهم في الكذب والافتراء الذي يظهر يومئذٍ ، فمن كان الكذب سجيّته ، لازمته سجيّته هذه واصطحبها حين يرد المحشر .

إنّ اللصّ يحبّ السرقة على الدوام ، فإن نام رأى في المنام أنّه يسرق . فهو في اليقظة يسرق خفية بعد ملاحظة ما يحيط به ، ويتكتّم على سرقته لئلّا يطّلع عليها أحد ، أمّا حال النوم حيث لا يرى سرقته أحد ، فإنّه يسرق دونما مبالاة .

والأمر صادق بالنسبة إلى المحتكرين الذين يجنون الأرباح الطائلة ، فإنّهم يرون في النوم أنّهم يحتكرون ويبيعون بأثمان مرتفعة فيلتذّون برؤياهم هذه ، ثمّ يستيقظون فيتحسّرون لأنّ ذلك كان مجرّد رؤيا ، ولأنّ ذلك الاحتكار للأرزاق لم يكن له وجود خارجيّ .

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الإنسان المتهتّك الغارق في الشهوات ، فهو يرى في المنام المناظر الشهويّة ، فيرى نفسه مِلكاً ، ويرى أنّه يأمر وينهى ويضرب ويسلب . أمّا العالِم فيرى رؤيا تدور حول المطالعة والتدريس ، كما يرى العابد رؤيا تحوم حول العبادة والصلاة والركوع والسجود . وهذا أمر مسلّم تصدّقه التجربة وتشهد عليه بشواهد صادقة ، وقد بُيّنت علّته في الفلسفة الإلهيّة .

إنّ بعض الأفراد يكذبون إجمالاً ، لكنّ فيهم من ينسج الأكاذيب ويلفّقها بمهارة وحنكة ، فهم يختلقون أمام الإنسان قصّة كاذبة دون أدنى تأمّل أو تروٍّ سابق فيخدعونه بها . فمثل هؤلاء الأفراد قد تحجّرت خليقة

١ـ الآية ١٨ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

الكذب القذرة في أنفسهم ، فهم يرحلون عن الدنيا بهذه النفس الكاذبة ، ويردون المحشر بها ، ويحاولون هناك أيضاً أن يخدعوا الله تعالى ، فيختلقون الكذب ويحلفون افتراءً وينكرون كفرهم وشركهم وظلمهم وجناياتهم أيّما إنكار . ومثلهم كمثل سارقي الجيوب الذين إذا ما أمسك أحد بأيديهم حال تلبّسهم بالسرقة ، فإنّهم سينكرون ذلك مع أنّ أيديهم في جيوب الناس . وما أكثر ما شوهد أنّهم يُعتقلون ومعهم الأموال التي سرقوها ، فيُلقون التهمّة على مَن أمسك بهم ويتّهمونه أنّه سرق تلك النقود من جيبهم ؛ نعوذ بالله .

وإذا ما حضر هؤلاء يوم القيامة ، فإنّهم يحاولون إلقاء التبعة على الله تعالى ، وتحميله المسؤوليّة وإدانته .

وبناءً على ما قيل في باب ظهور السجايا والمَلَكات ، فإنّ سوق كذب الكاذبين وإنكار المنكرين وحجاب المحجوبين ستكون رائجة يوم القيامة. فكيف ـ ترى ـ ستقع هذه المخالفات مع أنّ العالم هناك هو عالم الحقيقة المحضة والصدق الخالص والنور والإشراق ، وعالم الظهور والبروز ؟

سيتّضح الأمر بإيراد مقدّمة مختصرة ، وهي أنّ ذلك العالم ، على الرغم من كونه عالم النور ، إلّا أنّ مراتب النور متفاوتة متغايرة .

افرضوا أنّ الشمس قد طلعت فأشرقت في الوهلة الأُولى على سقف بلّوريّ ، ثمّ إنّها عبرت من هناك إلى سقف بلّوريّ آخر أسفل منه ، وهكذا تعبر من الطبقات البلّوريّة المتعدّدة للعمارة لتصل إلى أرضيّة الغرف وإلى داخل البناية السفلى .

فإذا كان لكلّ واحد من هذه السقوف والبلّورات إجمالاً شخصيّة وأنانيّة ، فإنّ ذلك سيؤثّر في النور العابر خلاله ، وحينئذٍ سيفقد لونه قدراً من إشراقه عند عبوره من كلّ بلّورة ، فإذا وصل إلى الطابق الأسفل كان لونه

معتماً متفاوتاً كلّ التفاوت مع اللون المشرق الشفّاف للطابق الأعلى .

وهكذا سيرى الشخص الجالس في الطابق العلويّ نور الشمس وينعم بضيائها وإشراقها ، إلّا أنّ الأمر يختلف كثيراً بالنسبة إلى الجالس في الطبقة السفلى ، إذ إنّه يتمتّع بإشراق الشمس أيضاً ، لكنّه إشراق ضعيف مرّ من الحجب وزادت عليه التعيّنات الإمكانيّة حجباً جديدة .

ولا ريب في أنّ الواردين إلى القيامة أُولو درجات مختلفة في الإيمان والعلم والتقوى ، وأنّ العاصين والمذنبين هم أيضاً في درجات متباينة . وهذا الاختلاف سيوجب قلّة الحجب أو كثرتها . ونتيجة ذلك أنّ المنغمرين في المعصية والمصرّين المعاندين على الشرك والكفر والإنكار والجحود ، هم في مراتب بعيدة نائية عن الرحمة ، وأنّ حجبهم أكثر والنور الذي يصلهم أقلّ وأندر ، فهم بالملازمة في الظلمة والعتمة المبهمة .

أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .[1]

أمّا المقرّبون الذين يتمتّعون بالمرحلة الأُولى للنور ، فيكتسبونه بلا غشّ ولا رَيْن ولا تلوّث . وهكذا يتلقّى الأنبياء والأئمّة عليهم السلام الفيض من الذات المقدّسة للحضرة الأحديّة ويستجلبون النور بلا واسطة ؛ أمّا باقي الأفراد من المقرّبين وأهل الإخلاص والأبرار والأخيار وأصحاب اليمين ، فلكلّ منهم نور حسب درجته ومقامه ومنزلته .

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ .[2]

وأنّ أصحاب الشمال هم أيضاً في درجات متنوّعة ، لأنّ درجة شقائهم متفاوتة . ومن ثمّ فإنّ الأشقياء في عالم النور ، ولكن من وراء

١ـ المقطع الأخير من الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصلّت .

٢ـ الآية ١٦٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

حجاب وتحت غطاء الأسماء الجلاليّة .

المؤمنون والمقرّبون والأبرار والأخيار تحت إشراق النور والأسماء الجماليّة ، والأشقياء والكفّار تحت إشراق النور والأسماء الجلاليّة ، وشتّان بين هذين الأمرين . فحين يوزّع المَلِكُ في يوم معيّن صِلاته العامّة على الجميع ، فإنّه يكرم أهل خدمته كما يستحقّون ، ويجزي أهل العصيان بالعذاب والسجن والعقوبة حسب ما يستحقّون . الجميع يرون المَلِكَ وهو بمرأى منهم ومسمع ، إلّا أنّ المطيعين في ظلّ ألطافه وعناياته ، والعاصين والمتمرّدين تحت سطوته وغضبه وقهره .

وهكذا سينعم المؤمنون ذوو العمل الصالح يوم القيامة بالأنوار الجماليّة واسم الرحيم والرؤوف والودود وذي المنّ والكرم ؛ بينما سيرزح الكفّار والمجرمون تحت الأنوار القاهرة الجلاليّة ، وتحت اسم شديد العقاب والجبّار والقهّار وأعظم المتجبّرين . فهم بأجمعهم في النور والإشراق ، والإقرار والاعتراف ، وعدم إمكان التمرّد والإنكار ، وكلّ منهم حسب مرتبته ودرجته في المقامات والكمالات ، وفي حجب متفاوته حسب القُرب والبُعد ، وتبعاً لظهور مراتب القُرب والبعد من الجنّة أو من جهنّم .

لذا فإنّ الفرق بين المؤمن وغير المؤمن سيتّضح بجلاء ، إذ إنّ العالم هناك عالم الصدق وعالم النور والإشراق والظهور والبروز . ولمّا كان للمؤمنين في الدنيا صدقٌ غير مشوب بكذب ، ونورٌ غير مشوب بكدر وظلمة ، فإنّ هذه المعاني التي تتجلّى لهم يومئذٍ توجب دخولهم في الإشراق والنور المحض . وأمّا الكافرون فلمّا كانوا معروفين بالكذب والعتمة والكدر ، فإنّهم يصيرون في شبكات النور محجوبين بالحُجب والأستار .

وتلك الجماعة المجبولة على الظلم والجور ، التي عُجنت أرواحها بالكذب والافتراء ، وخُلطت بالشقاء والقسوة ، موجودة هناك في شبكات نوريّة بعيدة وضعيفة جدّاً ، وممزوجة بظلمة الحجب الظلمانيّة ؛ وأنّ بلّور قلوبهم المخلوط بالرين والشين سيجعل ذلك النور الإلهيّ المجرّد الطاهر البسيط في شبكات القلب المظلمة والعفنة الملوّثة في هيئة نور خافت ومعتم يدخل في قلوبهم . وذلك أنّ البلّور المعتم يجعل النور معتماً ، والبلّور الداكن يجعل اللون داكناً .

فأمرهم من حيث إشعاع النور غير قابل للإنكار ، أمّا من جهة تلوّثه بالهواجس النفسيّة وحجب الإدراك والبصيرة الباطنيّة ، فإنّهم سيصبحون في العتمة والحجاب ومظاهر البُعد .

وجاء في «نهج البلاغة» ما نصّه :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ (وَقَدْ سَمِعَهُ يُرَاجِعُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ كَلَاماً) : دَعْهُ يَا عَمَّارُ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ .[1]

وهذا الوصف من الإمام للمغيرة ممّا يثير العجب ، أن يصل امرؤٌ إلى الحدّ الذي يتّخذ فيه ـ عالماً عامداً ـ ستاراً من الشبهات للدعاوى الباطلة ، كي يجعل لباس الشبهة ذلك وجهه الموجّه يوم المحاكمة وفي أوساط الناس .

وتمثّل هذه الحالة نفاقاً باطنيّاً شديداً ، إذ يتجاهل الإنسان ويظهر عدم الاطّلاع متعمّداً مع علمه وبصيرته وتنوّره ووعيه ، ويحاول الفرار من مؤاخذة الناس حفظاً لكرامته ، وذلك بحمل أعمال الناس على وجه

١ـ «نهج البلاغة» الحكمة ٤٠٥ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ؛ طبعة عبده ـ مصر .

غير صحيح مع علمه أنّها صحيحة ، أو بحملها على وجه صحيح مع علمه بخطئها وعدم صوابها . وباتّخاذه موارد الشبهة تلك مستمسكاً لعمله . وهذا نوع من الظلمة في عالم النور ، ونوع من العمى في عالم الإبصار ، وسيظهر في عالم القيامة على هذا النحو والكيفيّة .

وهناك أفراد كثيرون من هذا القبيل في المجتمع ، من الذين يجعلون الدين آلة لنيل الدنيا ، فيصلّون ويخطبون خطباً خادعة ليحكموا في الدنيا . وقد استخدم سيّد الشهداء عليه السلام استعارة لطيفة للتعبير عن أهل الدنيا وكيفيّة استخدامهم الدين للوصول إلى نواياهم ومقاصدهم الدنيويّة ، وذلك في خطبة قصيرة له خطبها في «ذي حسم» عند مسيره إلى كربلاء ، جاء فيها كما في «تحف العقول» :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَسِيرِهِ إلَى كَرْبَلَاء :

إنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإنَاءِ ؛ وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَبِيلِ .

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ ، لِيَرْغَبِ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَهِ حَقّاً . فَإنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إلَّا سَعَادَةً وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إلَّا بَرَماً .

إنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا ، وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ ، فَإذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ .[1]

١ـ أورد خطبة الإمام كلٌّ من ابن شُعبة الحرّانيّ في «تحف العقول» ص ٢٤٥ ؛ والمجلسيّ رحمه الله في «بحار الأنوار» روضة البحار ، المجلّد ١٧ ، ص ١٤٨ ؛ وفي الطبعة الحديثة ج ٧٨ ، ونقل السيّد ابن طاووس في «اللهوف» هذه الخطبة عن الإمام عليه السلام في «عذيب الهجانات» وهو أحد المنازل بين المدينة والكوفة وقال : فورد كتاب عبيد الله بن زياد إلى الحرّ بن يزيد يأمره بالتضييق على الحسين عليه السلام، فقام الحسين عليه ⇦

⇐ السلام خطيباً ... («اللهوف» ، ص ٦٩) .

كما نقلها الطبريّ عن الإمام عليه السلام أنّه خطبها في «ذي حسم» ، وذلك في تأريخه ضمن وقائع سنة ٦١ .

ويبدو أنّ «ذا حسم» و «عذيب الهجانات» اللذين ذكرهما السيّد محلّ واحد ، لأنّ هاتين الخطبتين ذكرتا بعد ورود الحرّ . («تاريخ الطبريّ» ج ٥ ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ ، طبعة محمّد أبي الفضل إبراهيم) . ونقلت هذه الخطبة في «ملحقات إحقاق الحقّ» ج ١١ ، ص ٦٠٥ ، حيث أوردها صاحب الكتاب المشار إليه عن كتب التأريخ والحديث المهمّة لأهل السنّة مع ذكر أسانيدها .



المجلس الثالث والثلاثون

قيام الإنسان في ساحة الله عز وجل ومحضره



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ .[1]

قسماً بالرياح التي تذرو التراب وتفرّقه ؛ وقسماً بالسحب التي تحمل المياه الثقيلة ؛ وقسماً بالسفن التي تجري في البحار رخاءً ميسّرة ؛ وقسماً بالملائكة التي تقسّم أمر الله في العالم ، فتأخذ الأمر الواحد للحضرة الأحديّة من عالم اللاهوت ، حسب اختلاف مقاماتها ومراتبها ، وتبعاً لسعة ماهيّاتها أو ضيقها ، فتقسّم ذلك الأمر على العوالم الأُخرى ؛ إنّ ما توعدون وما أنذرتكم به صادقٌ وواقع ، وإنّ الجزاء والثواب لأمر واقع ولازم .

يروي عليّ بن إبراهيم في تفسيره ، عن أبيه ، عن ابن أبي عُمير ، عن جميل بن درّاج ، عن الإمام الصادق (ع) في تفسير هذه الآيات على النحو

١ـ الآيات ١ إلى ٦ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

الذي ذكرناه.[1]

كما خرّجه السيوطيّ على هذا النحو الوارد في التفسير المذكور، في تفسير «الدرّ المنثور» عن عبد الرزّاق والفريابيّ وسعيد بن منصور وحارث بن أبي أُسامة وابن جرير وابن منذر وابن أبي حاتم وابن الأنباريّ في «المصاحف»؛ وعن الحاكم في «المستدرك» وصحّحه؛ وعن البيهقيّ في «شعب الإيمان»، جميعاً عن عليّ بن أبي طالب.[2]

وقال الفخر الرازيّ في تفسيره: والأقرب أنّ هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات هي الرياح التي تنشئ السحاب أوّلاً؛ والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحّت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقل من جبال؛ والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها؛ والمقسّمات هي الرياح التي تفرّق الأمطار على الأقطار.[3]

ويشهد على التفسير المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ هذا القسم المتكرّر إشارة إلى عامّة التدبير، حيث ذكرت أُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البرّ وهو: **وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا**؛ وأُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو: **فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا**؛ وأُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجوّ وهو: **فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا**؛ وتمّم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير: **فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا**.[4] ومجمل الأمر أنّ الله تعالى يقسم بهذه الأُمور التي هي

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٦٤٦.

٢ـ «الدرّ المنثور» ج ٦، ص ١١١.

٣ـ «تفسير مفاتيح الغيب» طبعة دار الطباعة، ج ٧، ص ٦٥٤.

٤ـ «تفسير الميزان» ج ١٨، ص ٣٩٦.

من أهمّ الأُمور ثمّ يقول : **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ .**

إنّ يوم الجزاء صادق وواقع ، وليس أمراً تخيّليّاً وموهوماً جاء به الأنبياء كفرضيّة ونظريّة لإسكات نفوس البشر ، وإلجام أجيال البشريّة المتمرّدة والمتعدّية ، ورتّبوا أمر القيامة والجزاء والثواب وقدّموه إلى الناس ليحدّوا بهذه الوسيلة من الاعتداءات .

المعاد عبارة عن عودة الإنسان ورجوعه إلى الله سبحانه ، لأنّ المعاد بمعنى محلّ الرجوع أو زمنه أو أصله ، فبواسطته يتحقّق عود الإنسان ورجوعه إلى الله تعالى . ويستخلص منه أنّ مجيء الإنسان يجب أن يكون من عند الله تعالى ، ليكون عوده ورجوعه إليه ، فالسير في طريق لم يسبق للإنسان سلوكه وطيّه لا يدعى رجوعاً . فنحن ـ لهذا ـ قد جئنا من عند الله سبحانه ، وعلينا أن نعود إلى حيث كنّا وإلى المكان الذي قدمنا منه .

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .[1]

كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .[2]

كما بدأنا أوّل خلق وأنزلناه من نقطة نزوله الأُولى ، فأقمنا هذا العالم وخلقناه ، فإنّنا سنُعيد هذا الخلق ونرقى به ثانيةً إلى تلك النقطة .

ومن هنا فإنّ هناك معاداً للإنسان والحيوانات والموجودات جميعاً ، وستعود إلى حيث كانت بداية خلقها ، والإنسان أحد الموجودات والمخلوقات وله معاد أيضاً .

ولمّا كان الإنسان قد نزل بجميع وجوده ومراتبه ، فعليه أن يصعد ويعود ثانية بجميع وجوده وأرجائه ، وإلّا لمّا تحقّق معاده كما ينبغي . لقد

١ـ المقطع الأخير للآية ٢٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ مقطع من الآية ١٠٤ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

نزل الإنسان بوجوده كلّه فظهر في عالم الكثرة وارتدى لباس الطبع والمادّة ، وعليه أن يعود بهذه المجموعة التي هي عبارة عن البدن والمثال والنفس ، والظاهر والباطن ، والمُلك والملكوت . وإلّا فإن تقرّر أن يبقى هنا قسم من الإنسان ويعود القسم الآخر منه ، لما كان قد عاد بوجوده كلّه .

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[1]

إنّ العالم الذي نعيش فيه ليس عالم العبث والجزاف واللعب ، فأعمال الإنسان تدوّن وتسجّل ، سواءً تجاهل الإنسان ذلك أم لا ، بل إنّ هذا التجاهُل نفسه سيسجّل ويدوّن أيضاً .

لذا فإنّ الإنسان ليس بمعزل عن الحساب والمحاكمة ، فإن تكلّم رأى أنّ جهاز التسجيل يسجّل كلماته حرفاً حرفاً ، وإذا ما قلّب صفحات كتاب أو أوراق ما ، لسُجّل صوت تلك الورقة والصفحة أيضاً .

ومن ثمّ فإنّ الإنسان لا يمكنه أن يُخفي شيئاً في عالم الكون والتكوين ، وستكون عودته إلى الله الذي سيُطلعه على جميع أفعاله وسيرته .

لقد كان لقمان من الحكماء الكبار ، وكان له منصب النبوّة على ما في بعض الروايات ، وكان من بين نصائحه ومواعظه لابنه ، قوله :

يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ* فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .[2]

وحينما لا تخفى على الذات الأحديّة ولا تخرج من دائرة علمها

١ـ النصف الثاني للآية ١٥ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢ـ الآية ١٦ ، من السورة ٣١ : لقمان .

* الخردل : نوع من الفلفل ، له بزور سوداء صغيرة ذات طعم حادّ .

وقدرتها وإحاطتها الوجوديّة والحياتيّة حبّة من خردل في صخرة أو خلف جبل أو في أعماق بحر أو في الفضاء أو في السماوات ، وكذلك كلّ موجود بقدر هذه الحبّة وزناً ، فكيف يمكن للإنسان الادّعاء بأنّ وجوده وأفعاله وعقائده وصفاته خارجة عن دائرة علم الله وقدرته ؟ وكيف يُنكر وجوده وحياته مع أنّ من المعلوم أنّ هذا الوجود الفعليّ في عالم التكوين ملازم ومستلزم للتسجيل والتدوين وتحقّق المعاد؟

إنّ الله تبارك وتعالى مقتدر ، وسيبعث الإنسان ويُحييه ، فيفهم آنذاك أنّ هذه الدنيا لم تُخلق عبثاً ، بل خُلقت وفق حساب دقيق . وسواءً أنكر الإنسان المعاد أم لم ينكره ، أو قال إنّ أحداً لم يذهب إلى ذلك العالم الذي أخبر الأنبياء به فيأتينا بالخبر اليقين . ولو تساءل : من سافر ـ ترى ـ إلى الآخرة ليجيء بخبرها ؟!

إنّ الإنسان يرى من منظار الإدراك الحسّيّ أنّه يموت ويُدفن تحت التراب ويصبح رميماً ، كما أنّ روحه ليست بالشيء المرئيّ لنقول إنّها لا تزال حيّة . فحقيقة الإنسان ـ إذَن ـ هي بدنه العنصريّ الذي يتلاشى ويتبدّد ، وليس هناك خبر عن الروح أيضاً ، فلا معاد ولا خبر حينئذٍ . هذه هي مقولة المادّيّين والدهريّين .

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .[1]

وبناءً على ذلك فإنّ ما قاله الأنبياء إنّما كان من أجل مصلحة المجتمعات البشريّة وتنظيمها ، ولمنع الناس من الاعتداء على بعضهم البعض ، لذا كانوا يضعون فزّاعة على مرأى ومسمع من الناس تتمثّل بعذاب عالم الآخرة وجزائها ويظهرونها أمام قواهم المتخيّلة والوهميّة ليحذّوا من

---

١ ـ الآية ٣٧ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

سبعيّتهم وبهيميّتهم نوعاً ما ، مثلهم في ذلك كمثل الفلّاحين والمزارعين الذين ينصبون فزّاعة لِيُخيفوا بها الطيور والغربان كي لا تهاجم الثمار والأزهار والحبوب .

لقد تصوّر الأنبياء أنّ الله والقيامة هي الوسيلة الأفضل لإخافة البشر ، فكانوا يلقّنون الناس أمر وجود الله والمعاد لإيقافهم عند حدّهم ومنعهم من الاعتداء على أموال الغير وأعراضهم ونفوسهم . أمّا حقيقة الأمر فليس هناك شيء من هذا ، إذ إنّ المطالب والأحكام الطويلة والعريضة لا تعتمد على أساس المعاد الواقعيّ ولا على أساس الإله الحقيقيّ .

وإذا مات الإنسان وتلاشى بدنه وصار رميماً واضمحلّ تحت الأرض وفنى ، فكيف يجمع الله هذه الذرّات ويمنحها الحياة من جديد ؟ كيف يتأتّى ذلك ؟!

هذا هو حصيلة كلام الطبيعيّين الذي عرضوه منكرين على الإلهيّين إيمانهم بالمعاد . والجواب هو أنّكم لم تذكروا شيئاً غير الظنّ والاستبعاد وترتيب مقدّمات شعريّة مشوبة بالأخطاء .

فأين العجب يا ترى ؟ انظروا إلى أصل خلقكم وبدايته وانظروا أيّ شيء كنتم ؟ فهل هناك قصّة أعجب وأغرب من قصّة خلق الإنسان ؟ لقد قلتُ يوماً لأولادي : إنّني كلّما فكّرتُ في الآيات الآفاقيّة لربّ العزّة تعالى لم أتحيّر كحيرتي في تفكيري بالجنين في بطن أُمّه .

إنّ أصل الإنسان من نطفة ، ثمّ يصبح عَلَقة ، ثمّ مُضغة ، ثمّ عظاماً تُكسى لحماً ، وهذه هي المراحل التي لابدّ للجنين من طيّها في رحم الأُمّ ليصير إنساناً كاملاً يتنفّس ويمتلك الشعور والعقل ، فيخطو إلى العالم ، وما أعجبها من أُمور ! ثمّ بعد ذلك يبدأ في الكلام فيرتفع منه صُراخ «أنا رجل» .

إنّ هذه التحوّلات والتطوّرات عجيبة وغريبة بحيث إذا ما حاول الإنسان أن يفكّر فيها ، وأن يتدبّر في المدارج والمعارج الصعوديّة والتكامليّة لهذه النطفة ، فإنّ عقله سيشلّ عن التفكير ، ولسانه سيخرس عن النطق .

وعلى الرغم من أنّ الموجودات جميعها عجيبة ، لكن لا حدّ للعجب في طيّ المراحل التكامليّة للنطفة . ولذا فإنّ الله سبحانه حين ذكر في مواضع عديدة من القرآن الكريم قصّة خلق الجنين ، فإنّه أشار إليها بعنوان العظمة ، ويقول في موضع من تلك المواضع :

فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ .[1]

إنّ مثل هذه اليد التي تخلق هذا الخلق طافحة بالبركة والجود حقّاً ! فالنطفة هي ذرّة لا تراها العين المجرّدة ، ولا عقل لها ولا شعور ، ولا يد ولا رجل ، ولا سائر الأعضاء والجوارح ، وهي مبدأ خلقة الإنسان . وحين تُقسّم قطرة من نطفة إلى أربعة ملايين جزء ، فإنّ جزءاً واحداً غير مرئيّ منها هو أصل النطفة (أي الحويمن) ، أي لا شيء في الحقيقة .

وهكذا فإنّ الله تعالى يخلق من هذا اللا شيء عيناً وأُذناً وقلباً وكبداً ورئة وكلية وعروقاً وشحماً ، ويخلق عظاماً وغضروفاً وعضلات وأعصاباً ، ويخلق في كلّ يد خمسة أصابع ، ولكلّ إصبع مفاصل عديدة لها جميعها أعصاب متّصلة كلّها بالمخ . فهناك أعصاب للحسّ وأعصاب للحركة ، وهناك مواضع فيها أعصاب للحركة وليس فيها أعصاب للحسّ ، فأمعاء الإنسان تتحرّك إلّا أنّها بدون حسّ ، أي : أنّ إحساسها ضعيف . وهكذا فإنّ معدتنا وكليتنا في حركة دائمة دائبة ، إلّا أنّنا لا نحسّ بتلك الحركة ،

١ـ الفقرة الأخيرة للآية ١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

وهذه أُمور تبعث على العجب .

فكيف خُلقت هذه الأعضاء كلّها من حويمن واحد صغير ؟ ذلك الحويمن البالغ في الصغر حدّاً لا يُرى معه بالعين المجرّدة . فتلك الذرّة الصغيرة يجب أن توضع تحت المجاهر القوّية لتصبح قابلة للرؤية . وعلى كلّ حال فهي ذرّة وجزء صغير لا تُشاهد فيه هذه الأعضاء أبداً ولو بعنوان الاندماج .

كيف تمتلك هذه النطفة حركة في جوهرها وكينونتها ؟ وبأيّ سرعة عجيبة تغيّر نفسها ؟ فتتقدّم في كلّ لحظة ، وتصبح علقة ، ثمّ تصبح في هيئة موجود أكثر إتقاناً وإحكاماً ، أي : مُضغة من لحم ، ثمّ تظهر على سطحها نقاط صفراء عديدة أشبه بالبقع الصغيرة ، فيقال إنّ هذه النقط والبقع هي المخّ والكبد والقلب . ثمّ تتحرّك نحو تكاملها بسرعة . فإن شاهد الإنسان تلك البقع ، لما أمكنه أن يُدرك أنّها عيون وقلوب . تماماً كما تضعون بالقلم نقاطاً صفراء على ورقة ما ؛ أفيمكن القول إنّ تلك النقاط عين وقلب وكبد ؟ أيمكن القول إنّ هذا هو البطين الأيمن وذلك هو البطين الأيسر للقلب ؟

وإنّ هذا هو دهليز القلب ! وإنّ ذلك هو مدخل القلب ؟

ما هو المخّ ؟ وما فيه من الأُمور ؟ ما الذي تمتلكه كلّ من القوّة الحافظة أو الذاكرة والقوّة المفكّرة والقوّة المتخيّلة والقوّة الواهمة والحسّ المشترك ، من أجهزة ومن أشرطة تسجيل ؟ وما أطول أشرطة التسجيل في مخّ الإنسان ! ومن أين صنعت ؟

إنّنا نرى ظاهرها فنحار ونبقى مبهوتين خرساً وبكماً لما نشاهده من صنع الله المتعال ، ويتوقّف عقلنا عن الحركة والتفكير ، ناهيك عمّا يحصل لنا لو أدركنا باطنها . لقد كانت هذه الأُمور جميعاً من تلك الذرّة غير المرئيّة ؛

سُبْحَانَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الْحَكِيمِ .

أفهذه الأعمال من صنع الله أم لا ؟ أيمكننا الإنكار يا ترى ؟

أفـلا يمكن للربّ الـذي يفعل هـذه الأُمـور أن يُحيـي المـوتـى ، ولِمَ يُستكثر على الله إحياء الموتى ؟ ولِمَ يُستبعد ذلك من قدرته تعالى ؟

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ .[1]

نعم ، إنّ هذه الحوادث والوقائع كافّة دليل على وحدانيّة وحقّانيّة ذاته المقدّسة . افرضوا أنّكم موجودون في عالم الوجود وحدكم ، دون أن يكون معكم موجود آخر وافرضوا أن ليس هناك من معاد ؛ لكنّ وجودكم نفسه أمرٌ لا يمكن إنكاره ، فأنتم موجودون ولا يمكنكم إنكار وجودكم . فماذا كنتم سابقاً ؟ أكنتم تراباً ثمّ صرتم نطفة ؟

إنّ أصـل النـطفة مـن الدم ، والدم هـو جـوهر الغـذاء الذي تـناوله الإنسان ، وكان ذلك الغذاء إمّا لحماً أو حبوباً أو خُضَراً أو فواكه . فأصـل الإنسان ـ إذَن ـ من التراب ، لأنّ المادّة الأصليّة لهذه الموادّ هـي التـراب . ولقد تبدّل هذا التراب علقة ودماً متخثّراً ، ثمّ تحوّلت النطفة تدريجيّاً إلى

١ـ الآيات ٥ إلى ٧ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

مادّة كمثل المضغة من اللحم ، ثمّ صارت عظاماً . وما أعجب العظام التي خلقها ربّنا ! عظام القدم ، وعظام اليد ، وعظام الصدر . ولم يحصل في خلق الله وصنعه أيّ خطأ ، كأن يضع عظام الصدر في القدم مثلاً أو بالعكس . ولم يخلق العظام حادّة الحافّات فتؤذي اللحم ، ولم يضعها بحيث تخرج من اللحم والعضلات ، بل صنعها كما لو كانت قد صُقلت وبُردت بالمبرد .

والعجيب أنّ بين هذه العظام تزييتاً دائماً يحول دون تآكلها الناتج من احتكاك بعضها ببعض .

إنّ رجال الصناعة الذين يعملون بآلات خراطة المعادن وصقل سطوحها ومكائن التفريز وأشباه ذلك يعمدون إلى تشحيم تلك الآلات لئلا تتآكل نتيجة دوران العجلات والعجلات المسنّنة واحتكاك بعضها ببعض ، ممّا يولّد أصواتاً عند احتكاكها ويفضي ذلك إلى عطب الآلات وتوقّفها عن العمل . وهكذا فإنّ هذه العجلات يجب أن تكون مزيّتة باستمرار لتعمل جيّداً .

وحين يتحرّك إصبع الإنسان ، أو تتحرك مفاصل الإصبع أو المعصم أو المرفق أو العمود الفقريّ ، أو كلّ مفصل يتحرّك فيه العظمان المتّصلان معاً ، فإنّ ذلك المفصل يتزيّت بنحو تلقائيّ بمجرّد إرادة الإنسان ومشيئته لتحريك ذلك المفصل ، فتتزيّت أطراف العظام على أفضل صورة . والعجيب أنّ الإنسان عندما يريد حَنْوَ إصبعه فإنّ تلك المادّة الزيتيّة اللزجة اللاصقة تترشّح في تلك النقطة المعيّنة ، فإذا أُوقف الإصبع أو أُوقفت سائر المفاصل عن الحركة ، توقّف معها عمل التزييت .

أفنحن الذين نقوم بهذا العمل ؟! خسئنا ! خسئنا حقّاً !

إنّنا لو أردنا أن نعمل على آلة ما ، فقد يحدث أن نفقد علبة الشحم أو مادّة التزييت فنبحث عنها ساعة هنا وهناك ، ولعلّنا لا نعثر عليها في

الأعمّ الأغلب. فأنّى لنا أن نتمكّن من ذلك! ناهيك عن أن نقوم في آن واحد بتزييت أكثر مفاصل العظام أو جميعها. وقد قيل إنّ بدن الإنسان يحتوي على أربعمائة وستين عظماً ونيّف. وهذه العظام تتزيّت في مواضعها عند الضرورة والحركة.

لماذا تستقرّ هذه العظام في كلّ بدن بلا زيادة أو نقصان؟ وكلّ واحد منها في موقعه ومكانه، عظم الجمجمة والمخّ في موضعه، وعظام الوجه في مواضعها، وعظام الرقبة، والعمود الفقريّ كلٌّ في موضعه، فلم يحصل أيّ خطأ في هذا الهيكل العظميّ كلّه لدى أفراد البشر جميعهم.[1]

١ـ وما أجمل الأبيات التي أنشدها الشيخ سعدي في كتاب «بوستان» بهذا الشأن، فقال:

بببين تا يک انگشت از چند بند　　به صنع الهی به هم در فکند
پس آشفتگی باشد و ابلهی　　که انگشت بر حرف صنعش نهی
تأمّل کن از بهر رفتار مرد　　که چند استخوان پی زد و وصل کرد
که بی گردش کعب و زانو و پای　　نشاید قدم بر گرفتن ز جای
از آن سجده بر آدمی سخت نیست　　که در صُلب او مهره یک سخت نیست
دو صد مهره بر یکدیگر ساختست　　که گل مهره‌ای چون تو پرداختست
رگت بر تنت ای پسندیده خوی　　زمینی در او سیصد و شصت جوی
بَصَر در سر و رای و فکر و تمیز　　جوارح به دل، دل به دانش عزیز
بهایم برو اندر افتاده خوار　　تو همچون الف بر قدم ها سوار

(«بوستان»، ص ٢٠٧؛ عن «كلّيّات سعدي» طبعة فروغي)

يقول: انظر إلى الإصبع المكوّن من عدّة مفاصل، فقد خلق الله مفاصلها جنباً إلى جنب في صنع إلهيّ.

إنّ من الأفن والبلاهة أن يقدح المرء بما خلق الله.

تأمّل سير الإنسان ومشيه، كيف خلقه الله من عدّة عظام وصل بعضها ببعض.

وكيف لا تخطو القدم خطوة دون دوران الكعب والركبة والرجل! ⇐

بأيّ سرعة مُذهلة ومحيّرة للعقول تتكوّن العظام ؟ يقال إنّ الطفل يلبث تسعة أشهر في بطن أُمّه ، فهذه المدّة خاصّة بالإنسان ، أمّا بيضة الدجاجة فإنّ هذه التحوّلات والتغيّرات الوجوديّة جميعها تحصل فيها خلال بضع وعشرين يوماً .

وإنّ الأشهر التسعة في بطن الأُمّ قصيرة جدّاً ، إذ إنّ حركة الجنين في غاية السرعة . فإذا ما شاء هذا التراب أن يتبدّل إنساناً ، فإنّه يتطلّب ملايين السنين من الزمن . وإذا ما أراد هذا التراب بسرعته الذاتيّة وحركته الجوهريّة أن يتحرّك باتّجاه صيرورته نطفة ، ثمّ باتّجاه صيرورته علقة ، ثمّ مضغة ، ثمّ إنساناً ، لاحتاج إلى ملايين السنين . ولا يمكننا في الواقع أن نوضّح ذلك من منظار العلوم الطبيعيّة ، ولكنّكم ترون أنّ النطفة في بطن الأُمّ تطوي هذه المراحل البعيدة في تسعة أشهر ، فيولد منها طفل ذو شعر ذهبيّ فنقول : (ما أحسن هذا ! لقد رزق الله فلاناً طفلاً) . لا نزيد على ذلك شيئاً ، ولا نعلم أيّ أسرار وألغاز ، وأيّ عجائب وغرائب ، وأيّ نكات ودقائق قد أودعتها اليد المقتدرة المباركة لأحسن الخالقين في هذا الطفل .

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .

إنّ هذه الأُمور جميعها هي لمعرفة الإنسان وعلمه ، كي يقترب من الله سبحانه ، ويسلك ـ بالتفكّر والتأمّل والتدبر ـ طريق الخلوص والتقرّب .

إنّ الجنين يستقرّ في موضعه من رحم الأُمّ ، فتنام الأُمّ وتستيقظ ،

☜ وليس عسيراً على الإنسان السجود ، إذ لم يكن في صلبه فقرة متصلّبة واحدة .
فقد ركّب مائتي فقرة بعضها على بعض ، ليصوغ منها فقرة طينيّة مثلك .
والعروق في بدنك أيّها المغرور ، أشبه بأرض جرت فيها ثلاثمائة وستّون ساقية .
البصر في الرأس والرأي والفكر والتمييز ، والجوارح في القلب ، والقلب بالعلم عزيز .
البهائم ساقطة منحنيّة ذليلة ، وأنت كحرف الألف سائر على قدميك !

وتتناول طعامها وتتحرّك، وتغتسل وتسير في الظلمة والنور، وفي الماء وعلى اليابسة، وتركب إحدى وسائط النقل، وتجلس في الباخرة أو الطائرة، لكنّ رحم الأُمّ يبقى في كلّ الأحوال كالمهد، يحتضن الطفل في حجره الحنون. ويهزّه أحياناً بينما يحافظ على استحكامه واستقراره ولا يطرأ عليه أيّ تزلزل وخللٍ أبداً. **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**.

ثُمّ نخرجكم من رحم الأُمّ في هيئة طفل قد نبت شعر رأسه وظهرت أصابعه وأظفاره وخُطّ بنانه، ونمت رموش عينيه. طفل تتلألأ عيناه وتومضان كمصباحين متألّقين، يبكي ويُعلن ببكائه جوعه، وتبحث شفتاه عن الثدي لامتصاص الحليب.

ندفع هذا الطفل باتّجاه كماله دائماً، ونسوقه إلى فعليّة درجات القابليّة والاستعداد:

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ.

فنصل بكم إلى مقام إحكامكم واستحكامكم في القوى الظاهريّة، ونبلغ بكم درجة شدّة الشباب وقوّته وبلوغه والنبوغ في العقل والأحاسيس والنشأة. وكمال قوى التفكير وسائر القوى الباطنيّة، وقدرة الهيكل الجسميّ وعظمته. وإجمالاً أنّكم قد وصلتم إلى مراحل فعليّة القوى الكامنة لديكم.

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا.

ثُمّ إنّ البعض منكم يُتوفّون قبل أن يصلوا إلى مرحلة الشيخوخة، والبعض الآخر يردّون إلى أرذل العمر والعيش، فيفقدون قواهم بأجمعها وينتابهم العجز بحيث لا يُبقي لهم أيّ بهجة ونشاط، ويغلب عليهم النسيان بعد كلّ مراحل العلم والمعرفة، حتّى كأنّهم لم يعلموا شيئاً أساساً.

وكما يُلفّ الطفل الرضيع في القماط وينظّف من الأقذار، فإنّ هنا العجوز الطاعن في السنّ يجب تعاهده وتنظيفه على الدوام. وهكذا فإنّ تلك العظمة والقدرة، وذلك النشاط والحركة، وذلك الإحساس والرأفة، وذلك العقل والكياسة، وذلك العلم والبصيرة، سيطوي ملفّه ويودّع وداعاً أبديّاً ويرحل، فلا يبقى منه أيّ أثر.

لقد دُفنت الدراية والذكاء في تراب النسيان دفعةً واحدة، وعاد المرء لا يميّز يده اليمنى عن اليسرى، ولا يفرّق بين يوم الجمعة ويوم السبت. لقد كان قبل سنين يسمّي نفسه (أعلم العلماء) ويضفي على نفسه ألقاباً فذّة تفرّد بها على وجه الأرض، وكان يحفظ في صدره كتباً فلسفيّة واستدلاليّة وفقهيّة. وها هو قد بلغ أمره درجة أنّه إذا خرج إلى مكان ما، نسي محلّ عودته إلى منزله فيبقى حائراً؛ وإذا غمس إصبعه في العسل، فإنّه يضع إصبعه الآخر في فمه فيلعقه سهواً.

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً.

أيّها الناس! إنّكم ترون الأرض هامدة ساكنة لا حراك فيها، ويابسة لا طراوة فيها، كأنّها فقدت أيّ أثر للحياة، وهي تظهر في فصل الشتاء على هيئة ميّت لا أثر له، وعلى هيئة جذور شجرة لا أثر فيها لساق وأوراق وأزهار وثمار. فمن يحتمل ـ يا ترى ـ أن تكون فيها حياة جديدة؟

فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ.

فإذا أنزلنا عليها الماء من السماء اهتزّت وتحرّكت واكتسبت الحياة، ونمت فأنبتت من كلّ زوج بهيج من أقسام الأعشاب والأشجار والإنسان والحيوان، وصارت تفيض جميعها بالبهجة والقوّة والنشاط.

الأشجار جميعها خضراء، ومتحرّكة. ليس بهذه الحركة الظاهريّة، بل إنّ لها حركة في داخلها وفي جوهرها وكينونتها. فهي متحرّكة في الكمّ

والكيف وفي (أين) و(متى) ، وفي ظلّ سائر الأعراض . ومتحرّكة في جوهرها وذاتها مع تغيّرات وتبدّلات سريعة .

ولو وضعنا ورقة شجرة تحت المجاهر القويّة لرأينا أنّ في داخلها خِلالاً وفتحات كثيرة ،كالأنهار التي تطفو فيها الأسماك ؛ والموادّ الغذائيّة تتحرّك فيها باستمرار وهي تماثل حركة أشياء طافية داخل هذه الأنهار . وهذه الورقة متحرّكة على الدوام .[1]

إنّنا ننظر إلى هذه الأوراق نظراً ساذجاً عابراً ، وقد نقطفها حين نريد تناول العنب والتوت وأمثالها ، فنضع هذه الأوراق في إناء ونضع عليها العنب والتوت مثلاً ؛ إلّا أنّنا لا نعلم ماذا في هذه الأوراق . إنّ الأشجار جميعها متحرّكة في ذاتها، جذورها، وجذوعها، وسياقها وفروعها وأوراقها . الخلايا جميعها في حركة ، وهي ذات قوّة لتناول الغذاء وللنموّ والهضم والإفراز ، وتميّز بين العدوّ والصديق ، وهي في صدد كسب المنافع لنفسها ودفع الضرر عنها ما وسعها ذلك . ثمّ إنّ كلّ ورقة شجرة لا تفقد خواصّها

١ـ يقول الشيخ سعدي الشيرازيّ في («بوستان» ص ٤٠٧ ، نقلاً عن «كلّيّات سعدي» طبعة فروغي) :

شيوهٔ نرگس ببين نزد بنفشه نشين — سوسن رعنا گزين زرد شقايق بيار
خيز و غنيمت شمار جنبش باد ربيع — نالهٔ موزون مرغ بوي خوش لاله‌زار
هر گُل و برگى كه هست ياد خدا مى‌كند — بلبل و قمرى چه خواند ياد خداوندگار
برگ درختان سبز پيش خداوند هوش — هر ورقى دفتريست معرفت كردگار

يقول : انظر طبع زهرة النرجس ، واجلس عند زهرة البنفسج ، واختر السوسن الجذّابة ، وهاتِ الشقائق الصفراء .

انهض واغتنم هبوب نسيم الربيع ، وحنين الطيور الموزون ، وعطرَ روضة الورد .
كلّ وردة وورقة موجودة تذكر الله ؛ وما شدا البلبل والقُمري كان ذكراً للخالق .
وكلّ ورقة شجرة خضراء عند أُولى الألباب ، هي دفتر لمعرفة الخالق المتعال .

الأوّليّة ، بل تحتفظ بها باستمرار ، وتحافظ على وجودها ولا تختلط بخواصّ سائر الأوراق المزروعة في مزرعة ما . فمن ذا الذي صنع ذلك ؟ من الذي خلق هذه الحياة من الأرض الميّتة الهامدة الجامدة الصامتة ؟ أيّ رسّام أبدع هذه اللوحة المدهشة لرياض الأزهار والأوراد ؟ من الذي بَرَأ الإنسان والحيوان من هذه الأرض الميّتة ؟ مَن خلق الطاووس الجميل ؟ مَن أنشأ الزاغ والغراب الأسود ؟ من ذرأ العصفور والصقر ؟ من أوجد البعوضة والفيل ؟ ومن وضع غصن الورد وشجرة الدُّلب وشجرة الصفصاف ؟

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

اعلموا ، ولا تسقطوا إنسانيّتكم بإسدال ستار الغفلة على فهمكم ودرايتكم ، أنّ الله قد فعل ذلك ، وأنّها جميعها معتمدة على الله وقائمة بذاته سبحانه وتعالى .

ولقد كانت هذه الأمثلة التي أوردناها ، والنماذج التي فصّلناها من أجل أن تعلموا أنّه **هُوَ ٱلْحَقُّ** ، وأنّه يُحيى الموتى بهذه الطريقة والكيفيّة وبمنتهى السهولة واليسر ، وأنّه على كلّ شيء قدير .

فما الذي يعنيه إنماء الوردة من الطين والتراب ؟ وما الذي يعنيه خلق البلبل من التراب والرمل والطين ؟ وما الذي يعنيه بثّ التغاريد الفتّانة في البلبل ؟ وما الذي يعنيه إيجاد الحماس والإحساسات ؟ وما الذي يعنيه العشق والجَذْبة والمناجاة ؟

اين همه نقشِ عجب بر در و ديوار وجود
هر كه فكرت نكند نقش بود بر ديوار[1]

١ـ يقول : كلّ هذه الرسوم العجيبة مبثوثة في أرجاء الوجود ، فمن لم يُعمل فكره ⇦

يأتي البرد القارس فيهدّد الأرض في فصل الشتاء ، ويسقط الثلج فيجعلها مكتئبة ، وتعصف الرياح الباردة القاسية اللاذعة من كلّ صوب وحدب (مع أنّها من آيات الله الكبرى أيضاً وهي لا تختلف عن تلك الوردة والبلبل حقّاً) ، أمّا في فصل الربيع فتخضرّ الروضة ، وتنمو الأوراد والأزهار ، وتعبق العطور والنسائم المنعشة المبهجة للرياحين والورود من كلّ جهة ، وماذا تفعل البلابل وطيور الكناري والببغاوات ؟

ومن الذي صنع هذا كلّه ؟

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ .

إنّ الله سبحانه يُحيي الموتى باستمرار ، وهذه الأُمور هي دوماً خلع ولبس ، وموت وحياة ، فظهور الثلج والمطر والبرد اللاذع القارس ، وذَرْأُ الأوراد والبلابل والرياض والمروج هي بأجمعها إحياء للموتى . وليس إحياء الإنسان وبعثه من القبور شيئاً غير هذا ، بل إنّه جزء من أجزاء هذا القانون والناموس العامّ والقدرة اللا متناهيّة .

وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أفتشكّون في حياتكم أنتم ؟ أليست هذه حياةً ؟ ألم تكن هذه ميّتة فأحياها الله ؟ ألم يكن ميّتاً ذلك الإنسان الذي كان نطفة أو تراباً بلا حسّ ولا حركة ؟ فلا تدعوا تلك النطفة إنساناً أصلاً ! إذ إنّها لم تكن شيئاً ، بل كانت عدماً ،كانت عدماً محضاً . ثمّ إنّ الله جاء بالإنسان من كتم العدم إلى الوجود . وهذه البلابل وطيور الكناري ، وهذه الحيوانات ذوات الإحساس والشعور التي لم تكن موجودة ،كانت ميّتة وعدماً أيضاً .

وهذه الأوراق والسيقان والأشجار ، وهذه المياه والثمار والنسائم ،

⇐ فيها كان كالرسم على الجدار .

كانت كلّها ميّتة ، وهكذا الأمر في الأرض التي كانت ميّتة هامدة كئيبة . فمن الذي نفخ في هذه الأرض ؟ وأيّ قدرة وعلم وتدبير وحكمة كوّنت هذه الروحة والمنظر ، بحيث بُعثت الأرض ومحتوياتها فاكتسبت حياةً جديدة ، ونشطت وتحرّكت بفعّاليّة ، فظهر في كلّ شبر منها آلاف مؤلّفة من ضروب الحياة ، وتحرّكت آلاف الموجودات الحيّة وفق نظام صحيح للبدء والعودة ، وببرنامج معيّن ومشخّص للموت والحياة والسير الواضح المعلوم ، متحرّكة من القابليّة إلى الفعليّة ، من الاستعداد إلى الكمال ، بلا تفاوت ولا اختلاف ، وتحرّكت كلّ بعوضة وذبابة نحو كمالها أيضاً بإتقان وكمال وجدّ .

يار بى پرده از در و ديوار	در تجلّى است يا أولى الأبصار
شمع جوئى و آفتاب بلند	روز بس روشن و تو در شب تار
گر ز ظلماتِ خود رَهى بينى	همه عالم مشارق الأنوار
كوروَش قائد و عصا طلبى	بهر اين راه روشن و هموار
چشم بگشا به گلستان و ببين	جلوهٔ آب صاف در گل و خار
ز آب بيرنگ صدهزاران رنگ	لاله و گل نگر در آن گلزار[1]

١ـ من جملة أشعار السيّد أحمد هاتف الإصبهانيّ ، نُقلت من «ديوان هاتف» .
يقول : إنّ الحبيبَ السافر يا أُولي الألباب في تجلٍّ .
أتنشد الشمعَ والشمس في وسط السماء ؟! إنّ ضوء النهار شديد وأنت في ليلٍ بهيم !
فإن وجدتَ خلاصاً من ظلماتك ، لرأيتَ العالم كلّه مشارق الأنوار .
أفتطلب عصاً ودليلاً كالعميان ، لتسير في هذا الدرب المضاء الرحب ؟!
افتح عينيك وتطلّع إلى البستان ، وانظر تجلّي الماء الصافي في الورد والأشواك !
وانظر في تلك الروضة مئات الآلاف من ألوان أوراد الشقائق والأزهار ، من ماءٍ لا لونَ له !

پا به راه طلب نه از ره عشق		بهر این راه توشه‌ای بردار
شود آسان ز عشق کاری چند		که بود نزد عقل بس دشوار
یار گو بالغدوّ و الآصال		یار جو بالعشیّ و الإبکار
صد رَهَت لَنْ تَرانی ارگوید		باز می‌دار دیده بر دیوار
تا به جائی رسی که می نرسد		پای اوهام و پایهٔ افکار
بار یابی به محفلی کانجا		جبرئیلِ امین ندارد بار
این ره آن زاد راه آن منزل		مردِ راهی اگر بیا و بیار
ور نِه ای مردِ راه چون دگران		یار می‌گوی و پشت سَر میخار
هاتف ارباب معرفت که گهی		مست خوانندشان و گه هشیار
از مِی و بزم و ساقی و مطرب		وز مُغ و دیر و شاهد و زُنّار
قصد ایشان نهفته اسراریست		که به ایما کنند گاه اظهار[1]

١ـ فضع على طريق الطلب قدمك بواسطة العشق ، وتزوّد لهذا الطريق زاداً .
فطالما تيسّر بالعشق عملٌ كان شاقّاً عسيراً على العقل .
ونادِ الحبيب بالغدوّ والآصال ، واطلب الحبيب بالعشيّ والإبكار .
فإن قال في دربك مائة مرّة (لَنْ تَرَاني) ، فاحبس البصر على الجدار .
حتّى تصل إلى حيث لم تصل قدم الأوهام ، ولا أساس الأفكار .
وحتّى يؤذَن لك بالتشرّف في محفلٍ لم يكن لجبرئيل الأمين إذن لوروده .
هذا هو الدرب ، وذاك الزاد ، وذاك المنزل والهدف ، فإن كنت سالكاً فهلمّ .
وإن لم تكن سالكاً (درب التوحيد) كالآخرين ، تتشدّق باسم الحبيب وتكرع الكأس في السرّ .
يا هاتف (وهو اسم الشاعر) إنّ أصحاب المعرفة يُدْعَون ثمالى طوراً وصاحين طوراً آخر .
إنّ قصدهم من الخمر والحفل والساقي والمطرب ، ومن المجوسيّ (كناية عن العارف ووليّ الحقّ) والدير والشاهد والزنّار .

پـی بـری کـه بـه رازشـان دانـی کـه هـمینست سِـرِّ آن اسـرار
که یکی هست و هیچ نیست جز او وَحْـدَهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـو[1]

بلى ، يتصاعد هنا تلقائيّاً من فم كلّ عبد موحّد نداء :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ .

فحصر الحقّانيّة في الذات المقدّسة للّه تعالى شأنه دليل على حصر الصفات والأسماء فيه جميعها سبحانه . إنّ الإنسان يتصوّر أنّه يمتلك وحده هدفاً ومسيراً ، لكنّ الأمر ليس كذلك .

توحید گوئی او نه بنی آدمند و بس
هو بلبلی که زمزمه بر شاخسار کرد[2]

وهكذا فإنّ لكلّ ذبابة هدفاً ، ولكلّ بعوضة هدفاً ، فهذا البعوض الذي يحطّ على الورد له هدف ومقصد وآمال ، وله تناكح وتناسل ، وله زوجة وأولاد ، وله عشق ومناجاة ، وله مسير ، وله حياة وموت وله معبود وعبادة .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .[3]

إنّ هذه الموجودات جميعها لها أثر وخاصيّة ، في وجودها على أساس من المصلحة والحكمة .

١ـ يقول : أسرار خفيّة يُشيرون إليها تارة ، ويُظهرونها تارة أُخرى ؛ فإن أدركت سرّهم حيناً علمت أنّه سرّ تلكم الأسرار .

وأنّه واحد ليس شيء عداه ، وهو وحده لا إله إلّا هو .

٢ـ يقول : إنّ القول بالتوحيد لا يقوله بنو آدم وحدهم ، بل يقوله كلّ بلبل مغرّد على الفَنَن .

٣ـ الآية ٣٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

أرأيتم العنب الياقوتيّ؟ إنّ حبّاته مهما تراصّت فإنّ هناك حشرة صغيرة تتحرّك على هذه الحبّات وتنفذ أحياناً إلى داخل العنقود، ونحن نسمّي هذه الحشرة حشرة الدعسوقة (الرقّاء)، وهي حشرة صغيرة ذات أجنحة حمراء منقّطة بنقط سوداء، ومن الطبيعيّ أن لا شأن لهذه الحشرة بالعنب الياقوتيّ فحسب، بل إنّها موجودة على غالب الخضراوات والاسباناخ والأعناب الأُخرى، لكنّها تكثر على العنب الياقوتيّ خاصّة وتحبّ الدخول بين حبّاته. وهي حشرة سامّة يُقال إنّ أكلها خطر، ولو أنّ الإنسان أكل منها اثنتين لمات.

ذهبتُ ذات ليلة أيّام صباي مع المرحوم والدي إلى مجمع علميّ كان قد دُعي إليه. فجرى الحديث حول هذا الموضوع هناك، وقيل إنّ الكتب العلميّة ذكرت بأنّ هذه الحشرة سامّة يكفي اثنتان منها لإهلاك الإنسان، وقيل خاصّة أنّ على الإنسان أن يتناول العنب الياقوتيّ حبّة حبّة لئلّا تؤكل معه حشرة الدعسوقة المختفية في طيّاته.

فخطر في ذهني سؤال حول الحكمة من خلق الله تعالى هذا الكائن السامّ، وجَعْله في مكان حسّاس كهذا، ليؤدّي بالنتيجة إلى موت الإنسان، أو ليختفي في الخضراوات والاسباناخ فيسبب الخطر، ثمّ تبيّن لي في أيّام شبابي بعد البحث والتدقيق أنّ هذه الحشرة ليست من جنس الحشرات السامّة.

ولقد خلقها الله سبحانه لدفع السموم عن النباتات، وأنشأها للقضاء على المكروبات، وهي في حركة دائبة دائمة فوق حبّات العنب وفوق سيقان الخضراوات، تصعد من الأسفل إلى الأعلى، وتهبط من الأعلى إلى الأسفل، فتلتهم كلّ حشرة وموجود مجهريّ فوقها؛ ويصبح بدنها نتيجة ذلك محلّاً لتجمّع السموم. فهي تقوم بتعقيم العنب والخضراوات لنا،

وتقضي على المكروبات الموجودة فيها .

نحن نرقد في الليل براحة تامّة ، لكنّ هذه الحشرة يقظة تحرس سيقان الاسباناخ والكرّاث والحلبة والبقدونس ، وتلتهم السموم وتنقّي النبات وتسلّمنا إيّاه معقّماً .

فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ .[1]

وقد رأيتُ في بعض المزارع أنّ الفلّاحين لا يقتلون هذه الحشرة ويقولون إنّها مفيدة لدفع الآفات .

إذَن ، لهذه الحشرة وظيفة تؤدّيها ، فهي تكثر في النباتات التي تكثر سمومها ، وهكذا فإنّنا نرقد وترقدون في الليل ، ثمّ نذهب صباحاً إلى دكّان بائع الخضراوات لشراء الخضراوات والعنب الياقوتيّ ، فنجد أنّ حشرة الدعسوقة قد قامت في الليلة السابقة بتعقيم هذه الخضراوات وهذا العنب من وجود البكتريا والمكروبات .

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ .

إنّ كلّ من يرقد في جوف الليل ثمّ يستيقظ صباحاً فقد كان له موت وحياة ، لا شكّ في هذا الأمر ، موت وبعث جديد ، ولا أعجب من النوم والاستيقاظ ولا أغرب منهما . إنّنا نواجه طوال يومنا ملايين العجائب والغرائب التي يصل كلّ منها إلى حدّ الإعجاز ، حتّى أنّ كلامنا هذا واستماعكم وإدراككم كلّ ذلك معجزة ، فنزول المطالب والمعاني من صقع النفس وعالم الذهن إلى عالم الألفاظ معجزة ، وصعود الألفاظ بواسطة الاستماع إلى عالم المعنى في الذهن ، ثمّ إلى جهة النفس معجزة أيضاً . وهناك الآلاف من هذه المعجزات تحصل كلّ آن ، إلّا أنّنا لا نعدّها معجزة

١ـ الفقرة الأخيرة للآية ١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

أصلاً .

إنّ الدم الذي يجري في أبداننا يقوم بوظيفته في تبديل وتحليل ما يتحلّل من ذرّات كلّ نقطة بما يتناسب معها هو معجزة ، والحركة الدائمة للقلب دون لحظة واحدة من فتور وتوقّف معجزة ، وعمل الكلية وهذا الجهاز المعقّد والمختبر السيّار معجزة . وعمل المخّ معجزة ، وكلّ خليّة مشغولة بعملها وفق الأمر الإلهيّ في عدم تغيّرها وكيفيّتها ، وهذا بحدّ ذاته قصّة عجيبة ومعجزة .

وهذا الهواء ، وهذا الفضاء ، وهذا الماء ، وهذا النبات ، وهذه الشجرة ، وهذا الحيوان ، وهذا الإنسان ، كلّ أُولئك معجزة ؛ غاية الأمر أنّنا نرى هذه الحوادث يوميّاً ، لذا صرنا ننظر إليها نظراً عابراً عاديّاً ، فالمشابهات قد تخطّت لدينا أمر العجب والغرابة ، أمّا لو حصل شيء ما خلافاً للمعتاد ، وليس له شبيه ، لعددناه معجزة ولأذعنّا آنذاك واعترفنا بقدرة الله تعالى .

وهذا الأمر ناشئ من استغراب الأُمور غير الواقعة والنوادر من الوقائع والحوادث ، لا من حيث تعلّق قدرة الله بالأُمور غير العاديّة . فقدرته سبحانه لا تتفاوت بالنسبة إلى الأُمور العاديّة وغير العاديّة .

ولكن إذا زرعنا بذرة في الأرض وسقيناها بالماء ، وأشرقت عليها الشمس فتفتّحت وصار القسم الأسفل منها جذراً والأعلى ساقاً وأوراقاً لما أوليناها أدنى اهتمام ، ولاعتبرنا ذلك أمراً اعتياديّاً ، ولما عددنا ذلك من المقدورات بقدرة الله عزّ وجلّ ، ولما جلسنا عند هذا النبات والورد للتدبّر والتفكّر والمشاهدة لساعة ، ولما تأمّلنا هذه المعجزات بحذافيرها بحيث نرى فيها تجلّيات ذات الحقّ نصب أعيننا ، لذا فإنّنا نتخطّاها بنظر عابر ساذج .

نحن نمرّ على مزرعة الحنطة التي تُعدّ كلّ بذرة فيها معجزة ،

فنتجاوزها بلا اهتمام، إذ لا نأخذ منها العبر، أمّا لو فرضنا أنّنا بذرنا بذرة في الأرض فنمت معكوسة، بحيث امتدّت ساقها وأوراقها وأزهارها وثمارها إلى الأسفل في داخل الأرض، وارتفع جذرها من الأرض إلى الأعلى، لصرخنا فوراً: لقد حدثت معجزة، لقد حدث شيء مخالف للعادة! وهكذا نقوم بنشر هذا الخبر في وسائل الإعلام، فيهجم المراسلون والمصوّرون من أطراف العالم وأكنافه يتساءلون عن الخبر، لقد أرتفع الجذر إلى الأعلى واتّجه الساق إلى الأسفل.

ما الخبر، لقد وُلد إنسان له رأسان وأربع أيدٍ!

هل هو أعجب من هذا الإنسان العاديّ؟ **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**. كم من العجائب والغرائب في هذا الطفل ذي الشعر الذهبيّ الذي يولد من رحم أُمّه؟

انظر إلى تفّاحة واحدة تشتريها من بائع الفواكه «مشهدي حسن» فتأكلها، كم هي مشحونة بالعجائب؟ إنّ ليلنا ونهارنا عجائب، ولقد أحاطت بنا المعجزات والعجائب من كلّ صوب، فنحن نواجه كلّ لحظة آلاف العجائب، ونلتقي بآلاف المظاهر من علم الله المتعال وقدرته فلا نأبه لأيّ منها؛ فإذا وجدنا في زاويةٍ ما شيئاً مخالفاً للمعتاد اجتمعنا حوله فصرنا نتحدّث عن قدرة الله سبحانه. وهو أمر يرجع إلى قصور فكر الإنسان، وإلّا فإنّ أحداً لو أراد حقّاً البحث عن قدرة الله ومشاهدة تلك القدرة عياناً، فإنّ العالم جميعه وكلّ واحد من ظواهره وموجوداته قدرة الله سبحانه. العالم برمّته قدرة، وعلم، وحكمة. أين نذهب فيكون ذلك المكان خارج علمه وقدرته وحكمته، ثمّ نريد أن نعثر عليه هناك؟! أين المكان الذي لا علم فيه؟ وأين المكان الذي لا قدرة فيه؟ وأين المكان الذي لا حياة فيه، لنذهب هناك ونعثر على الله سبحانه؟! نحن نرى هذه

الأُمور في حياتنا اليوميّة ولا نعجب ، ثمّ نقول حينئذٍ : أنّى يُحيي الله الميّت ؟ هنا تتعثّر خطى الإنسان فيعترض آلاف الاعتراضات على قدرة الله ، ويؤلّف المادّيون الكتب ، ويُنكر الدهريّون ، ويُثيرون الصخب والضجيج ، وينفخون في النفير . أن :كيف يبعث الله ميّتاً تلاشى تحت الأرض ، وعظاماً صارت رميماً ورماداً ؟ .

علماً أنّ الإشكالات التي يثيرها المادّيون هذه الأيّام ليست بالشيء الجديد ، بل هي نفس الاستبعاد الذي كان المادّيون يتذرّعون به قبل عدّة آلاف من السنين .

وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .[1]

لقد تلاشت أبدانكم تحت الأرض ، لكنّ حقيقتكم لم تتلاشَ بعدُ ، ولقد كانت لكم أطوار معيّنة :كنتم تراباً ، فصرتم نطفة ، ثمّ عَلَقة ، ثمّ مُضغة ، ثمّ عظاماً ، ثم أُنشئتم خلقاً آخر واكتسبتم قوّة النطق وروح الإنسانيّة فخرجتم طفلاً ، ثمّ وصلتم إلى مقام القدرة والشدّة وحزتم حدّ النصاب . وها أنتم قد انتقلتم من الدنيا إلى البرزخ ، فصار بدنكم تحت الأرض ، لكنّ وجودكم لم يذهب ولن يذهب تحت الأرض . لأنّ ملك الموت يقبض وجودكم وحقيقتكم ، فيُبقونكم في البرزخ . وحين تقوم القيامة يُجمع بين الروح والبدن ويُؤلّف بينهما ، فتحضرون بأجسامكم هذه في القيامة .

إنّ عود الروح إلى البدن أيسر على الله من شربنا الماء ، وينبغي ألّا

١ـ الآيتان ١٠ و ١١ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

نعدّ هذا العمل غريباً ممتنعاً ونحن نشاهد قدرة الله وعظمة ذاته القدسيّة اللا محدودة واللا متناهية ، وألّا يُعدّ محالاً بمجرّد الاستبعاد ، وسنبيّن إن شاء الله تعالى فيما بعد كيف يكون إحياء الموتى أيسر من شُرب الماء . إنّ هذا الإنسان الميّت يُبعث : **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** (تتمّة الآيات مورد البحث) .

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .[1]

نحن مِلك مطلق للّه تعالى ، وسنعود إليه لا محالة .

از جمادی مُردم و نامی شدم	و ز نَما مُردم به حیوان سر زدم
مُردم از حیوانی و آدم شدم	پس چه ترسم کی زمردن کم شدم
حَملهٔ دیگر بمیرم از بشر	تا برآرم از ملائک بال و پر
و ز مَلَك هم بایدم جَستن ز جو	كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ
بار دیگر از مَلَك قربان شوم	آنچه اندر وَهْم ناید آن شوم
پس عدم گردم عدم چون ارغنون	گویدم : إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون[2]

إنّ الإنسان لن يقرّ قراره ما لم يصل إلى موطنه الأصليّ ، وموطن الإنسان حرم الله تعالى ، فهناك محلّ استقرار القلب وهدوئه . ولقد قدم

١ـ النصف الثاني للآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ «مثنوي» طبعة ميرخاني ، المجلّد الثالث ، ص ٣٠٠ .

يقول : مُتُّ من الجماد وصرت اسماً ، ثمّ مُتُّ من النموّ فصرتُ حيواناً .

ثمّ مُتُّ من الحيوانيّة فصرتُ بشراً ، فَلِمَ الخوف ـ إذَن ـ من النقصان بالموت ؟

إنْ هي إلّا هجمة أُخرى لأموت من الآدميّة ، فآخذ من الملائكة ريشاً وجناحاً !

ثمّ إنّ عَلَيَّ أن أقفز من المَلَك ، إذ : كلّ شَيء هَالِك إلّا وجهه .

عَلَيَّ أن أضحّي مرّة أُخرى من مرحلة المَلَك ، لأصبح ما لا يناله الوهم والخيال .

فلأكن عدماً ، عدماً كالأرغن ، قائلاً : إنّا إلَيه راجعون .

الإنسان إلى الدنيا للكسب والعمل وتحصيل زاد المعرفة ، ثمّ إنّ عليه الرجوع . وعليه العودة بثروة وخَلاق .

دلا تا كى در اين چرخِ مجازى
كنى مانند طفلان خاك بازى
تويى آن دست پرور مرغ گستاخ
كه بودت آشيان بيرون از اين خاك
چرا از آن آشتيان بيگانه گشتى
چو دونان مرغ اين ويرانه گشتى
بيفشان بال و پر ز آميزش خاك
بپر تا كنگره ايوان افلاك[1]

خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ .[2]

إنّ الإنسان لا يفنى مبدئيّاً ، وليس للعدم المحض سبيل إليه . فالموت والبعث خلعٌ ولبس ، والحركة إلى البرزخ إلى القيامة هي المسير الكماليّ للإنسان وصعوده إلى الله المتعال ، وهي قابليّة الحضور في محضر العلم والقدرة والحياة اللا متناهية . فالموت ـ إذَن ـ هو كمال الإنسان لا فتوره وضعفه ونقصانه .

١ـ يقول : إلى متى تلهو ـ أيّها القلب ـ في هذه العجلة المجازيّة كطفل يلهو بالتراب ؟
أنت أيّها الطائر المروّض الجسور الذي كان عشّه خارج هذا التراب .
لِمَ صرتَ غريباً عن عشّك ذاك ، و صرت طائر هذه الخربة كالسفلة ؟
فانشر جناحك عن ممازجة التراب ، و حلّق إلى شرفات أيوان الأفلاك !

٢ـ رسالة مخطوطة في المعاد باسم «الإنسان بعد الدنيا» تأليف العلّامة الطباطبائيّ ، ص ٢ ، وقد نقله عن المرحوم الصدوق وغيره ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال : **مَا خُلِقْتُمْ لِلْفَنَاءِ بَلْ خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ وَإِنَّمَا تَنْقَلِبُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ .**

وما أروع الأبيات التي أنشدها الإمام سيّد الشهداء عليه السلام في الموت إذ قال:

لَئِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُعَدُّ نَفِيسَةً
فَدَارُ ثَوَابِ اللَهِ أَعْلَى وَأَنْبَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِأَتْ
فَقَتْلُ امْرِىءٍ بِالسَيْفِ فِي اللَهِ أَفْضَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ شَيْئاً مُقَدَّراً
فَقِلَّةُ سَعْيِ الْمَرْءِ فِي الرِّزْقِ أَجْمَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَمْوَالُ لِلتَّرْكِ جَمْعُهَا
فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْمَرْءُ يَبْخَلُ [١]

١ـ «إحقاق الحقّ» الملحقات، ج ١١، ص ٦٣٧، نقله عن أبي الفداء في «البداية والنهاية» (ج ٨، ص ٢٠٩ طبعة القاهرة)؛ وكذلك عن أبي الفداء في كتاب «أهل البيت» (ص ٤٤٠، طبعة القاهرة). وأورده في هذا الكتاب بلفظ:
(فَقِلَّةُ حِرْصِ الْمَرْءِ فِي السَّعْيِ أَجْمَلُ) بدلاً من (فقلّة سعي المرء في الرزق أجملُ).

المجلس الرابع والثلاثون

إنكار الطبيعيين لأمر المعاد لا يستند على أسس علمية



بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّٰه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيم .[1]

إنّ استدلال المادّيّين والدهريّين على عدم وجود المعاد لا يرتكز على مسألة علميّة ، ولا يتجاوز مجرّد الاستبعاد كما سلف .

إنّ قولهم هو : كيف يحيي الله الموتى ويخلع عليهم رداء الوجود بعد العدم ؟

إذ إنّ هذا الأمر أمر بعيد لا يوافق العقول ـ بزعمهم ـ والشبهات التي يثيرونها غير مبتنية على مقدّمات علميّة وبراهين منطقيّة . ذلك أنّ من الجليّ والمبرهن عليه في علم المنطق والميزان أنّ مقدّمات الاستنتاج في

١ـ الآيات ٣ إلى ٥ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

المسائل اليقينيّة للعلوم يجب أن تكون يقينيّة أيضاً .

ولكي يمكن للإنسان أن يحصل على نتيجة يقينيّة من مقدّمات الاستدلال ، فإنّ جميع المقدّمات الواردة في تلك المسألة ينبغي أن تكون يقينيّة . وحينئذٍ فإنّ ذلك الاستدلال يُسمّى القياس والبُرهان ، وتُجعل نتيجته مبدأً ثابتاً يُستفاد منه ويُستدلّ ويُستشهد به في العلوم ، وتُبنى سائر المسائل العلميّة عليه .

أمّا لو لم تكن مقدّمات مسألةٍ ما أو إحداها يقينيّة ، بل كانت مبتنية على أساس الخرص والتخمين من الظنّيّات والشكّيّات والوهميّات ، فإنّ تلك النتيجة لن تصبح نتيجة البرهان والقياس .

وهكذا فإنّ المقدّمات التي يقيمها الطبيعيّون لإثبات عدم وجود المعاد لا تتعدّى كونها نوعاً من المقدّمات التخيّليّة والشعريّة ، لذا فإنّها ليست مسألة برهانيّة ، بل مسألة شعريّة أو خطابيّة لا قيمة لها في العلوم .

إنّ القياس والبُرهان يجب أن يتألّف من إحدى المقدّمات اليقينيّة الستّ ، وهي : الأوّليّات ، المشاهدات ، الفطريّات ، التجربيّات ، المتواترات والحدسيّات ؛ وإلّا فإنّ النتيجة ستكون تابعة لأخسّ المقدّمتين ، وستكون بالمآل وهميّة أو ظنّيّة ، ولن تجد لنفسها موضعاً في الكتب العلميّة .

وقد أُشير في القرآن الكريم إلى إنكار منكري المعاد بوصفه مسألة ظنّيّة :

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .[1]

كما يعدّ القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته اتّباع الإنسان منوطاً بالعلم

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

واليقين فحسب وينهى بقوّة عن اقتفاء الأُمور المشكوكة والمظنونة ، فيقول :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا .[1]

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .[2]

إنّ آذان أهل جهنّم وعيونهم وجلودهم تشهد على أعمالهم ، فيعترضون على شهادة جلودهم فتجيبهم : لقد أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء . فيخاطبهم الله تعالى :

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَ ذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .[3]

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ .[4]

وهو خطابٌ للكفّار الذين يذهبون يوم القيامة إلى جهنّم .

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ .[5]

إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

١ـ الآية ٣٦ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ الآية ١١٦ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٣ـ الآيتان ٢٢ و ٢٣ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٤ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

٥ـ الآية ٣٦ ، من السورة ١٠ : يونس .

سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ.[1]

وكان الخطاب في هذه الآية للمشركين الذين كانوا يعبدون اللّات والعُزّى وأشباههما من الأصنام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا.[2]

والعجيب أنّ الله سبحانه أمر بعد هذه الآية بالإعراض تماماً عن الذين تصوّروا أنّ غاية علمهم هي الوصول إلى المادّيّات وإشباع الغرائز الجنسيّة والعيش الدنيويّ، فأعرضوا بذلك عن ذكر الله سبحانه.

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ.[3]

والخلاصة أنّ الآيات القرآنيّة تُجمع على لزوم العلم واليقين، وعلى عدم جواز اتّباع الظنّ والحدس، سواءً في العقيدة أم في الأفكار، أو في العمل والسلوك.

إنّ المادّيّين والدهريّين لا يمتلكون دليلاً على عدم الإمكان الذاتيّ للقيامة أو عدم إمكان وقوعها، فالذريعة التي يتوسّلون بها في الكتب والمباحاث لا تعدو الاستبعاد ونسج المطالب الشعريّة والخطابيّة. وبشكلٍ عامّ فإنّهم قد تخطّوا بنظر ساذج جميع هذه الآيات الأنفسيّة والآفاقيّة الإلهيّة التي ملأت السماء والأرض، فلم يعتبروا بها ولم يتفكّروا فيها. فلم تكن

١ـ الآية ٢٣، من السورة ٥٣: النجم.
٢ـ الآيتان ٢٧ و ٢٨، من السورة ٥٣: النجم.
٣ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠، من السورة ٥٣: النجم.

هذه الآيات العريضة الطويلة التي طبقت الأرجاء ـ عندهم ـ إلّا آلة للّهو واللعب .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .[1]

كم من آية في السماوات والأرض لتوحيد الله وأسمائه الحُسنى وصفاته العليا وآيات القيامة ونظائرها من الموت والحياة والخلع واللبس وغيرها يمرّون عليها فيضربون عنها صفحاً !

ومن هنا فإنّ أساس قبول الآيات القرآنيّة ونيل الحقائق والأُمور الواقعيّة يتمثّل في حالة إذعان القلب وتسليمه ، وعدم التجبّر والاستكبار الباطنيّ والتحصّن والتخندق مقابل الحقّ تعالى ، فهذا الانقياد وسلامة القلب يجعلان الأدلّة والبراهين العلميّة والآيات الوجدانيّة الإلهيّة تستقرّ على أرضيّة الذهن والنفس ؛ وإلّا فإنّ الأدلّة والبراهين الفلسفيّة والآيات الإلهيّة جميعها ستكون بلا نتيجة وأثر للشخص المعاند والمنكر .

وعلى هذا الأساس ، وكما ورد في سورة الأحقاف ، فإنّه حين نفر من الجنّ طائفة إلى رسول الإسلام واستمعوا للقرآن ، فإنّهم أذعنوا واعترفوا وأسلموا ، وما أن عادوا إلى قومهم حتّى دعوهم إلى قرآنٍ جاء بعد كتاب موسى مصدّقاً للكتب السماويّة الأُخرى وهادياً إلى الحقّ والصراط المستقيم ، وقالوا لهم : أجيبوا داعي الله هذا ، وصدِّقوا برسالة رسول الله هذه وآمنوا بها . ذلك أنّ من لا يُجب دعوته من صميم قلبه فلن يكون له في الأرض وليّ ولا نصير ، وسيلحقه الذلّ والصغار وينغمس في الضلال المبين .

---

١ ـ الآية ١٠٥ ، من السورة ١٢ : يوسف .

يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .[1]

ثمّ إنّ أُولئك النفر المسلمين من الجنّ يقولون لقومهم عن المعاد ويوم القيامة :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .[2]

وقد جاء في آيات قرآنيّة كريمة جمّة أنّ كثيراً من الأُمم السابقة لم تؤمن بالرغم من مشاهدة البرهان والمعجزة اللذين عرضهما أنبياؤهم ، وأنّ حسّ الغرور والعُجب لديهم كان مانعاً من قبول الحقّ والإذعان لواقع الأمر .

وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ، فإنّ أشراف قريش وأعيانهم لم يؤمنوا بسبب تكبّرهم ونخوتهم مع أنّهم كانوا أُناساً أذكياء ذوي فطنة يُعدّون من دُهاة العرب . ولقد كانوا يرون من رسول الله الآيات البيّنات والمعجزات الواضحة غير القابلة للتأويل ، إلّا أنّ الاستكبار والتعالي ـ مع ذلك كلّه ـ كان يُغلق أمامهم الطريق إلى الحقّ ، لأنّ نفوسهم لم تكن تسمح لهم أن يخضعوا لمحمّد صلّى الله عليه وآله الذي كان بلا ثروة ولا سلطان ولا جاه ولا اعتبار دنيويّ ، فالدهاء والكياسة لا ينفعان في هذا الموضع ، والذكاء والفكر المتين لا طائل فيهما هنا ؛ بل إنّ ما يلزم المرء هنا هو الطهارة والنزاهة وصفاء القلب . فإن كان القلب مدنّساً

١ـ الآيتان ٣١ و ٣٢ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٢ـ الآية ٣٣ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

قذراً ، جعل آلافاً من الأفكار المتينة الصائبة هباءً منثوراً وأسلمها إلى طوفان الفناء ، وصيّرها أشبه بالحشائش المتقصّفة والتراب الذي تذروه الريح ، وأحرق ما ينبته حقل الذهن واستأصله كما تحرق النار العشب فتجعله هشيماً ، ولفّق للمعجزات والكرامات تأويلات وتفسيرات باطلة غير مقبولة ، وسخر بالعلم واليقين والبرهان وهزأ بها . ولقام في النهاية بجمع شرذمة من الناس حوله بألف حيلة ومكر وخداع للعوامّ ، وفعل كما فعل ذلك الماكر المحتال الذي رسم على الأرض صورة الحيّة ، ثمّ اتّهم بالجهل ذلك العالم والمفكّر الذي كان قد كتب اسم الحيّة على الأرض . وسعى في إفساد سوق ذلك العالم وترويج سوقه هو ، وذلك في مجتمع جاهل يتخبّط في الظلمة والجهالة . ولقام بكتمان دعوة الحقّ في زوايا الخفاء ، ونشر أباطيله وأراجيفه الفكريّة تلك وجعلها هي الحاكمة .

لقد كان الوليد بن المغيرة من شيوخ العرب وكبارهم ، وكان يُشار إليه بالبنان في الفطنة والذكاء ، وكانت له ثروة ومكنة وأموال وافرة في بسيط مكّة وجزيرة العرب ؛[1] لكنّه مع ذلك حين سمع آيات من القرآن تلاها رسول الله نفسه ، فقد غرق في التفكير والتأمّل ، ولم يجد مفرّاً في النهاية

١ـ الوليد بن المغيرة هو أحد الرجلين العربيّين العظيمين اللذين كان كفّار مكّة وقريش يقولون عنهما : لولا أُنزل القرآن على أحدهما : **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (الآية ٣١ ، من السورة ٤٣ : الزخرف) . وفي «الاحتجاج» عن العسكريّ ، عن أبيه عليهما السلام قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة ، إذ قال له عبد الله بن أُميّة المخزوميّ : لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجلّ من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً ، فهلّا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولاً ، على رجلٍ من القريتين عظيم : إمّا الوليد بن المغيرة بمكّة ، وإمّا عروة بن مسعود الثقفيّ بالطائف . («الميزان» ، ج ١٨ ، ص ١١١) .

إلّا أن يعدّه سحراً مُبيناً يؤثر وقال : هذا الكلام سحر ، وهذا الرجل ساحر ؛ سحرٌ قويٌّ مبين وساحر ماهر لا يُغلب .

وقد ورد في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ في سورة المدّثّر أنّ الآيات الواردة في التهديد في قوله تعالى : **ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ، نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دهاة العرب ، وكان من المستهزئين برسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقعد في الحجرة [أي حجر إسماعيل] ويقرأ القرآن ، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا : يا أبا عبد الشمس ما هذا الذي يقول محمّد ، أشعرٌ هو أم كهانة أم خطب ؟! فقال : دعوني أسمع كلامه . فدنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا محمّد أنشدني من شعرك ، قال : ما هو شعر ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه . فقال : اتلُ عَلَيَّ منه شيئاً . فقرأ رسول الله صلّى الله عليه وآله حمَ السجدة ، فلمّا بلغ قوله : **فَإِنْ أَعْرَضُوا** (يا محمّد ـ أعني قريشاً) .

فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . قال : فاقشعرّ الوليد وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته ، ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك ، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا : يا أبا الحكم ! إنّ أبا عبد الشمس صبا إلى دين محمّد ، أما تراه لم يرجع إلينا ؟ فغدا أبو جهل فقال له : يا عمّ ! نكستَ رؤوسنا وفضحتنا وأشمتَّ بنا عدوّنا وصبوتَ إلى دين محمّد .

فقال : ما صبوتُ إلى دينه ولكنّي سمعتُ منه كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود . فقال له أبو جهل : أخطيبٌ هو ؟ قال : لا ، إنّ الخطب كلام متّصل وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً .

قال : أفشعرٌ هو ؟ قال : لا ، أما إنّي قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها ، وما هو بشعر .

قال : فما هو ؟ قال : دعني أفكّر فيه .

فلمّا كان من الغد قالوا : يا أبا عبد شمس ، ما تقول فيما قلناه ؟

قال : قولوا هو سحر فإنّه أخذ بقلوب الناس .

فأنزل الله على رسوله في ذلك : **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ؛ وإنّما سُمّي وحيداً لأنّه قال لقريش : أنا أتوحّد بكسوة البيت سنة ، وعليكم في جماعتكم سنة . وكان له مالٌ كثير وحدائق ، وكان له عشر بنين بمكّة ، وكان له عشر عبيد عند كلّ عبد ألف دينار يتّجر بها ، وتلك القنطار في ذلك الزمان . ويُقال إنّ القنطار جلد ثور مملوٌ ذهباً . فأنزل الله **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ـ الآيات .[1]

وهذه الآيات التي نزلت بشأن الوليد في سورة المدّثر : السورة الرابعة والسبعين من القرآن الكريم هي عشرون آية ، ابتداءً من الآية الحادية عشرة إلى الآية الثلاثين :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * (أيّ سآخذه بعنف وشدّة وأبتليه بالعبور من العقبات الضيّقة الصعبة العبور) **إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .**

أي : أنّه فكّر في آيات القرآن ثمّ قدّر على أساس تفكيره ، أي : أنّه نظر في نظم القرآن والمعاني الواردة فيه من تقديم وتأخير ، ووضع

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٧٠٢ و ٧٠٣.

ورفع ، لاستنتاج غرضه المقصود من التقدير ، ثمّ أراد أن يستنتج شيئاً من تفكيره وتقديره بحيث يُرضي معاندي القرآن ومُنكريه ، فقدّر قائلاً : أشِعرٌ هو ، أم كهانة ، أم أساطير الأوّلين وخرافات القدماء ؟ أم هذيان وكلام لا طائل فيه ؟ ثمّ استقرّ به التفكير على أنّه سحر من كلام البشر ، وأنّ أثره المغناطيسيّ كأثر سحر السحرة الذي يؤثّر في النفوس فيفرّق بين المرء وزوجه ، وبين الرجل وأهله وأبنائه ، وعلى هذا المنوال فهو سحر يؤثّر في النفوس فيجذبها إلى معانيه ونكاته ، إلّا أنّه سحرٌ قد أُثر .

يقول القرآن : لقد أجلى الوليد فكره وقدّر ، فقُتل على تقديره ، ثمّ قُتل كيف قدّر ؟ ثمّ إنّه نظر فتجهّم وجهه وعبس وتمثّلت في وجهه حينذاك ملامح الكُره والرفض جليّةً ، ثمّ إنّه أعرض عن معاني القرآن تماماً ، ونأى بجنبه عن حقائقه ، وتجلّى استكباره وعُجبه للعيان ، فقال : إن هذا القرآن إلّا قول البشر ، وليس هذا القرآن إلّا سحر يؤثر .

يقول الله تعالى : **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** .

أفتعلم يا رسول الله ما سقر ؟ النار التي لا تذر أحداً ، والتي تبتلع الجميع فلا تُبقي على أحد ، النار التي تلوّح بشرة الأبدان وتحرقها ، وهناك تسعة عشر ملك من ملائكة العذاب مأمورون بالمحافظة عليها .

وقد روي عن ابن عبّاس أنّه لمّا نزلت : **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ، قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أُمّهاتكم أسمع ابن أبي كبشة (يقصد رسول الله) يُخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدهم . أيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ منهم ؟ فقال أبو الأسعد ابن أسيد بن كلدة الجمحيّ وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين .[1]

١ـ «تفسير الميزان» ج ٢٠ ، ص ١٧٠ .

وهكذا تحول روح التنمّر والتمرّد في البشر دون التسليم والانقياد للحقائق ، وما لم يُعالج هذا الضعف ، فإن إنكار المنكرين سيبقى على حاله .

إنّ الوليد بن المغيرة وأبا جهل وأبا لهب وأبا سفيان وأمثالهم لم يكونوا من العامّة ، بل كانوا أُناساً مطّلعين مجرّبين خبروا الدنيا ، وكانت لهم أسفارهم إلى إمبراطوريّتي فارس والروم ، وكانوا من الناحية الاجتماعيّة والسياسيّة من رؤساء العرب وساستهم وفي طليعتهم ومن أصحاب الرأي فيهم ، إلّا أنّ التسليم لرسول الله ومتابعته وتفويضه صلوات الله عليه وآله الأُمور السياسيّة والاجتماعيّة والحكومة والولاية على الناس ـ وهي من نتائج وفروع الإيمان بالله والتوحيد ـ لم يكن ليتّفق وينسجم مع روحيّاتهم الاستكباريّة .

وكان ذلك هو السبب في تمرّدهم وعدم انقيادهم ، وشنّهم الحروب وتحريضهم الأحزاب والجماعات ضدّ رسول الله . وكانوا يقولون : لماذا يكون رسول الله من طائفة البشر ؟ أي : أنّه يجب أن يكون مَلَكاً ملكوتيّاً ليكون لائقاً وجديراً فنخضع ـ نحن البشر ـ لأوامره وحكومته الإلهيّة .

ولو شئتَ أن تروّض هذه الروح المستكبرة ، وهذه النفس المغرورة بألف برهان ومنطق ومعجزة وآية لما أمكنك ذلك .

ولو كفّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يده عن كلامه التوحيديّ ، فعمل وفق آرائهم وأفكارهم ، لسلّموا إليه جميعاً دون شكّ ولو لم يأتِ لهم بمعجزة واحدة .

ومادامت فيهم هذه الروح الاستكباريّة ، فإنّهم لن يخضعوا للحقّ ولن يسلّموا إليه ، حتّى لو جاءهم رسول الله بمئات الأضعاف من المعجزات التي جاء بها من قبل . حتّى ولو شقّ لهم القمر والشمس كلّ يوم ، وعبر أمامهم على الماء والنار كلّ يوم ، وأحيا الموتى وأبرأ الأكمه

والأبرص .

ولقد جاء في شأن النبيّ عيسى ابن مريم أنّ قومه كانوا يحملون المعجزات التي أتاهم بها ـ ومنها إحياؤه الموتى ـ على السحر .

وقد ذكر الله سبحانه ذلك في سورة المائدة :

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .[1]

ونقرأ في سورة آل عمران أنّ الله سبحانه قال بعد أن بيّن هذه المعجزات جميعها عن عيسى عليه السلام علاوةً على إخباره بما يأكله الناس وما يدّخرون في بيوتهم ، وبعد أن أحسّ عيسى منهم الكفر وآمن به الحواريّون فقط :

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ .[2]

وحصيلة القول ، فإنّ نسبة السحر والخداع إلى الأنبياء لم تكن بالأمر الجديد ، إذ ابتلي الأنبياء جميعهم بهذه الصعاب التي انبعثت كلّها من حسّ الطبع المتعالي المعبّر عنه في القرآن الكريم بالعلوّ والاستكبار .

لقد كان وجود رسول الله صلّى الله عليه وآله وحركاته وسكناته ومنطقه وسكوته معجزة . وهذا القرآن الذي في أيدينا اليوم ، القرآن الذي

١ـ الآية ١١٠ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ الآية ٥٤ ، من السورة ٣ : آل عمران .

نتلوه صباحاً ومساءً ، هو نفس القرآن الذي كانوا يتخيّلونه في ذلك الزمان سحراً . فيعدّون رسول الله بسببه ساحراً ؛ فأيّ آيةٍ فيه من السحر يا ترى ؟

هذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو أكبر وأعجب معجزة من معجزات الرسول الأكرم والأنبياء السابقين كافّة من حيث دقائق المعاني ولطائف النكات ، وإتقان القوانين والآداب والسنن ، ومن حيث الحقائق العرفانيّة وبيان درجات توحيد الباري تعالى شأنه ، وانطباق أخبار الأنبياء السابقين وأُممهم على متن الواقع وحقيقة الأمر . وحقّاً فكلّما اتّسعت دائرة علومنا ومعارفنا ، زاد إدراكنا بإعجاز هذه التحفة الإلهيّة الفريدة ، معجزة رسول الله الباقية إلى يوم القيامة .

إنّ إعجاز القرآن لا ينحصر في فصاحته وبلاغته ، لأنّ القرآن لم ينزل للناطقين بالعربيّة فحسب ، بل نزل لعموم العالم . فكيف ـ والحال هذه ـ يمكن اعتبار فصاحته وبلاغته كلّ إعجازه ؟ كما أنّنا لا نجد آية أو رواية تشير إلى أنّ القرآن تحدّى الناس أن يأتوا بمثله من هذه الوجوه ، بل إنّ إعجاز القرآن هو هذه المعاني والحقائق الواقعة تحت مدلول الألفاظ ، التي تتكفّل بهداية المجتمعات البشريّة جميعها ، أبيضها وأسودها ، وحضريّها وبدويّها ، وعالِمها وعاميّها في أيّ نقطة من أرجاء العالم إلى يوم القيامة ، وتتعهّد بإراءة الطريق والإيصال إلى مقام التوحيد للحضرة الأحديّة عزّ وجلّ ، هذا من جهة إعجاز القرآن الكريم نفسه .

وأمّا من جهة إعجاز وجود رسول الله فقد خطر في بالي مطلب جدير بالتأمّل ، وهو مطلب لم يسبق أن سمعته من أحد أو شاهدته في كتاب .

أنّنا نعلم أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله كان حافظاً للقرآن بلا زيادة أو نقصان لحرف واحد ، وكان يقرأ منه في الصلوات الواجبة والنوافل وخاصّة في ركعات صلاة الليل . وجاء في الرواية أنّه صلوات الله

عليه وآله كان يقرأ المسبّحات الخمس (أي: سور الحديد، والحشر، والصفّ، والجمعة والتغابن) كلّ ليلة قبل أن يرقد.

وحين سئل عن سبب قراءته لهذه السور أجاب: أنّ في كلّ سورة منهنّ آية أفضل من ألف آية. وعلى هذا الأساس فقد ورد في الرواية أنّ من يقرأ المسبّحات ليلاً قبل أن يرقد، فإنّه لا يموت حتّى يرى الرسول الأكرم فيُريه محلّه ومقامه في الجنّة.

ولقد كان حفظ القرآن بالنسبة إلى رسول الله معجزة، لأنّه يختلف عن حفظ سائر الناس. ذلك أنّه صلوات الله عليه وآله لم يعرف الكتابة؛ وكان نفسه لا يكتب الآيات التي توحى إليه، ولا شكّ ولا تردّد في هذا الأمر أبداً. إذ لم يُشاهِد أحد رسول الله طول حياته وهو يُمسِك القلم والورق، فضلاً عن أن يكتب آية واحدة. بل كان يرجع إلى كتّاب الوحي فيكتبون له، وكان رسول الله يقرأ عليهم فيكتبون.

وهذه المسألة تثير العجب، إذ إنّ رسول الله مع أنّه لم يعرف الكتابة، ولم يكتب الآيات، إلّا أنّه كان يقرأ هذه السور وسائر سور القرآن بعد نزولها، وبعد مرور الشهور والسنين، بل بعد عشرين سنة أو أكثر، دون أن يزيد أو ينقص كلمة واحدة. فما أقواها من ذاكرة! أَوَ يمكن أن نسمّي أُصولاً هذا الضرب من الحفظ قوّة الذاكرة؟

وهل شوهد أمر مثل هذا على مرّ تأريخ البشريّة؟ أيمكن لأمهر الخطباء وأقواهم حفظاً، إذا لم يسجّل خطابه على الورق أو شريط التسجيل، أن يُعيد لدقيقة واحدة عين عباراته التي أنشأها خلال الخطاب أو بعده دون أن يزيد أو ينقص أو يقدّم أو يؤخّر منها حرفاً واحداً؟

لقد كان المسلمون يومئذٍ يقرأون آيات القرآن عند رسول الله، فكان صلوات الله عليه وآله يصحّح أخطاءهم، حتّى لا تصبح الواو فاءً أو

الفاء واواً ، ولكي لا تُقرأ كلمة (ويعلمون) (فيعلمون) .

وهو أمر عجيب في غاية الغرابة كلّما زاد التأمّل في أطرافه وجوانبه صار إعجازه أكثر شهوداً وجلاءً .

وقد عرضتُ هذه المسألة على أُستاذي الكريم : العالم الفذّ والفقيه النبيل آية الله الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ ، فقال : بلى ، إنّ الأمر على ما تقولون . إذ كان رسول الله يقرأ آيات القرآن دون أن يقدّم أو يؤخّر فيها حرفاً واحداً ، حتّى أنّه كان يُعيد في مواقع الحاجة عين العبارات التي كان قد قالها قبل سنوات عديدة ، وكأنّه يقولها الساعة .

وعندما دنا أجله صلوات الله عليه وآله كانت فاطمة سلام الله عليها في غاية الحزن والتأثّر ، تذرف الدموع وتندب (وا سوأتاه وا سوأة أبي) ، فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وآله : يا فاطمة ... قولي كما قال أبوك على إبراهيم : **الْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا حَقّاً ، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ** .

فانظروا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله في سكرات الموت وقد غلب عليه المرض وتبدّلت حاله ، كيف يعيد في تلك الحال الشديدة الصعبة عين العبارة التي قالها قبل سنوات عند موت إبراهيم ، وهي معجزة عجيبة . أجل ، هذه هي الإحاطة بالملكوت والسيطرة على عالم المعنى ، ولا علاقة للأمر بقوّة الذاكرة والمسائل المادّيّة ـ انتهى كلام الأُستاذ دام ظلّه .

وأقول هنا : شتّان بين هذا الكلام الذي يحكي عن متن الواقع وبين قول عُمر حين طلب رسول الله دواة وقرطاساً ليكتب للناس كتاباً لا يضلّوا بعده أبداً فقال : **قَد غلبه الوجع ، إنّ الرجل ليهجر !**

قصّة أصحاب الكهف والرقيم :

من جملة الآيات الإلهيّة الدالّة على المعاد ، قصّة أصحاب الكهف والرقيم . وهي من القصص المشهورة بين أهل الملل والنحل والتواريخ . وقد أورد القرآن الكريم تفصيلها بالقدر الذي يكون شاهداً على مسألة المعاد ، حيث وردت جملة هذه الآيات في السورة ١٨ : الكهف ، اعتباراً من الآية السادسة إلى الآية السادسة والعشرين . يقول تعالى في بيان هذه القصّة التي استغرق أصحابها في نوم عميق امتدّ ثلاثمائة وتسع سنين ، ثمّ استيقظوا :

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .[١]

ويقول تعالى في بدايتها :

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا .[٢]

ثمّ يشرع بذكر متن قصّة أصحاب الكهف ويقول :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا .[٣]

ثمّ يشرح هذه القصّة : لقد كان أصحاب الكهف والرقيم فتية عاشوا وترعرعوا في مجتمع وثنيّ فشت فيه عبادة الأوثان والأصنام . وحين أمكن دين التوحيد طريقه إلى ذلك المجتمع ، آمن به هؤلاء الفتية وعبدوا

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ الآية ٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ـ الآية ٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

الله خالق السماوات والأرض وحده ، وتمرّدوا على عبادة الطواغيت .

إلّا أنّ الناس ضيّقوا عليهم في المعاملة وتشدّدوا معهم وعذّبوهم ليُجبروهم على ترك دين التوحيد والإعراض عن عبادة الإله الواحد والعودة إلى عبادة الأوثان ، فكانوا يقتلون من كان يصرّ على مخالفتهم بأبشع صورة .

وكان هؤلاء الفتية قد آمنوا بالله عن هُدى وبصيرة ، فزادهم الله هدى ، وفتح لهم أبواب العلم والمعرفة مُشرعة في وجوههم ، وكشف لهم الأنوار الإلهيّة بحيث صاروا من أصحاب اليقين ، وجعل قلوبهم مرتبطة به سبحانه بحيث ما عادت تخاف موجوداً سواه ، وبحيث إنّ الحوادث المؤلمة والمصائب الشديدة لم تكن تخيفهم أو تفزعهم .

ولقد كانوا يعلمون أنّهم إن عاشوا في مجتمع جاهليّ مستكبر كذلك المجتمع ، فلن يكون أمامهم من مناص إلّا السير بسيرة أعضائه ، وعدم التفوّه بالحقّ وعدم سلوك شريعة الحقّ . ولمّا كانوا قد اهتدوا إلى سبيل التوحيد وهجروا الشرك ، فقد علموا أنّ السبيل الوحيد للنجاة يتمثّل في الاعتزال عن ذلك المجتمع الجاهليّ . لذا فقد امتنعوا عن مسايرة ذلك المجتمع المشرك الجاهليّ ونهضوا بقلوب قويّة وإيمان راسخ لا يُثنيهم شيء لإعلان توحيد الحقّ تعالى وتقديسه ، فأصحروا جهاراً في ردّهم على القوم قائلين :

رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا .[1]

١ـ من الآيتين ١٤ و ١٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

ثمّ قالوا فيما بينهم :

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا .[١]

وهكذا دخلوا الكهف فجلسوا في متّسع منه وبسط كلبهم ذراعيه في وصيد الكهف ، وكانوا يعلمون حقّ العلم أنّ قومهم لو علموا بمكانهم لعذّبوهم وقتلوهم ، لذا دعوا ربّهم تعالى :

فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا .[٢]

فناموا ونام كلبهم معهم ، ناموا مدّة ثلاثمائة وتسع سنين قمريّة تعادل ثلاثمائة سنة شمسيّة : **ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا .**[٣]

إلى أن يقول :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .[٤]

ثمّ يستمرّ القرآن الكريم في القصّة حتّى يصل إلى قوله :

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ؟[٥]

ويستنتج منه أنّ قصّة أصحاب الكهف واختفائهم فيه ، ونومهم ثلاثمائة وتسع سنين ثمّ استيقاظهم بعد هذه المدّة الطويلة ، والمجيء إلى

١ـ الآية ١٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ الآيتان ١٠ و ١١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ـ من الآية ٢٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٤ـ الآية ١٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٥ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

المدينة لشراء الطعام واطّلاع الناس على هذه القصّة كان بأجمعه من أجل إعلان المعاد وكيفيّته وعدم استبعاده . وقد ذكر شتّى أصحاب التفاسير والروايات خصائص القصّة ، ونورد هنا تفصيلها وفقاً للرواية الواردة في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ :

يقول عليّ بن إبراهيم : حدّثني أبي ، عن ابن أبي عمير ، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال : كان سبب نزولها ، يعني سورة الكهف ، أنّ قريشاً بعثوا ثلاثة نفر إلى نجران ، **النضر بن الحارث بن كلدة ، وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل السهميّ** ليتعلّموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود فسألوهم فقالوا : سلوه عن ثلاث مسائل ، فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق ، ثمّ سلوه عن مسألة واحدة فإن ادّعى علمها فهو كاذب . قالوا : وما هذه المسائل ؟ قالوا : سلوه عن فتية كانوا في الزمن الأوّل فخرجوا وغابوا وناموا ، كم بقوا في نومهم حتّى انتبهوا ؟ وكم كان عددهم ؟ وأيّ شيء كان معهم من غيرهم ؟ وما كان قصّتهم ؟ واسألوه عن موسى حين أمره الله أن يتبع العالِم ويتعلّم منه ، مَن هو وكيف تبعه وما كان قصّته معه ؟ واسألوه عن طايف طاف من مغرب الشمس ومطلعها حتّى بلغ سدّ يأجوج ومأجوج ، مَن هو وكيف كان قصّته ؟ ثمّ أملوا عليهم أخبار هذه الثلاث مسائل وقالوا لهم : إن أجابكم بما قد أملينا عليكم فهو صادق ، وإن أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدّقوه . قالوا : فما المسألة الرابعة ؟ قالوا : سلوه متى تقوم الساعة ؟

فإن ادّعى علمها فهو كاذب ، لأنّ قيام الساعة لا يعلمها إلّا الله تعالى . فرجعوا إلى مكّة واجتمعوا إلى أبي طالب عليه السلام فقالوا : يا أبا طالب ! إنّ ابن أخيك يزعم أنّ خبر السماء يأتيه ، ونحن نسأله عن مسائل فإن

أجابنا عنها علمنا أنّه صادق وإن لم يجبنا علمنا أنّه كاذب. فقال أبو طالب: سلوه عمّا بدا لكم. فسألوه عن الثلاث مسائل، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: غداً أخبركم (على أمل أن يأتي الأمين جبرئيل بالإجابة عنها من جهة ذات الحقّ تعالى) ولم يستثن.

فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتّى اغتمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وشكّ أصحابه الذين كانوا آمنوا به، وفرحت قريش واستهزأوا وآذوا، وحزن أبو طالب. فلمّا كان بعد أربعين يوماً نزل عليه [جبرئيل] بسورة الكهف، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: يا جبرئيل، لقد أبطأتَ! فقال: إنّا لا نقدر أن ننزل إلّا بإذن الله. فأنزل:

أَمْ حَسِبْتَ (يا محمّد) **أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا**.

ثمّ قصّ قصّتهم فقال:

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا.

فقال الصادق عليه السلام: إنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبّار عاتٍ وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام، فمن لم يُجبْه قَتَلَه، وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عزّ وجلّ. ووكّل الملكُ بباب المدينة وكلاء ولم يدع أحداً يخرج حتّى يسجد للأصنام، فخرج هؤلاء بحيلة الصيد، وذلك أنّهم مرّوا براعٍ في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم، وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم.

فقال الصادق عليه السلام: فلا يدخل الجنّة من البهائم إلّا ثلاثة:

حمار بلعم بن باعوراء وذئب يوسف[1] وكلب أصحاب الكهف .

فخرج أصحاب الكهف من المدينة بحيلة الصيد هرباً من دين ذلك الملك ، فلمّا أمسوا دخلوا ذلك الكهف والكلب معهم فألقى الله عليهم النعاس كما قال الله تعالى : **فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** ، فناموا حتّى أهلك الله ذلك الملك وأهل مملكته ، وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون ، ثمّ انتبهوا فقال بعضهم لبعض : كم نمنا ها هنا ؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت ، فقالوا : نمنا يوماً أو بعض يوم .

ثمّ قالوا لواحد منهم : خذ هذا الورق وادخل المدينة متنكّراً لا يعرفوك فاشتر لنا طعاماً ؛ فإنّهم إن علموا بنا وعرفونا يقتلونا أو يردّونا في دينهم .

١ـ إنَّ الذئب لم يفترس النبيّ يوسف على نبيّنا وآله وعليه السلام ، لكنَّ الظاهر أنَّ المراد بالذئب المذكور في الرواية هو ما ورد في بعض التفاسير من أنَّ إخوة يوسف عليه السلام جاءوا أباءهم فقالوا «أكل أخانا الذئب» ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : «اذهبوا فأْتوا به» . فذهبوا وجاءوا بذئب ، فسأله يعقوب عمّا فعل ، فأنطقه الله تعالى ، فقال : لم أفعل ، فإنَّ لحوم الأنبياء وذرّيّتهم حرامٌ علينا .

وقد نقلت هذه القصّة في «تفسير أبي الفتوح» ج ٦ ، ص ٣٥١ و ٣٥٢ ؛ وتفسير «منهج الصادقين» ج ٥ ، ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وتفسير «الدرّ المنثور» ج ٤ ، ص ١٠ ؛ كما نقلت في «تفسير سورة يوسف» لأبي حامد الغزاليّ ، ص ٤٥ إلى ٤٧ ، الطبعة الحجريّة ، حيث أورد الغزاليّ بعد نقله هذه القصّة روايةً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنَّ سبعة من الحيوانات تدخل الجنّة ، أحدها ذئب يعقوب .

ويؤيّد ذلك رواية أوردها المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٤١ ، ص ٢٣٨ و ٢٣٩ من الطبعة الحروفيّة ، نقلاً عن «كشف اليقين» ، جاء فيها أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام التقى ذئباً فقال في كلامه مع الإمام : أنا ذئب شريف . فسأله الإمام عن علّة قوله ، فقال : لأنّي من شيعتك ، وقد أخبرني أبي أنّي من نسل ذلك الذئب الذي جاء به أولاد يعقوب وقالوا إنّه الذئب آكل أخانا .

فجاء ذلك الرجل فرأى مدينة بخلاف التي عهدها ورأى قوماً بخلاف أُولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم ، فقالوا له : من أنت ومن أين جئت ؟ فأخبرهم ، فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم حتّى وقفوا على باب الكهف وأقبلوا يتطلّعون فيه . فقال بعضهم : هؤلاء ثلاثة ورابعهم كلبهم ، وقال بعضهم : خمسة وسادسهم كلبهم . وقال بعضهم : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وحجبهم الله عزّ وجلّ بحجاب من الرعب فلم يكن أحد يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنّه لمّا دخل إليهم وجدهم خائفين أن يكون أصحاب دقيانوس شعروا بهم ، فأخبرهم صاحبهم أنّهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وأنّهم آية للناس ، فبكوا وسألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا .

ثمّ قال الملك : ينبغي أن نبني ها هنا مسجداً ونزوره فإنّ هؤلاء قوم مؤمنون . فلهم في كلّ سنة نقلتان ، ينامون ستّة أشهر على جنوبهم اليمنى وستّة أشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم قد بسط ذراعيه بفناء الكهف .[1]

وقال العلّامة الطباطبائيّ بعد نقل هذه الرواية : والرواية من أوضح روايات القصّة متناً وأسلمها من التشوّش ، وهي مع ذلك تتضمّن أنّ الذين اختلفوا في عددهم فقالوا : ثلاثة أو خمسة أو سبعة هم أهل المدينة الذين اجتمعوا على باب الكهف بعد انتباه الفتية ، وهو خلاف ظاهر الآية . وتتضمّن أنّ أصحاب الكهف لم يموتوا ثانية بل عادوا إلى نومتهم وكذلك كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، وأنّ لهم في كلّ سنة تقلّبين من اليمين إلى اليسار وبالعكس ، وأنّهم بعدُ على هيئتهم ، ولا كهف معهوداً على وجه

١ـ «تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ» ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

الأرض وفيه قوم نيام على هذه الصفة.[1]

وننهي هذه القصّة بذكر عدّة أُمور:

١ ـ الكهف: هو المغارة في الجبل إلّا أنّه أوسع منها بحيث يمكن للإنسان والحيوان أن يدخلاه ويعيشا فيه براحة. والرقيم بمعنى المرقوم، كالجريح بمعنى المجروح.

وقد دُعي أصحاب الكهف بأصحاب الرقيم لأنّ أسماءهم قد كُتبت ورُقّمت في لوح نحاسيّ أو ذهبيّ نُصِبَ في خزانة الملك. أو لأنّها قد رقّمت وحُفرت في داخل الغار. وعليه فإنّ أصحاب الكهف وأصحاب الرقيم هم جماعة واحدة.

أمّا ما ورد في بعض الروايات الضعيفة الدالّة على أنّ أصحاب الرقيم هم غير أصحاب الكهف، والتي ذكرت أن ثلاثة من المؤمنين كانوا قد ساروا في الصحراء فألجأهم المطر والطوفان إلى غار، وسقطتّ صخرة من الجبل فسدّت مدخل الغار تماماً. فدعوا الله تعالى وذكروه بالأعمال الصالحة التي كانوا قد فعلوها، فتحرّكت الصخرة ببركة دعائهم وانزاح ثلثها فبان ثلث من باب الغار؛ فلا يمكن قبوله، إذ يستبعد من سياق الآيات القرآنيّة المباركة أن تذكر قصّتين مختلفتين فتشرح إحداهما مفصّلة وتُعرِض عن ذكر الثانية كلّيّاً.

وقال البعض: إنّ الرقيم اسم الجبل الذي فيه الكهف، أو اسم الصحراء التي يقع الجبل فيها، أو اسم البلد الذي خرجوا منه إلى الكهف، أو اسم الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، بَيدَ أنّه لا دليل على هذه الادّعاءات. والدليل قائم على أنّ الرقيم بمعنى الكتابة والخطّ وقد عرفوا

١ ـ «تفسير الميزان» ج ١٣، ص ٣٠٠.

بأصحاب الرقيم لأنّ أسماءهم قد كتُبت .

٢ ـ عدد أصحاب الكهف :

ورد عددهم في القرآن الكريم في قوله تعالى :

سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا .[1]

ويستشفّ العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه أنّ عددهم كان سبعة من عدّة جهات :

الجهة الأُولى : أنّ القرآن الكريم حين يذكر القولين الأوّلين فإنّه يعقّب عليهما بعبارة : **رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ** ، والرجم هو الرمي بالحجارة ، أي كالرامي بالحجر دونما هدف ، كناية عن أنّهما قول بغير علم ولا دليل . إلّا أنّه حين يقول **وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** فإنّه لا يعقّب عليه شيئاً .

الثانية : أنّه ذكر الواو في قوله : **سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ، بينما لم يوردها في الفقرتين الأُوليين ، وهو دلالة على الثبات والاستقرار . يقول في الكشّاف : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك : **جَاءَنِي رَجُلٌ وَمَعَهُ آخَرُ** ، و **مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَبِيَدِهِ سَيْفٌ** . ومنه قوله تعالى : **وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** . وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أنّ اتّصافه بها أمر ثابت مستقرّ . وهذه الواو هي التي آذنت بأنّ الذين قالوا : **سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظنّ كما [فعل] غيرهم . والدليل عليه أنّ الله سبحانه أتبع القولين الأوّلين

---

١ ـ الآية ٢٢ ، من السورة ١٨ : الكهف .

قوله : رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وأتبع القول الثالث قوله : مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .

وقال ابن عبّاس : حين وقعت الواو انقطعت العدّة ، أي لم يبق بعدها عدّة عادٍّ يُلتفت إليها ، وثبت أنّهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات ـ انتهى ما جاء في «الكشّاف» .[1]

الثالثة : بدليل الآية المباركة : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .[2]

إذ إنّ الفاعل في المحاورة كان جماعتين ، وأقلّ الجمع ثلاثة ؛ لذا فإنّ مجموع هاتين الجماعتين مع السائل لا يمكن أن يقلّ عن سبعة نفر .[3]

٣ ـ أسماء أصحاب الكهف : قال العلّامة الطباطبائيّ : قيل في الروايات الإسلاميّة المنتهية إلى الروايات اليونانيّة والسريانيّة إنّ أسماءهم كالتالي :

الأوّل : مكس ميليانوس — Maxi - Milianos

الثاني : اميلخوس ـ مليخا — Iamblichos

الثالث : مرتيانوس ـ مرطلوس ـ مرطولس — Martinos - (Martelos)

الرابع : ذوانيوس ـ دوانيوانس ـ دنياسيوس — Dionysios

الخامس : ينيوس ـ يوانيس ـ نواسيس — Joannes

السادس : اكساكدثو دنيانوس ـ كسقسططيونس ـ

---

١ ـ «تفسير الميزان» ج ١٣ ، ص ٢٨٧ و ٢٨٨ نقلاً عن «الكشّاف» .

٢ ـ الآية ١٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٢٧٨ .

ا كسقطوسطط ـ كشفوطط Exakaustodianos

السابع : انطونس (افطونس) اندونيوس ـ انطينوس Antonios

واسم كلبهم قِطْمير .

ويرى بعضهم أنّ الأسماء العربيّة مأخوذة عن القبطيّة المأخوذة عن السريانيّة .[1]

٤ ـ تعيين محلّ الكهف :

إنّ أشهر الكهوف المكتشفة في الدنيا حاليّاً ، التي ينسب إليها أهل الكهف خمسة كهوف :

الأوّل : كهف إفِسوس (بكسر الهمزة والفاء) ؛ الثاني : كهف رَجيب ؛ الثالث : كهف جبل قاسيون ؛ الرابع : كهف البَتْراء ؛ والخامس : الكهف الواقع في شبه الجزيرة الإسكندنافيّة .

ويقع كهف جبل قاسيون في الصالحيّة في دمشق ؛ ويقع كهف البتراء في فلسطين ، بينما يقع الكهف الإسكندنافيّ في شبه لجزيرة الإسكندنافيّة ، ولا تنطبق الخصائص الجغرافيّة والشواهد التأريخيّة على كهف أصحاب الكهف ، لذا لا نتعرّض للبحث عنها .

أمّا كهف إفِسوس فيقع في مدينة خربة من مدن تركيا تبعد عن مدينة إزمير ثلاثة وسبعين كيلو متراً ، ويقع هذا الكهف على بُعد كيلو متر أو أقلّ من إفسوس الواقعة قرب قرية **أيا صولوك** على سفح جبل **ينايرداغ** . وهو كهف واسع جدّاً بُنيت فيه مئات القبور بالآجر ، وباب الكهف باتّجاه الشمال الشرقيّ ، إلّا أنّه لا أثر فيه لكنيسة أو صومعة أو مسجد . ويعتقد الكثير من المؤرّخين والمفسّرين أنّه هو كهف أصحاب الكهف ، كما يُعَدّ

---

١ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٣٠٩ و ٣١٠ .

من أشهر الكهوف لدى النصارى . وهو عموماً من أشهر الكهوف بين جميع الأُمم والأقوام والمعتقدين بقصّة أصحاب الكهف .

بَيدَ أنّ أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه يعتقد أنّه لا يمكن أن يكون الكهف المعني ، وذلك لعدّة أدلّة :

أمّا أوّلاً : فقد قال تعالى :

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ .[1] وهو صريحٌ في أنّ الشمس يقع شعاعها عند الطلوع على جهة اليمين من الكهف ، وعند الغروب على الجانب الشماليّ منه . ويلزمه أن يواجه باب الكهف جهة الجنوب ، وباب الكهف الذي في إفسوس متجه نحو الشمال الشرقيّ .

وهذا الأمر ، أعني كون باب كهف إفسوس متّجهاً نحو الشمال وما ورد من تحديد إصابة الشمس منه طلوعاً وغروباً ، هو الذي دعا المفسّرين إلى أن يعتبروا يمين الكهف ويساره بالنسبة إلى الداخل فيه لا الخارج منه ، مع أنّه المعروف المعمول .

قال البيضاويّ في تفسيره : إنّ باب الكهف في مقابلة بنات نَعْش ، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه ، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب ، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه ويحلّل عفونته ويعدّل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم . انتهى ـ ونحو منه ما ذكره غيره .

وأمّا ثانياً : فلأن قوله تعالى : **وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ** ، أي في مرتفع منه ،

---

١ ـ الآية ١٧ ، من السورة ١٨ : الكهف .

ولا فجوة في كهف إفسوس ـ على ما يقال ـ وهذا مبنيّ على كون الفجوة بمعنى المرتفع وهو غير مُسلّم، وقد تقدّم أنّها بمعنى الساحة.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ قوله تعالى: **قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**، ظاهر في أنّهم بنوا على الكهف مسجداً، ولا أثر عند كهف إفسوس من مسجد أو صومعة أو نحوها.

ورابعاً: على أنّه ليس هناك شيء من رقيم أو كتابة أو أمر آخر يشهد ولو بعض الشهادة على ذلك، خلافاً لسائر الكهوف وخاصّة كهف رجيب.

ويقع كهف رجيب على مسافة ثمانية كيلومترات من مدينة عمّان عاصمة الأردن بالقرب من قرية تسمّى رجيب، والكهف في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبيّ منه، وأطرافه من الجانبين الشرقيّ والغربيّ مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها. وباب الكهف يقابل جهة الجنوب، وفي داخل الكهف صفة صغيرة تقرب من ثلاثة أمتار في مترين ونصف على جانب من سطح الكهف المعادل لثلاثة (أمتار) في ثلاثة تقريباً. وفي الغار عدّة قبور على هيئة **النواويس** البيزنطيّة كأنّها ثمانية أو سبعة.

وعلى الجدران نقوش وخطوط باليونانيّ القديم والثموديّ منمحية لا تُقرأ، وأيضاً صورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزويقات أُخرى.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطيّة تدلّ النقود والآثار الأُخرى المكتشفة فيها على كونها مبنيّة في زمان الملك جوستينوس الأوّل (٤١٨ ـ ٤٢٧ ميلاديّة)، وآثار أُخرى على أنّ الصومعة بدّلت ثانياً بعد استيلاء المسلمين على الأرض مسجداً إسلاميّاً مشتملاً على المحراب والمئذنة

والميضاة .

وكان هذا الكهف متروكاً منسيّاً وبمرور الزمان خربة ورِدماً متهدّماً حتّى اهتمّت دائرة الآثار الأردنيّة أخيراً بالحفر والتنقيب فيه فاكتشفته فظهر ثانياً بعد خفائه قروناً ، وقامت عدّة من الأمارات والشواهد الأثريّة على كونه هو كهف أصحاب الكهف المذكورين في القرآن .

وقد ورد كون كهف أصحاب الكهف بعمّان في بعض روايات المسلمين ، وذكره ياقوت (الحمويّ) في «معجم البلدان» وأنّ الرقيم اسم قرية بالقرب من عمّان . وبلدة عمّان أيضاً مبنيّة في موضع مدينة **فيلادلفيا** التي كانت من أشهر مدن عصرها وأجملها قبل ظهور الدعوة الإسلاميّة ، وكانت هي وما والاها تحت استيلاء الروم منذ أوائل القرن الثاني الميلاديّ حتّى فتح المسلمون الأرض المقدّسة . والحقّ أنّ مشخّصات كهف أصحاب الكهف أوضح انطباقاً على هذا الكهف من غيره .[1]

لقد كان بحث أُستاذنا في هذا الشأن في غاية المتانة ، إلا أنّنا نحتاج إلى شرح مختصر لإحدى النقاط . وهي أنّه تصوّر ـ وفقاً للآية الشريفة ـ أنّ باب الكهف يجب أن يقابل الجنوب ليقع عليه شعاع الشمس في وقتين ، فتشرق عند طلوعها على يمين فتحة الكهف ، وتصيبه أشعتها عند غروبها على يسار فتحة الكهف . فيرى الجالسون فيه الشمس خلال هذين الوقتين فقط . لذا فقد أشكل على من اعتبروا فتحة الكهف في جهة الشمال وقال : والمعمول في اعتبار اليمين واليسار لمثل الكهف والبيت أن يؤخذ باعتبار الخارج منه دون الداخل فيه .

لكنّنا نقول إنّ فتحة الكهف لو كانت باتّجاه الشمال ، لكان ذلك

---

١ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٣١٦ إلى ٣٢٠ .

أقرب إلى الاعتبار وإلى دلالة الآية القرآنيّة دون أن نحتاج إلى تغيير اليمين واليسار عن الاعتبار المعمول نسبة إلى من في داخل الكهف. ذلك أنّه لم يرد في الآية القرآنيّة لفظ يشير إلى أنّ الشمس كانت تسطع على فتحة الكهف عند طلوعها وغروبها، بل جاء أنّها كانت إذا طلعت تزاور عن كهفهم وإذا غربت تقرضهم.

والتزوار بمعنى الميل والانحراف، أي أنّ الشمس إذا طلعت إلى يمين الكهف (أي يمين الجالس في الغار) فإنّها تميل وتنحرف دون أن تسطع على داخل الغار، ثمّ تعبر من خلف الغار، ثمّ تكون عند الغروب قد طوت نصف دائرة من قوس دائرتها، فتكون عند غروبها إلى جانب الغار الأيسر ثمّ تغيب.

وهذا المعنى يتناسب مع الغار والكهف الذي تكون فتحته باتّجاه الشمال لا باتّجاه الجنوب.

يضاف إلى ذلك أنّنا نعلم أنّ باب الكهف لو كان جنوبيّاً لسطعت الشمس داخل الكهف خلال النهار، وخاصّة في فصل الشتاء، ولأنارت الكهف كلّه لأنّه واقع في المنطقة المعتدلة الشماليّة.

أمّا لو كان باب الكهف باتّجاه الشمال فإنّ نور الشمس لن يصل أبداً إلى داخله فيعفّن الأجساد، لأنّ سير الشمس سيكون جنوبيّاً باستمرار بالنسبة إلى الكهف، ومن المحال أن يسطع نورها على داخل الكهف الواقع في الشمال. ولذلك فإنّ أصحاب الكهف سيتمتّعون بمكان واسع وهواء بارد ونسيم لطيف لا تلسعهم فيه حرارة الشمس.

ولعلّ المرحوم الشعرانيّ قد فسّر ذلك في كتابه «نثر طوبى» على هذا الأساس فقال: إنّ الشمس تنحرف من أصحاب الكهف إلى يمين الواقف في الكهف مقابل بابه، كما هو المقصود من نظائر هذه العبارة؛ أي: أنّ

الشمس تطلع أوّل الصبح فتشرق على الغار ثمّ تنحرف إلى اليمين وتغيب ، ثمّ تعود عند الغروب وتمرّ من اليسار . فإن كان باب الكهف باتّجاه الشمال ، لكانوا أوّل الصبح وعند الغروب مستنيرين بالشمس ، وكانوا في الظلّ وسط النهار . أمّا لو كان باب الكهف باتّجاه الجنوب ، لكانت الشمس تسطع عليه باستمرار . بَيدَ أنّهم كانوا نائمين في كهف تميل الشمس من على يمينه ويساره دون أن تؤذيهم .[1]

٥ ـ أيّ زمان عاش أصحاب الكهف .

يمكن القول تقريباً إنّ المفسّرين مُجمعون على أنّ قصّة أصحاب الكهف كانت زمن دَقْيُوس إمبراطور الروم الذي حكم بين ٢٤٩ ـ ٢٥١ ميلاديّة ، أو زمن دَقْيانُوس إمبراطور الروم الآخر الذي حكم بين ٢٨٥ ـ ٣٠٥ ميلاديّة والمسيحيّون أيضاً يدّعون ذلك ويقولون بأنّ الحكّام كانوا يضيّقون على دين المسيحيّة ويعذّبون الموحّدين بأصناف الأذى والجوع والعطش .

بَيدَ أنّه لا يمكن قبول هذا الأمر ، لأنّ أوّل من كتب قصّة أصحاب الكهف في كتابه من السريانيّين جيمس الساروغيّ Jimes of Sarug المتوفّي سنة ٥٢١ ميلاديّة ، وقد ألّف هذا الكتاب سنة ٤٧٤ ميلاديّة .

وفي ضوء الآية القرآنيّة فإنّ أصحاب الكهف كانوا قد ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ، ولمّا كانت سنوات القرآن قمريّة ، وحسبنا الفرق بين السنوات القمريّة والشمسيّة في هذه المدّة لوجب إنقاص تسع سنين ، فتكون مدّة بقائهم في الكهف ثلاثمائة سنة شمسيّة . ولمّا كانت السنوات الروميّة شمسيّة ، فلابدّ أن يكون بقاء أصحاب الكهف أسبق بكثير من

---

١ ـ «نثر طوبى» مادّة زور ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ (بالفارسيّة) .

زمن دقيوس أو دقيانوس .

بَيدَ أنّ المسيحيّين لا يعتقدون بالقرآن الكريم ، وهم ـ من جهة أُخرى ـ يعتبرون زمن استيقاظ أصحاب الكهف هو زمن الملك الصالح تيودوسيوس الذي حكم بين ٤٠٨ ـ ٤٥١ ميلاديّة . فيكون بقاء أصحاب الكهف إلى زمن دقيوس مائتي سنة أو أقلّ .

وقد التفت رفيق وفا الدجّانيّ إلى ذلك في كتاب «اكتشافات كهف أهل الكهف» الذي نشره سنة ١٩٦٤ ميلاديّة فقال في كتابه : إنّ الطاغية الذي هرب منه أصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو «طراجان الملك ٩٨ ـ ١١٧ م» لا دقيوس الملك .. ولا دقيانوس الملك . وقد أصدر طراجان في سنة ١١٢ م مرسوماً يقضي أنّ كلّ عيسويّ يرفض عبادة الآلهة يحاكم كخائن للدولة ويعرض للموت .

ولو فرضنا أنّ أصحاب الكهف قد لجأوا إلى الكهف في تلك السنة ، فإنّ ١١٢+٣٠٠=٤١٢ ، فيكونون قد استيقظوا في سنة ٤١٢ بعد نومهم ثلاثمائة سنة (شمسيّة) ، وذلك يصادف أيّام حكم الملك الصالح العادل تيودوسيوس .[١]

وما يمكن أن نشكله على صاحب هذا الكتاب هو أنّنا لا نملك دليلاً كافياً على نوم أصحاب الكهف في زمن (طراجان) واستيقاظهم في زمن (تيودوسيوس) . فهذا الرأي الذي أبداه لا يعدو كونه فرضيّة لا شاهداً تأريخيّاً . وعلى هذا الأساس فإنّ العلّامة الطباطبائيّ قد امتنع عن تعيين زمنهم ولم يتابع بحثه مع ما عرضه من البحث والنقد والتحليل .

كما أنّنا نعلم من جهة أُخرى أنّ هذه القصّة لو وقعت قبل السيّد

---

١ ـ «الميزان» ج ١٣ ، هامش ص ٣٠٩ ؛ وهامش ص ٣١٩ .

المسيح لكانت مدعاة لفخر اليهود ومباهاتهم ، ولكانوا قد نمّقوها وزيّنوها وذكروها ، بينما نجد أنّ الكتب اليهوديّة تخلو من ذلك . فمعظم المعتقدين بها ـ عدا المسلمين ـ هم من المسيحيّين . وقد نقل **خواندمير** هذه القصّة وذهب إلى أنّها وقعت زمن الملك بلاش بن فيروز الثامن الملك الأشكانيّ .[1]

ويقول حمد الله المستوفيّ بعد أن ينقل أسماء ستّة نفر منهم وإذا ما أُضيف إليهم الراعي يصيرون سبعة ؛ وكان هؤلاء في زمن دقيانوس الذي عاش قبل النبيّ عيسى ، وكانوا ينتمون إلى دين النبيّ موسى ؛ ولمّا لم يتابعوا الملك الظالم ، فقد لجأوا إلى الكهف وناموا ثلاثمائة وتسع سنين ثمّ أحياهم الله بعد ظهور المسيح عليه السلام .[2]

كما أنّ بلعميّ الطبريّ يذكر قصّتهم مفصّلة وفقاً للآيات القرآنيّة ، ثمّ يذكر أنّ نومهم في الكهف كان زمن دقيانوس . ويعتقد كذلك أنّهم لجأوا إلى الكهف قبل السيّد المسيح بجرم متابعتهم شريعة النبيّ موسى وعدم طاعتهم للآلهة .

ثمّ ظهر عيسى فقصّ قصّة أصحاب الكهف الذين كانوا من بني إسرائيل ، وقال إنّهم سيُبعثون فيراهم الناس ثمّ يموتون من جديد ، وإنّ هذه آية على المعاد والقيامة . ثمّ إنّ أحدهم ـ واسمه مكسلمينا ـ بُعث حيّاً ، وكان كبيرهم فناداهم فبُعثوا جميعاً ، وبُعث كلبهم فقام على أقدامه . وحين شاهد الناس تلك المسكوكة التي أرسلوا بها أحدهم ليبتاع لهم بها طعاماً ، فقد علموا أنّه من أصحاب الكهف الذين قرأوا قصّتهم في الإنجيل ، فاجتمع علماء الإنجيل ليسمعوا منه القصّة ـ وكان اسمه يمليخا ـ وأخذوه إلى الملك ،

---

١ ـ «حبيب السير» ج ٢ من المجلّد الأوّل ، ص ٢٦ إلى ٢٨ ؛ طبعة طهران .

٢ ـ «تاريخ گزيده» ص ١٠١ ، طبعة لندن .

فقال له الملك : أيّها الفتى ؟ أُبشّرك بأنّ دقيانوس قد مات وانقضى على عهده ثلاثمائة وتسع سنين حتّى يومنا هذا ، ولقد بعث الله نبيّاً اسمه عيسى جاء بكتاب من السماء اسمه الإنجيل ذُكرت فيه قصّتكم . إنّنا نعبد الله ونحن على دين عيسى ، وكنّا نترقّب خروجكم من الكهف ... ثمّ يذكر القصّة إلى آخرها .[1]

والخلاصة فلا إشكال على ما نقله المؤرّخون من حيث انطباق الزمن ، إلّا أنّهم ذكروا أنّ ذلك الملك الجائر كان دقيانوس ، ومن البيّن أنّ عهد حكمه كان بعد قرنين ونصف من ولادة عيسى عليه السلام .

وجاء في «لغت نامه دهخدا» [معجم دهخدا] بشأن الكهف : وأصحاب الكهف من الروم على دين المسيح ، وروى ابن قتيبة أنّهم كانوا قبل المسيح .[2]

ويبدو أنّ ما أفاده آية الله الشعرانيّ في هذا المقام أقرب إلى الواقع ، فقد قال : وقد وقعت هذه القصّة في عصور موغلة في القدم ، حيث نقلها أرسطو الذي عاش قبل ميلاد المسيح بما ينيف على ثلاثمائة سنة . والله أعلم كم سنة كان أصحاب الكهف قبل أرسطو .

وكان الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا يعتقد أنّ أصحاب الكهف كانوا قوماً آخرين ، وأن القصّة التي نقلها أرسطو قصّة أُخرى غير قصّتهم . يقول في طبيعيّات «الشفاء» ص ٧٠ في السطرين ما قبل السطر الأخير :

وَقَدْ حَكَى الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ أَيضاً أَنَّ قَوْماً مِنَ الْمُتَأَلِّهِينَ عَرَضَ لَهُمْ شَبِيهٌ بِذَلِكَ ؛ وَيَدُلُّ التَّارِيخُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

١ـ «لغت نامه دهخدا» [معجم لغويّ بالفارسيّة] مادّة «أصحاب كهف» ص ٢٧٤١ و ٢٧٤٢ نقلاً عن ترجمة طبريّ بلعميّ ، مخطوطة في مكتبة «دهخدا» .

٢ـ مادّة «كهف» ص ٤٢٣ .

ولعلّ المسيحيّين بعد بعثة السيّد المسيح عليه السلام نسبوا هذه القصّة التي كانت متداولة على الألسن في اليونان ونقلها أرسطو ، إلى المؤمنين بالسيّد المسيح عليه السلام تبعاً للارتكاز الذهنيّ .

وأنّ أكثر مسيحيّي عصرنا لا يقيمون اعتباراً لقصّة أصحاب الكهف ، كما أنّ القرآن لم يصرّح بزمنهم ، فلا يُستبعد أن تكون القصّة قد وقعت قبل المسيح ، أمّا التفاصيل الأُخرى غير الموجودة في القرآن ، فهي اقتباس من المسيحيّين المعتقدين بأصحاب الكهف ، اللهمّ إلّا إذا ثبت عن المعصوم شيء آخر .[1]

٦ ـ هل نام أصحاب الكهف مرّة ثانية بعد استيقاظهم أم أنّهم ماتوا ؟

الروايات الواردة عن رسول الله وأهل البيت في هذا الشأن متفاوتة ، فلبعضها دلالة على أنّهم ناموا ثانية فهم أحياء إلى اليوم ، وبعضها الآخر يدلّ على أنّهم ماتوا بعد استيقاظهم واطّلاع ملك ذلك الزمان على قصّتهم .

وورد في رواية نقلناها عن تفسير عليّ بن إبراهيم أنّهم حين علموا أنّ الله تعالى جعلهم آية إلهيّة فإنّهم :

بَكَوا وَسَأَلُوا اللّهَ أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ نَائِمِينَ كَمَا كَانُوا .[2]

وعدّ العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه هذه النكتة أحد وجوه الإشكال على هذه الرواية فقال : ولا كهفَ معهوداً على وجهِ الأرضِ وفيه قومٌ نيامٌ على هذه الصفة .[3]

كما قال : ومن ذلك ما في بعض الروايات أنّهم قُبضت أرواحهم ؛ وفي بعضها أنّ الله أرقدهم ثانياً فهم نيام إلى يوم القيامة ، ويقلّبهم كلّ عام مرّتين ثمّ إنّه يورد رواية عن «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس يقول فيها :

---

١ ـ «نثر طوبى» مادّة «رقم» ج ١ ، ص ٤١٥ .

٢ و ٣ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٣٠٠ .

غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم . فقال له ابن عبّاس : ليس ذلك لك ، قد منع الله ذلك عمّن هو خير منك فقال : **لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا** .[١ و ٢]

والرواية مشهورة أوردها المفسّرون في تفاسيرهم ، والكهف الذي في المضيق وهو كهف إفسوس المعروف اليوم ، وليس على هذا النعت .

والآية التي تمسّك بها ابن عبّاس إنّما تمثّل حالهم وهم رقود قبل البعث لا بعده . وقد وردت عن ابن عبّاس في «الدرّ المنثور» رواية أُخرى عن عبد الرزّاق وابن أبي حاتم ، عن عكرمة ورد في آخرها بعد ذكر القصّة :

فركب الملك وركب معه الناس حتّى انتهى إلى الكهف . فقال الفتى : دعوني أدخل إلى أصحابي . فلمّا أبصروه وأبصرهم ضُرب على آذانهم ، فلمّا استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه ، فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير أنّها لا أرواح فيها . فقال الملك : هذه آية بعثها الله لكم .

فغزا ابن عبّاس مع حبيب بن مسلمة فمرّوا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف . فقال ابن عبّاس : ذهبت عظامهم أكثر من ثلاثمائة سنة ـ الحديث .[٣]

٧ ـ ما علّة خروج أصحاب الكهف من المدينة ودخولهم فيه ؟

إنّ الله تعالى يذكر قصّتهم في القرآن الكريم على هذا النحو :

---

١ ـ من الآية ١٨ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ ـ «المُيزان» ج ١٣ ، ص ٣٠٥ إلى ٣٠٧ .

٣ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٣٠٧ .

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.[1]

فيذكر لهم ثلاث صفات :

الأُولى : أنّهم كانوا فتية .

الثانية : زيادة الهداية إلى الكمال ، فنفس الإيمان والتقوى موجب لزيادة الإيمان .

والثالثة : انشداد القلب إلى خالقه وارتباطه به ، بحيث يتحرّر من الحيرة والشكّ والقلق والاضطراب ، فيلازم الحقّ على الدوام ويحترز من تجاوز الحدّ وتخطّيه .

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.[2]

فقد أظهروا حقيقة إيمانهم وصفاتهم بهذه النهضة والإعلان بأنّ ربّهم ربّ السماوات والأرض ، وبأنّهم لا يعبدون معبوداً غير الله ، إذ سيكونون حينئذٍ قد قالوا شططاً وجزافاً من القول . ثمّ يحكمون بحجّتهم على حجّة قومهم ويعترضون عليهم اتّخاذهم عبادة الآلهة واتّباعهم إيّاها بلا دليل وبرهان جليّ ، بل بتقليد أعمى . ثمّ يدعونهم بالظلم والجور في قولهم :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

وهي مقولة مشحونة بالحكمة ، قاموا من خلالها بإبطال ربوبيّة أرباب الأصنام من الملائكة والجنّ والمصلحين من أفراد البشر الذين تُثبت فلسفة

١ـ النصف الثاني للآية ١٣ ومطلع الآية ١٤ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ القسم الأعظم من الآية ١٤ والآية ١٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

الوثنيّة أُلوهيّتهم . وهي فلسفة تُثبت أُلوهيّة الأرباب ، لا نفس الأصنام والتماثيل التي هي صور وأمثلة لأُولئك الأرباب ، وتمثّل تلك الحقيقة في هذه الصورة والهيئة .

ولقد بدأ هؤلاء الفتية كلامهم هنا بالتوحيد ونداء **رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ، فأسندوا ربوبيّة الموجودات جميعها إلى ذات الحقّ ، الحقّ الذي لا شريك له تعالى ؛ وأبطلوا الوثنيّة القائلة بإله وربّ لكلّ نوع من المخلوقات ، مثل ربّ السماء ، وربّ الأرض ، وربّ الإنسان .

ثمّ أكّدوا مطلبهم بقولهم : **لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا** ، فنفوا بهذه الحقيقة الآلهة التي جعلتها الوثنيّة فوق أرباب الأنواع كالعقول الكلّيّة ، ويعبدها الصابئة والبراهمة وطائفتا السيوا والوشنو .

ثمّ أكّدوا المطلب الآتي بقولهم : **لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا** .

فأعلنوا أنّ هذا الكلام مقرون بالظلم والتجاوز والغلوّ في حقّ المخلوق الذي يرقى به إلى درجة الخالق . ثمّ هاجموا قومهم وأبطلوا فلسفتهم بقولهم : **ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ**

وجملة القول إنّهم وقفوا في وجه الوثنيّين الذين كانت لهم فلسفتهم ، وأعلنواالتوحيد جهاراً ، فعُرّضوا للضرب والقتل والاغتيال ، وأُجبروا على الفرار من بلدهم واللجوء إلى الكهف الذي كان مقرّ رحمة الله .

ولقد أكرم الله تعالى قدوم ضيوفه ، فضرب على آذانهم ـ كما يُفعل بالأطفال من أجل هدهدتهم وتنويمهم ـ بنغمات الشوق وجذبات الرحمة الإلهيّة ، فناموا في ذلك المكان المرتفع الممتع ، يقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ـ كالأمّ العطوف التي تودّع طفلها المهد ، فتبقى ساهرة عنده تهزّ مهده ـ وذلك لئلّا تبلى أبدانهم ، وكانوا ينشقون النسيم الوارد في الغار بمأمن من الشمس وسطوع أشعّتها .

٨ ـ ما الحكمة في نوم أصحاب الكهف واستيقاظهم ؟

لقد وردت في هذا الشأن آيات عديدة ، إلّا أنّها لم تعدّ قصّتهم من الأُمور العجيبة . وارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة لها الدالّة على أنّ الله قد جعل ما على الأرض زينة لها يأنس بها الإنسان ويميل إليها ويصرف همّته كلّها في التوجّه إليها ، غافلاً عن غيرها تماماً ؛ ثمّ إنّ الله يبدّل الأرض بعد أيّام قلائل ساحةً خاليةً جرداء لا يدع فيها أثراً للزينة والموجودات ، وذلك ليشعرنا أنّ الحياة الدنيا ليست إلّا سراباً ولا تستحقّ أن يميل الناس إليها وينعطفوا باتّجاهها .

كما وقع لأصحاب الكهف ، إذ أنامهم الله ثلاثمائة سنة شمسيّة ، فلمّا استيقظوا لم يعدّوا نومهم وبقاءهم هذه المدّة الطويلة إلّا لبث يوم أو بعض يوم .

وهكذا الإنسان ، فإنّه يعيش في هذه الدنيا فيميل قلبه إلى زخارفها وزبرجها وزينتها وينصرف عمّا سوى الأُمور الدنيويّة ويغفل كلّيّاً ، كما في آية أصحاب الكهف .

ثمّ إنّ الله يحيي الموتى ويوقظهم من نومهم الثقيل ثمّ يسألهم :

كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .[1]

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .[2]

فليست قصّة أصحاب الكهف بالأمر الجديد ، بل إنّ ملايين الآيات من نظائرها تتكرّر وتجري على الإنسان مادام الليل والنهار .

إنّ الله سبحانه يريد في هذه الآيات أن يقول لنبيّه : لعلّك لم تفطن

---

١ ـ القسم الأعظم من الآية ١١٢ والآية ١١٣ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٢ ـ مقطع من الآية ٣٥ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

إلى أنّ اشتغال الناس بالدنيا وعدم إيمانهم بالقرآن لتعلّق نفوسهم بزينة الأرض آية إلهيّة تشبه آية أصحاب الكهف الذين ناموا ثمّ استيقظوا . والناس كذلك إذ يعيشون ، ثمّ يموتون ، ثمّ يُبعثون .

ليست قصّة أصحاب الكهف عجيبة ، فما يجري للناس جميعهم ، من ابتلائهم وفتنتهم بزينة الدنيا ، وغفلتهم عن أمر المعاد ، ثمّ بعثهم يوم القيامة وهم يحسبون أنّ لبثهم في الدنيا لم يكن إلّا قليلاً . هو بأجمعه من هذا القبيل .

لقد أنام الله أصحاب الكهف هذه المدّة المديدة ثمّ أيقظهم ليُفهِم مُنكري المعاد الذين هم من المتعبّدين بالآلهة وأرباب الأنواع والأصنام ، أنّ الموت والإحياء كرقود أصحاب الكهف واستيقاظهم تماماً .

فكيف ـ ترى ـ قبض الله تبارك وتعالى أرواح أصحاب الكهف في هذه المدّة الطويلة ، وعطّل إدراكاتهم ، وحواسّهم ، وسلب منهم الآثار البدنيّة ، كالنموّ ونموّ الشعر والأظفار ، وتغيّر الشمائل والقسمات ، وظهور آثار الكبر والشيخوخة ؛ وحفظ سلامة ظواهر أبدانهم من التلف ، وملابسهم من الرثاثة والبلى ، ثمّ أعادهم في الكهف كيوم دخلوه . وتلك هي قصّة انتزاع الأرواح من الأجساد بالموت ، ثمّ إرجاعها بتلك الحال التي كانت عليه في الدنيا .

كلتا القصّتين من خوارق العادات ، ولا سبيل إلى رفضهما إلّا باستبعاد وقوعهما فحسب .

لقد وقعت قصّة أصحاب الكهف في عهدٍ دار فيه نزاع شديد حول المعاد وبعث الموتى بين الموحّدين المعتقدين بمفارقة الأرواح للأجساد بالموت وعودتها إلى الأبدان عند البعث ، وبين المشركين الذين كانوا يقرّون بمفارقة الأرواح للأبدان عند الموت ، إلّا أنّهم كانوا ينكرون البعث

والمعاد وعودة الروح إلى البدن .

ولم يُبقِ وقوع هذه القضيّة وهذه الحادثة المشابهة من جميع الجهات لموت الخلائق قاطبة وبعثها أيّ تردد وشكّ للمنكرين أنـها كـانت آيـة إلهيّة تحقّقت لإزالة الشكّ والريب في البعث من قلوبهم ، بـدلالة المـماثِل على المماثَل ، ورفع الاستبعاد بواسطة التحقّق والوقوع .

وعلى كلّ حال ، فإنّ إحياء الموتى وبعثهم ليس بالأمر العجيب ، بـل شأنه كشأن سائر الأُمور اليوميّة ، إلّا أنّ الإنسان يستبعده لأنّه لم يُشـاهده . وإلّا فما العجب فيه ؟ وما البُعد في وقوعه ؟

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ .

الكُفر بمعنى التغطية والستر ؛ و«الذيـن كـفروا» أي : الذيـن سـتروا وجه الحقّ ، ولا يخضعون له ويقولون : لن تكون لنا قيامة . لكنّهم يخافون من أنفسهم ، وينكرون القيامة لئلّا يقعوا في الفخّ . وما عليهم إلّا أن يصلحوا أنفسهم ولا ينكروا الحقّ والواقع .

إنّ الكفّار يسلكون طريق القهقرى ، فينغمرون في الكـفر والسـيرة السيّئة الطالحة ، وينكرون القيامة ، بدلاً من التـزكية والعـمل الصـالح الذي يقرّبهم إلى القيامة ، مثلهم كمثل الحجل الذي يدفن رأسه تحت الثلج لينجو من يد الصيّاد ، ويخيّل إليـه أنّـه بـاستتاره واخـتفائه قـد نـجا مـنه ، لكـنّ المسكين لا يعلم أنّه قد سلّم نفسه للصيّاد .

قُلْ بَلَىٰ ورَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ . إنّ سـاعة القيامة سـتأتي ، سـواءً أنكـرتم أم لم تنكروا . قسماً بعالِم الغيب والمطّلع على الأسرار والخفايا لتأتينّ .

لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ .[1]

كلّ ما في عالم الوجود مدوّن مسجّل . فيا أيّها الكافر ، كيف تحاول إخفاء نفسك وسيرتك عن ربّك ؟ أفيمكنك الاختفاء بالإنكار ؟!

يقول لقمان لابنه :

يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .[2]

كلّ ما هو موجود في كتاب مبين وفي عالم الواقع . وعالم الواقع عين العلم الحضوريّ للذات القدسيّة للحقّ تعالى . وعليه فإنّ الموجودات جميعها في عالم الكون والواقعيّة حاضرة عند الله تعالى . فهو ليس محيطاً بها إحاطة علميّة فحسب ، بل إحاطة عينيّة وواقعيّة أيضاً .

إنّ علم الله بالموجودات علم حضوريّ لا حصوليّ ، ومعنى العلم الحضوريّ حضور نفس المعلوم والحقيقة المعلومة عند العالم . وهكذا فإنّ عين إيمان المؤمن وعمله الصالح ، وعين كفر الكافر وعمله الطالح حاضران عند الله تعالى :

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

وهذا الحضور والشهود عند الله تعالى للموجودات بأسرها ، حتّى الذرّات منها ، هو من أجل أن يجزي الله المؤمنين ذوي العمل الصالح ، وأيّ جزاء !!

مغفرة من الله ورزق كريم لا أذى فيه ، رزق ممتع هانئ رفيع .

١ـ الآية ٣ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٢ـ الآية ١٦ ، من السورة ٣١ : لقمان .

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ.

أمّا الذين يقفون في الجانب الآخر مقابل المؤمنين ، فلا يعترفون بحقّانيّة الله تعالى ، ويسعون في محو آياتنا والقضاء عليها ، ويريدون إخضاع المؤمنين وجرّهم إلى الذلّ والهوان . وهم يسعون حقّاً لاستباق أمر الله ، فجزاؤهم عذاب من رجز أليم .

بلى ، إنّ الذين يسعون لإطفاء نور المؤمن وإضعافه وتعجيزه وإذلاله ، هم في صدد معاجزة الله ونوره ، لأنّ المؤمن مَظْهَر الله ومُظْهِره ، ومحلّ تجلّي جمال الله وجلاله . فأُولئك قد قاموا في الحقيقة بكشف مكنونهم وفضح حقيقتهم الدنسة وباطنهم الملوّث .

مَه فشاند نور و سگ عوعو كند هر كسى بر باطن خود مى‌تند[1]

إنّ الكلب لا يمكنه تحمّل نور القمر عندما يفيض بأشعّته المنيرة على العالم في الليالي المقمرة الوضّاءة ، فيمتلئ غيظاً وحسداً ويبدأ بالعواء . كما أنّ النمر المشحون استكباراً يرتقي قمّة الجبل للإمساك بالقمر وافتراسه وتمزيق أوصاله ، فيقفز من قمّة الجبل في الفضاء ليمسك القمر بمخالبه ، فيسقط ويهوي إلى الوادي السحيق فتنسحق عظامه .

أي : أنّهم يشترون بنفس عملهم هذا الفناءَ والبوار والهلاك لأنفسهم ، ويحفرون قبورهم بأيديهم .

سَعَوْا فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ ؛ فهم لا يدركون أنّ هذا السعي والجهد في سبيل القضاء على القمر ونوره هو عين الوصول إلى العذاب الأليم والسقوط في أحضان الرجس والنكبات . عذاب تنسحق فيه العظام وتتحطّم مئات الأوصال ، ومهما اشتدّ العذاب وأحرق الجلد واللحم ، فإنّهم سيذوقون

١ـ يقول : القمر يسطع بالنور ، والكلب يعوي ؛ وكلٌّ ينسج على منواله .

العذاب أكثر بنموّ جلدٍ ولحمٍ جديد.

والمثال الواضح أنّ حاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي أربعة، لكنّه يعاند فيقول إنّه يساوي خمسة !!

ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ.[1]

هذا العذاب هو نفس إنكارهم واستكبارهم وقد تجلّى في هيئة هذا العذاب الأليم والأذى المرير. يقولون: إن هذا النبيّ إلّا امرؤ مثلنا يأمرنا وينهانا ويقول إن عصيتموني فإنّ هناك قيامة تنتظركم وإنّكم ستُجزون بأعمالكم. وكيف يعود الجسد البالي المتلاشي إلى حالته الأُولى ؟! أو يعود البدن الذي تفرّقت وتبدّدت أوصاله إلى الحياة.

إنّ أثر العمليّة الجراحيّة يبقى في البدن فلا يبرحه، فكيف لا يبقى أثر من جمع بدنٍ تفرّق إرباً إرباً، ويحضر الإنسان ببدن تامّ كامل يوم القيامة ؟

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ.[2]

وهذا كلام سخيف جدّاً ويبعث على السخريّة، وهو قائم على أساس التخيّل والكذب.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ.[3]

ولقد كان الكفّار والمشركون يسعون بهذه الكلمات أن يتصدّوا لعمل رسول الله ونشاطاته ويعرقلوا مسيرته، وذلك من أجل أن يكونوا مطلقي

١ـ الآيات ٢٣ إلى ٢٨، من السورة ٧٤: المدّثّر.

٢ـ الآية ٧، من السورة ٣٤: سبأ.

٣ـ النصف الأوّل من الآية ٨، من السورة ٣٤: سبأ.

العنان في ساحة نشاطاتهم الشهويّة ، وفي الاعتداء على حقوق الضعفاء والمساكين والمستضعفين .

بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ .[1]

نعم ، إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ويخالون الدنيا عبثاً ، ويعدّون الإنسان مهملاً متروكاً بلا حساب في هذا العالم المدهش المليء بالعجائب والغرائب ، هم في العذاب والضلال البعيد .

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ .[2]

فما أشدّ ضلالهم وغيّهم ! وما أشدّ عمى قلوبهم وبواطنهم ! وما أتفه فكرهم ودرايتهم ! وما أقلّ تحمّلهم وتأمّلهم وصبرهم ، وأسرع تخطّيهم للأُمور !

أفلا يرون أنّ كلّ آياتنا السماويّة والأرضيّة هي في مرأى منهم ومسمع ، ومتى شئنا ، قلبناها وهي منقادة طيّعة لإرادتنا ومشيئتنا ؟

أفلا يكفيهم مشاهدة كلّ هذه الوقائع التي ظهرت في الدنيا ، كالرياح والأعاصير والزلازل والخسف وآلاف الآيات الإلهيّة الأُخرى ، كالصواعق والبروق والتغيّرات الجويّة والبريّة والبحريّة ؟ أفيريدون الفرار من أيدينا ؟ أو الفرار من أيدي رسولنا ؟

إنّنا لسنا أعداء لهم ، وليس رسولنا عدوّاً لهم ، بل إنّنا ورسولنا ندعوهم إلى الحقّ والواقعيّة إذ إنّ هناك ربّاً لبناء الوجود الشامخ هذا ، ولعالم الخلق هذا ؛ وإنّ للإنسان بداية ونهاية ، وإنّ كلّ عمل في هذه الدنيا له ما

١ـ النصف الثاني من الآية ٨ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٢ـ الآية ٩ : من السورة ٣٤ : سبأ .

يقابله في ذلك العالم، وعلى الإنسان أن لا يتغافل، إذ أنّه سيجد نفسه فجأة أمام جزاء أعماله القبيحة، وأمام جهنّم التي **أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** .

إنّ من لا يمكنه أن ينكر نفسه أو ينكر وجوده، فلا يمكنه كذلك أن ينكر الله تعالى، لأنّ وجود الإنسان ملازم لوجود الله . (أنا موجود) تعني (الله موجود) .

كما أنّ من لا يمكنه إنكار فعله أو إنكار سلوكه وسيرته، فإنّه لا يمكنه إنكار القيامة . فالسلوك والسيرة ملازمان للجزاء، بل هما عين الجزاء . عملي يعني جزائي . فعلي يعني جزائي .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ.[1]

إنّ هؤلاء المرضى ينكرون ـ من أجل أصالة المادّة ـ الحياة الأبديّة والمعنويّة وحقيقة تجرّد الروح؛ وينكرون المعاد كي لا يتخلّفوا عن قافلة عبدة الدنيا والمتأثّرين بها، ويلجون هذا البحر الخضمّ اللا متناهي غير مبالين .

إنّ هذا الإنسان الذي توصّل إلى مقام خليفة الله، وصار عنوانَ ومَظهر الله، قد أسقط نفسه وحطّها في دركات ذلّ المادّة، وانغمر في الجاه والآمال الجوفاء التي لا أساس لها، بحيث صار كمثل الوحوش التي تجتمع على الجيف، وصار ينفق فكره وذكره ودرسه وبحثه وهمّه ومراحل عمره في تناول الجيف . وأصبح لا يفهم شيئاً إلّا البطن والمادّة والاقتصاد ولا يتوكّأ على أساس، فلا أصالة ولا وجدان ولا روح ولا قيامة . ويقول : لا شيء إلّا الدنيا وشؤونها، وينبغي التوكؤ عليها . وما أكبرها من تهمةٍ لله، ولمقام الإنسان، وللخلقة !

١ـ الآية ٢٦، من السورة ٣٤: سبأ .

جعلتم هذا الإنسان الشريف الملكوتيّ ، الذي هو مرآةٌ تامّة الظهورِ للحقّ وصفات جماله وجلاله ، ومظهر أسمائه العليا ، الإنسان الذي جاء إلى الدنيا لكسب الفيض والكمال ؛ جعلتموه حيواناً يقتات على الجيف .

وأنزلتموه ـ بهذه المدارس المادّيّة والأنظمة الاقتصاديّة ـ عن مقام المعنى والروحانيّة ، ووضعتموه في مصافّ البهائم شبيهاً بالسباع والوحوش . **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ .**

سنجتمع أخيراً عند الله فيفصل بين منطقنا ومنطقكم ، ويحكم بالحقّ ، ذلك اليوم هو يوم الجمع .

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ .[1]

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .[2]

لقد قدم الناس تدريجيّاً إلى الدنيا ، ثمّ يرحلون عنها ، فقد جاء بعضهم قبل ألف سنة ، وبعضهم لم يولد إلى الآن ، وسيولد بعد ألف سنة . وجاء جماعة قبل آلاف السنين وستجيء جماعة في المستقبل ، لكنّ الله سُبحانه سيجمع الجميع في عالم واحد وفي يوم واحد . هناك حيث يوم **الجمع** ؛ وسيجمع الله الناس كلّهم ثمّ يحكم بينهم ويفصل بينهم على أساس النوايا والعقائد والأعمال ، فمن كان له مظلمة في الدنيا أو معضلة لم تحلّ أو حقّ سُلِبَ منه فلم يتمكّن من استرداده ، ولم تكن له حجّة أو منطق يمكنه به استرداد حقّه في الدنيا ؛ أو كانت له حقيقة تجلّت له فأصرّ على إفهامها الناس فلم يدركوها أو يقتنعوا بها ؛ فإنّ كلّ تلك الأُمور سيُفصل فيها هناك ، وسيعود الحقّ إلى أهله ، **وَكُلُّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ . وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ .**

١ـ صدر الآية ٩ ، من السورة ٦٤ : التغابن .

٢ـ الآية ٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * ... * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ.[1]

١ـ الآيتان ١٩٢ و ١٩٤ ، من السورة ٣ : آل عمران .

فهرس التأليفات



بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقوم مؤسّسة ترجمة و نشر

(دورة العُلوم و المعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

معرفة الله (١) (الله شناسى)	ثلاثة أجزاء
معرفة الإمام (٢) (امام شناسى)	ثمانية عشر جزء
معرفة المعاد (٣) (معاد شناسى)	عشرة أجزاء

دورة العلوم :

الأخلاق و الحكمة و العرفان (٤)

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالۀ سير و سلوک منسوب به بحر العلوم)

الأبحاث التأريخيّة (۷)

۱ ـ لَمَعات الحُسين عليه السلام

۲ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة و مشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت « مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجاً إلى القرّاء المحترمين .

وللحصول على نظرة إجماليّة لهذه المؤلّفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأوّل من هذا الكتاب .

